سليمان جمال سليمان



الشندورة
وصفحات مستورة

رواية

مركز الحضارة العربية

الشمندورة

وصفحات مستورة



مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

سليمان جمال سليمان

الشمندورة
وصفحات مستورة



الكتاب: الشمندورة وصفحات مستورة

الكاتب: سليمان جمال سليمان

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠١٠

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني:
وحدة الكمبيوتر بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٦٦٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-291-971-0

سليمان، سليمان جمال.
الشمندورة وصفحات مستورة/ سليمان جمال سليمان. - الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠٠٩.
٣٢٠ ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ٠ - ٩٧١ - ٢٩١ - ٩٧٧
١ - القصص العربية.
أ - العنوان ٨١٣

إهداء

إلى النوبة الشهيدة...

الغارقة فى أعماق البحيرة... تئن وتنتحب...

تشكو الهجرة والجفاء... غاصت... واستقرت...

وسكنت قاع الخضم... أطلالاً بائدة متساقطة...

حبًّا وفداءً لمصرنا الأم الحبيبة...

تجنبها الطوفان والفيضان... والتحاريق والجفاف...

ليعيش وطننا الغالى فى رخاء ورفاهية وأمان.

إلى تلك النوبة التى تشعبت وتشابكت جذور هواها
وتشبثت بشغاف قلوبنا... وما زالت ذكريات تراودنا
للأبد... خلسة بين الحين والحين... خيالاً وحلما...

رحماك ربى بها وبنا.

شكر وتقدير

لكل الذين عاصرو الزمن الذى جرت به أحداث هذه الرواية وعاشوا تلك الأيام بآمالها وآلامها وحلوها ومرّها فصارت ذكريات الماضى فلم يبخلوا بها على الكاتب وأدلوا بمعلومات وأحداث نادرة المرجع أو المصدر حبًّا وأملاً فى إحياء التراث النوبى والحفاظ عليه كتابًا ملموسًا فى متناول أيدى القرّاء من هذا الجيل والأجيال القادمة بارك الله فى أعمارهم وأبقاهم متمتعين بالصحة والعافية.

وأخص بالذكر الشكر والتقدير للحاج/محمود الشيخ محمد عبد العزيز الذى شجع مدعما فكرة الرواية حرصا على هذا التراث من الضياع فى بحر النسيان وبعون الله تعالى ومشيئته تولى الرواية برعايته الكريمة حتى خرجت إلى حيز الوجود والنور.

جزاهم الله جميعًا خير الجزاء

تقديم

هنيئًا لك أيتها النوبة السمراء.... ذات القلوب الصافية البيضاء.... النوبة المعطاءة بنفس راضية وسخاء... بيد معطرة بالمسك والصندل فيحاء... النوبة الولودة الودودة.... النوبة القابعة فى أقصى الجنوب.... هنيئًا لك بما أنجبت من أبنائك الأدباء شعراءً وكتاب.

شعراء سرب البلشون يطير شمالاً: عبد الدايم طه وزكى مراد وإبراهيم شعراوى ومحمد خليل قاسم ومحمود شندى، شعراء تختلف تجاربهم الشعرية ولكنهم تميزوا بسمات عاطفية خاصة وانفعالات متميزة عن بقية شعراء الجمهورية اغتربوا عن قراهم النوبية ولكنهم عادوا إليها بكل الشوق والحنين.

وجاء بعدهم جيل تالى من الشعراء يبدعون فى براعة واتقان لأدوات التعبير والبلاغة ومن كتاب القصة والرواية الذين جسدوا عادات وتقاليد وموروثات المجتمع النوبى الذى يعد أكثر المجتمعات تمسكًا ومحافظة عليها وعمدتنا فى هذا المجال رواية (الشمندورة) لمحمد خليل قاسم رائد الرواية النوبية فهى أول رواية فتحت الباب لذلك الطريق الواسع الذى سار فيه من بعده الأدباء النوبيون يكتبون ويعبرون عما عاشوه فى حياتهم بأسلوب روائى بديع وإذا كانت الشمندورة قد توقفت عند فترة الثلاثينيات ولم يشأ لها القدر أن تستكمل لتتناول فترات تالية من تاريخ النوبة فقد حاولت الروايات التى تلتها أن ترسم ملامح المجتمع النوبى بعد فترة الشمندورة، ويمكن القول بأن أدب القصة القصيرة والرواية النوبية شكل سمة بارزة فى أدبنا الروائى المعاصر، فقد كانت الشمندورة ثم تلتها روايات أخرى للأديب حجاج أدول ليالى المسك العتيقة وبكاة الدم والكشر، وللأديب حسن نور مجموعة الهاموش وبين

النهر والجبل وأنا الموقع أدناه، وللأديب إدريس على المبعدون وواحد ضد الجميع ودنقلة، وللأديب يحيى مختار مجموعته عروس النيل وتبدد، ولإبراهيم فهمى مجموعة القمر بوبا وبحر النيل و....

وعلى الطريق جيل آخر يتقدمهم سليمان جمال سليمان الذى يتقدم ببطاقة جديدة وروايته (فى مقهى المدبولى) محاولة منه ليحصل على عضوية النادى النوبى للرواية والقصة يستقى من نبع من سبقوه ويغترف من معينهم تدور أحداثها فى أقصى الشمال بين مدينتى الإسكندرية ودمنهور تدور حول الصراع الأزلى بين الحق والباطل والخير والشر، يعرضها برؤية جديدة وفلسفة نابعة من المبادئ الإسلامية السمحة فى أسلوب يتنوع بين السرد والحوار والربط بين أحداث الرواية وشخصياتها المتنوعة فى مواقع مختلفة.

وبروايته التى بين أيدينا (الشمندورة وصفحات مستورة) يعود إلى أقصى الجنوب إلى أرض النوبة العريقة ويقدم وثيقة أدبية ويكشف النقاب عن تلك الصفحات المستورة من أحداث وموروثات وآمال وآلام فى سجل تاريخ النوبة ويبين الكاتب فى البداية المدلول اللغوى للشمندورة وما توحى إليه من معانى صريحة ورمزية ويعلل التعبير عن النوبة والرمز إليها بالشمندورة وقد اتخذ الشمندورة اسمًا للقرية الخيالية التى دارت فيها أحداث الرواية كما جاءت أسماء الشخصيات الخيالية تؤكد تلك الرمزية والإيحاء.

وباستقراء أحداث الرواية يتبين للقارىء تلك الطيور المهاجرة شمالاً لطلب الرزق أو العلم بينما يرحل البعض عن الشمندورة شمالاً ضحية العادات والتقاليد السائدة التى اكتسبت قوة القانون الملزم فيرحل عنها رافضًا ثم تعود تلك الطيور المهاجرة جميعًا إلا فيما ندر يعودون إلى النوبة فمنهم من يعود يتأبط زوجة شقراء تتبعهما ذرية تجمع بين سمار البشرة والشقرة تمتزج فيهم السمات والصفات الأصيلة الجنوبية بالموروثة والمكتسبة من الشمال ولا غرابة فى عودتهم بعد سنوات وسنوات من الغربة أو القطيعة فقد شدوا إلى النوبة الحبيبة بسلاسل

الولاء والانتماء وبأغلال المحبة وصلة الأرحام وقيود ماء النيل الصافى الذى شربوا منه وبرباط الرمال الصفراء الذهبية.

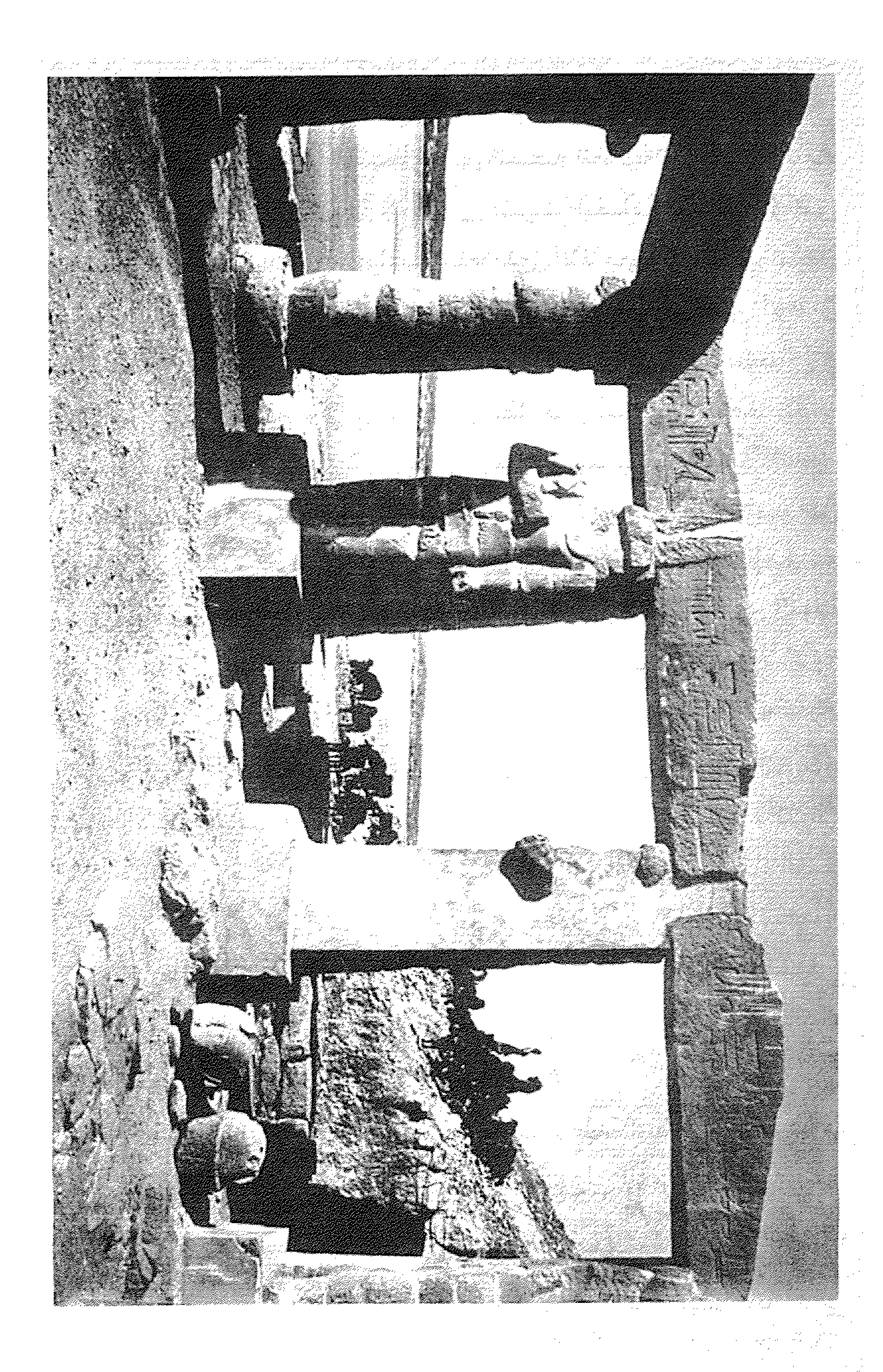
ولم تكن الهجرة إلى الشمال هى السمة الغالبة والعامة لجميع أهل النوبة ولكن الغالبية العظمى آثرت البقاء والاستقرار فى النوبة رغم الأحداث والحوادث متحملين الآلام والمتاعب ينشدون الآمال فى ثبات وتحدى للمتغيرات من الطوارئ ونوائب الزمان كالشمندورة مشدودة إلى الأعماق بسلاسل وأغلال لا تستطيع الإفلات منها أو تقتلع من مكانها من ثقل ما وثقت به صامدة ثابتة متمثلة فى نماذج بشرية: عثمان باشرى وشقيقه محى الدين وشقيقتهما محروسة بينما شقيقهم سيف الدين باشرى فهو من الأكتوبريين الذين يعودون فى أكتوبر ونوفمبر من كل عام موسم جنى المحصول من حاصلات زراعية وثمر النخيل فتغشى قرى النوبة الفرحة والسعادة بقدومهم، وكأنهم فى موسم الحج والأشهر الحرم وجاءوا من الشمال ليستلموا الحجر الأسود أو أستار الكعبة.

وتتوالى الأحداث وتعرض الرواية الجوانب المختلفة لحياة النوبيين مرورًا بالأحداث الهامة والمؤثرات الجلل وتبلور العادات والتقاليد والتراث التليد منذ بناء خزان أسوان ثم التعلية الأولى والثانية حتى بناء السد العالى والهجرة الجماعية للنوبيين إلى وادى كوم أمبو ويكون التساؤل والسؤال: هل استمرت تلك الشمندورة صامدة وثابتة فى مكانها تصارع الأمواج وتقاوم الرياح أم اقتلعت واجتثت سلاسلها وتحررت من القيود تتقاذفها الأمواج تطفو متحركة ما لها من قرار؟؟!!!!

معًا أيها القارئ العزيز الشغوف نقلب الصفحات.... نقرأ..... نبحث...... نتعمق.... نكتشف الصفحات المستورة ونتعرف على الروائى وروايته.

عاشق النوبة الذى عاش بين أحضانها سنوات

الأستاذ/ أحمد سعيد طلبه المحامى



تنويه

الشمندورة قرية خيالية من نسج خيال الكاتب وهى نموذج فريد للقرى النوبية اجتمعت فيها كل مظاهر الحياة والخصوصيات والسمات المميزة لكل قرية ففيها البربا (المعبد) والجزيرة والنجوع المختلفة والمدرسة وكتاب القرية والجبال والسهول والموردة والشاطئ، حيث تطل على النيل كما أنها تأثرت ببناء الخزان وتعليته ثم ببناء السد العالى لذا انتقلت من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى المرتفعات وقمم الجبال يطاردها ارتفاع منسوب النيل، ومن سكانها من رحل إلى مختلف أقاليم القطر المصرى بعيدًا عن الغرق والطوفان كما اشتملت الشمندورة على نماذج مختلفة ومتنوعة من السكان من حيث الأصل والجنس والطبقة الاجتماعية ومن سادة وعبيد؛ فمنهم النازحون إليها والنازحون منها لأسباب وأسباب والوافدون إليها لغرض التجارة والشحاذة والمرور بها كطريق إلى الحج من الجنوب وكان من أهلها أوائل المعلمين والمعلمات من حملة مشاعل العلم ولا يجتمع كل ما سبق فى قرية من القرى إلا فى هذه القرية النموذجية التى هى من وحى خيال الكاتب.

وحاولت جاهدًا أن تكون أسماء الشخصيات من الأسماء المشهورة والمتداولة فى النوبة بوجه عام وفى أقسامها الثلاثة.

وأحداث الرواية من نسيج خيال الكاتب ولاصلة لها بأسماء وشخصيات واقعية فمعذرة ثم المعذرة إذا توافقت أو تطابقت وتشابهت أسماء الشخصيات والأحداث الخيالية مع واقعية وحقيقية فهى غير مقصودة لذاتها ولكنها جاءت بالصدفة المحضة؛ فالرواية خيالية وما تطابق وتشابه منها فهو من قبيل المصادفة البحتة فمعذرة.

الشمندورة

الشمندورة علامة مميزة، كروية الشكل، ذات لون أحمر، تطفو على سطح المياه، تحذر وتنذر عن وجود مخاطر وأهوال ملاحية فى المنطقة التى تطفو فوقها، فتحوم القطع البحرية حولها ولكنها لا تقترب منها ولا تخترقها. والشمندورة مشدودة إلى الأعماق بسلاسل وأغلال لا تستطيع الإفلات منها، أو تقتلع من مكانها من ثقل ما وثقت به، فتظل ثابتة صامدة تقاوم الأمواج وتصارع عوامل التبديل والتغيير عبر الأيام والأزمان، لا تتغير، ولا تتبدل أو تتحرك من مكانها، ولذا اتخذت الشمندورة رمزًا للنوبة العريقة التى تعرضت مرارًا وتكرارًا لعوامل كثيرة، ولكنها ظلت وستظل ثابتة صامدة مرفوعة الرأس على مر العصور والأزمان، فلم تهن أو تضعف، رغم الطوفان والفيضان والغرق، رغم البناء لموانع المياه من سد وخزان أو تعلية لتلك الحواجز، رغم التنقل والارتحال والهجرة من مكان إلى مكان عبر الأزمان ومر الأيام، بقيت وستظل النوبة راسخة بعاداتها وتقاليدها وأصولها وجذورها الثابتة الضاربة فى أعماق التاريخ، ذات الحضارة منذ آلاف السنين.

وأطلق على النوبيين اسم (منكوبى الخزان)، لأن نكبة النوبيين ومشاكلهم ومتاعبهم بدأت مع بناء الخزان، (خزان أسوان) سنة ١٩٠٢، ثم التعلية الأولى عام ١٩١٢، والثانية عام ١٩٣٣، ثم السد العالى والهجرة الكبرى فى ١٩٦٤، فمع حبهم وارتباطهم بالنيل وتقديسهم له، فقد كان مكمن الخطر، وكانت الشكوى منه والألم والعناء والإضرار بالحرث والنسل والزرع والضرع، ولما غمرت

المياه الأراضى الزراعية، وسعى النوبيون فى ١٩٢١ لبحث موضوع الأراضى المغمورة بمياه النيل، ونقل الأهالى إلى جهات مختلفة تصلح للزراعة والفلاحة، وطالبوا الحكومة بذلك حتى خصصت لهم أراضى زراعية، بالكلح غرب مركز أدفو باعتها لهم بالتقسيط، كما طالب النوبيون الحكومة ممثلة فى وزارة الأشغال بتنفيذ مشروعات الرى لأراضى قرى مركز الدر، بعيدًا عن خطر الفيضان بآلات رافعة فى يناير١٩٢٧، واستقر الرأى على تنفيذ مشروعات الرى بالآلات الرافعة الثابتة، أو بآلات رافعة على صندل والرى بالتناوب، وظل النوبيون حينًا من الدهر بعيدين عن الأخذ بأسباب الرقى العلمى والأدبى والمادى عدا أفراد قلائل منهم، أوتوا نصيبًا من العلم والرقى، وقد ظهر منهم رجال[1] رغبوا فى النهوض بالنوبيين إلى مستوى أفضل وحملوا على عاتقهم مسئولية النهوض بالنوبة، وكانوا جديرين بالإعجاب والثناء لأنهم سعوا إلى الخير جهدهم.

وقد كان التعليم فى كتاتيب منتشرة فى القرى المختلفة، تقوم بتحفيظ القرآن الكريم، وبتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، مثل كتاب الشيخ شليب، والباقر، وطه، وحمزيلى، وأحمد هارون، وأحمد هارون هذا نزح من قرية الجنينة والشباك إلى عنيبة، نجع {سينسّرا[2]} واستقر بها، وسمى النجع باسمه أحمد نركى، وقد أنعم عليه عمدة عنيبة بتلك المنطقة، ليقيم فيها تقديرًا لدوره العظيم فى تعليم الصبية فى الكتاب ويحكى عن الشيخ أحمد هارون أنه كان يلقى درسًا فى مجلس علم وجاء على لسانه لفظ {ربما} فعلق على أحد الصبية الأشقياء قائلا:

---

(1) الشيخ صالح مرسى كان له دور كبير فى إعادة فتح مدرسة الدر، حيث تقرر إغلاقها لقلة عدد التلاميذ، لظروف الفيضان والطوفان، فاستطاع جمع العدد المناسب، بجهود مضنية وتم إعادة فتح المدرسة مرة أخرى.

(2) محرفة من سنسرا اسم فرعونى بتسكين السين الثانية بدلا من التشديد.

{فرسّما[1]} بتشديد السين وكسرها وفرّ هاربًا فانزعج الشيخ أحمد متضايقًا وقطع حديثه معترضًا على هذا التعليق السخيف من وجهة نظره قائلاً لأهل الحى:

إنكم لستم أهلاً للعلم أو لتلقى العلم!!! وقام من مجلسه وانصرف عنهم ورحل منذ ذلك اليوم.

ولا ينسى دور الشيخ محمد عبد العزيز إمام مسجد عنيبة وهو عالم جليل من علماء الأزهر حصل على الإجازة العالمية كفيف البصر يرى ببصيرة ذو هيبة وشخصية قيادية قوية يحترم آداب المسجد ويثور لهمهمة أو همسة فى المسجد ولو فى مكان الوضوء يدين له الجميع احترامًا ووقارًا تولى مهمة تحفيظ القرآن الكريم وحفظ على يديه كثير من أبناء النوبة منهم من تولى إمامًا وخطيبًا فكان الشيخ محمد عبد العزيز علمًا من أعلام النوبة اقترن اسمه بعنيبة كما اقترنت عنيبة باسمه تلازمًا وعلامة.

---

(1) فرسّ من المكاييل النوبية للحبوب والغلال والدقيق وغيره وثمانى مكاييل منه تساوى كيلة أى ربعين والصبى الشقى عقد مقارنة وعلاقة بذكاء وخبث ممزوجًا بشىء من المزاح بين فرس والربع وربما فى النطق.

الطوفان

فى كل مرة يعتصم فيها النوبيون بالجبال والمرتفعات، ويعيد النوبى وينشئ سكنه ولكن لا يزال النيل يطارده، فلا يهدأ له بال، ولا يهنأ له عيش، ولا يطيب له استقرار، ولما كانت فكرة تعلية الخزان للمرة الثانية تراود الحكومة، قلق النوبيون، وانتابهم الفزع، وساورتهم المخاوف، وما أن روجت الإشاعات فى هذا الأمر، حتى بادر النوبيون باتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم المساس بحقوقهم، وتحرك النائب حضرة صاحب العزة محمد بك طه، وقابل معالى عثمان باشا وزير الأشغال، وأفضى إلى معاليه بآرائه فى هذا الصدد، ونقل إليه مشاعر النوبيين، فأخبره بأن الأمر لا يعدو قيد البحث الأولى، وأنه إذا رجحت كفة تعلية الخزان على إنشاء خزان جبل الأولياء، أن تدعو الحكومة نائب الدر، وتباحثه فى الأمر قبل أن تقدم على أى عمل، وعندما استقر الرأى على تعلية خزان أسوان، صدر القانون رقم ٦ لسنة١٩٣٣ والخاص بنزع الملكية، وصرف تعويضات عن بعض الأراضى والأملاك الأخرى التى تغمرها المياه بسبب التعلية والغمر، وكانت التعويضات زهيدة مع تمسك البعض بالأرض، وكان الاعتراض، ورفض مبدأ الهجرة، ومقاطعة صرف التعويضات، واختلفت الآراء، وتفرق الجمع، مع أن الحكومة أصدرت تعليمات بتسهيل الملكية والإقامة لمنكوبى الخزان (النوبيين)، أينما حلوا فى أنحاء المملكة.

وبينما النوبيين فى خلاف واختلاف فى الرأى، فاض النيل، وطغى الماء، وحلت النكبة، وصرفت التعويضات عن الممتلكات

التى غمرتها مياه النيل، من مساكن وأراض زراعية وسواقى وزروع، ونخيل وأشجار، وتم إقرار تقديرات اللجان، وكانت جائرة قروش معدودة، وثمن بخس زهيد لا يسمن ولا يغنى من جوع، ورغم مطالبة البعض من القيادات الطبيعية وذوى الحل والعقد بعدم الصرف والمقاطعة، ولكن هذه الأصوات لم تنجح أمام إصرار الحكومة من ناحية، وإغراء الجنيهات وبريق القروش والحاجة الماسة والشديدة[1] إليها فكانت أقوى من صوت المعارضة، وكانت الغلبة لقرار الحكومة،وتم الصرف وفتحت السجلات، واتخذت التوقيعات، وتفرق النوبيون فى كل صوب وحدب فى أنحاء المملكة، ولما غمرت مساحات من قرية الدر التى كانت مركزًا لقرى النوبة قبل ٣٢ وضاقت المساحة، حضر مستر (هيث) المندوب الانجليزى بوزارة الأشغال (الرى) على رأس وفد إلى منطقة الدر والديوان وأبو حنضل، وعرض عليهم الهجرة والانتقال غربًا إلى مرتفعات الصحراء، على أن يظل المركز وملحقاته من المنشآت الحكومية فى غرب النيل، حيث مرتفعات الصحراء، وبقى لمدة أسبوع تقريبًا فى (دهبيته) القطعة البحرية، لإقناع الأهالى بذلك ولكنه لم يصل إلى نتيجة، فقد فضل البعض من الأهالى الانتقال إلى قنا (الطود - الوحدة - منشية النوبة - نجع الكنوز) وإلى أسوان منشية النوبة، ودار السلام النوبية[2] قرب مدينة دراو، وفى طريق عودته مر على منطقة عنيبة، ولاحظ تلك المنطقة الواسعة بعيدًا عن غمر مياه النيل، فأشار بأن يكون ذلك المكان المتسع مقرًا لمركز قرى النوبة، وبالفعل نقل المركز وملحقاته من المنشآت

---

(1) كانوا فى أشد الحاجة ليبنى المسكن الجديد فى القمم والجبال واستدان الكثير على قيمة التعويض.

(2) فى قرية دار السلام، حصلوا على خمسمائة فدان من الأراضى الزراعية بدون مصدر مياه، فظلت قاحلة واتجه بعضهم إلى الأعمال الحكومية بدراو حتى سنة ١٩٦٤ حيث توفرت المياه للزراعة بعد ذلك.

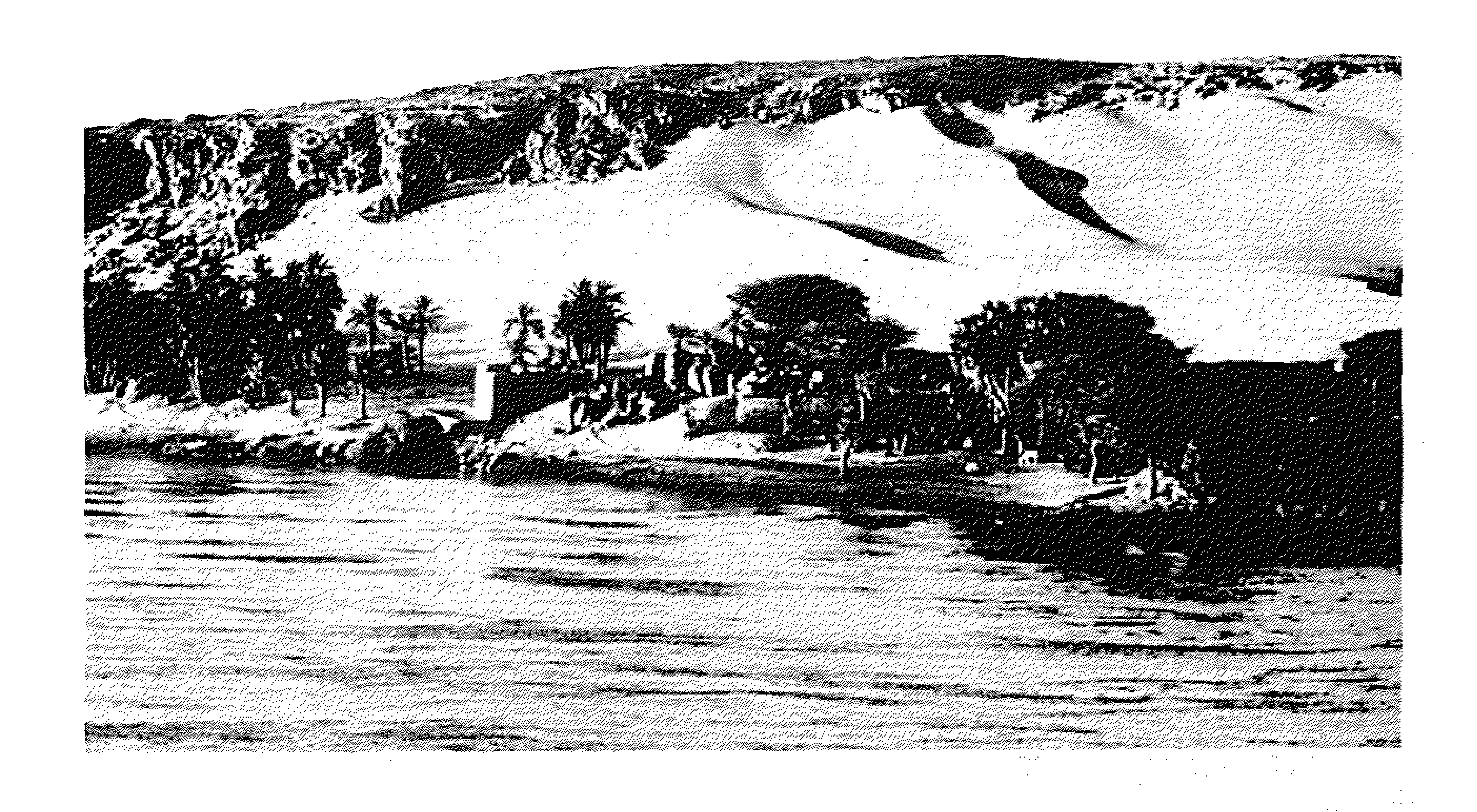
الحكومية، ونقل إليها العاملون فى المصالح الحكومية، ونزحوا إلى تلك المنطقة فى عنيبة حى السوق، بحرى وقبلى، ونزح إليها أصحاب المصالح والتجار ورجال الأعمال الحرة، من قرى النوبة وغير النوبة وسكن بالمنطقة بعض أهالى عنيبة، وسميت المنطقة بحى الفاروقية نسبة إلى الملك فاروق، ليحصلوا على امتيازات من القصر الملكى، حيث كان كثير من النوبيين يعملون بالقصر الملكى (الحرملك) اطمئنانًا لأمانتهم وإخلاصهم والثقة فيهم، لأن بالحرملك نساء القصر الملكى من الأسرة المالكة، وشهدت عنيبة عهدًا جديدًا، وكان لها شأن عظيم عاصمةً ومركزًا لقرى النوبة.

كما كان لقرية بلانة دور كبير فى احتضان النازحين إليها من قرى النوبة، فقد وسعتهم بما لها من أراض زراعية، وأشجار ونخيل وبساتين وحدائق فيحاء، ولذا سميت مناطق كثيرة من قرية بلانة بأسماء المناطق التى نزحوا منها، مثل حوض قتة، وحوض أبريم وهكذا، وكانت المقولة المشهورة عن قرية بلانة الحاضنة (بلانة ل وراتورا آنجا) ومعناها بالنوبية (اعبر إلى بلانة، تجد سبل الحياة وسعة فى العيش) ونلاحظ فى بلانة، تنوع أصول أهلها، وزيادة كثافة السكان بها، فهى بمثابة مائدة الطعام، التى تزخر بما لذ وطاب، وتمتد إليها الأيدى من كل اتجاه.

فقد ارتفع المنسوب فى مياه النيل، عند بناء الخزان سنة ١٩٠٢، وتأثرت حوالى ست قرى شمالاً من دابود حتى ماريا، وعند التعلية الأولى فى ١٩١٢، امتد التأثير حتى كروسكو، وفى التعلية الثانية فى ١٩٣٣ امتد التأثير إلى كل قرى النوبة شرق وغرب النيل، وفى سنة ١٩٦٤ بعد بناء السد والهجرة الكبرى تكونت بحيرة السد العالى {ناصر} على أنقاض قرى النوبة.

وفى كل مرة يفيض ماء النيل، ويطغى يكون التنقل والارتحال إلى المرتفعات وقمم الجبال، فى محاذاة الأرض المغمورة، أو إلى

قرى أرحب وأوسع مساحة، أو إلى الغرب حيث سلاسل الجبال غرب النيل بعيدًا عن تأثير طغيان مياه النيل، فى المنطقة الشمالية بوجه خاص حيث ضاقت بهم الأراضى الزراعية، مصدر الرزق غالبًا فقد كان النزوح إلى قرى فى المنطقة الجنوبية أقل تأثيرًا، بحثًا عن مورد رزق، ومكان آمن من شبح الغرق، وكان منهم أرباب الحرف والمهن اليدوية، مثل تجارة السواقى، والأثاث، والآلات الزراعية اليدوية، أو البناء وغير ذلك، فاستقروا بتلك القرى الجنوبية التى وجدوا فيها مآربهم، مثل قرية عنيبة، وتوشكى، وغيرها من القرى واستقروا فى نجوع وأحياء مختلفة، وظل النوبيون سنوات وسنوات، يطاردهم فيضان النيل، مثل جماعات النمل التى تبنى بيوتها بكل الجهد والتعب، فيأتى عاصف ويهدم ما شيدت، وتطيح بالمخزون من مؤونة العيش، فتختار مكانًا آخر، تعتقد أنه أكثر أمانًا، وتعود الكرة، تبنى مسكنها مرة أخرى، بل مرات ومرات، وهكذا فقد كتب القدر عليهم أن يكونوا دائمى الترحال والتنقل، حتى استقر بهم الحال فى كوم أمبو، وما زال البعض يفكر فى العودة.



الشيخ وهبى

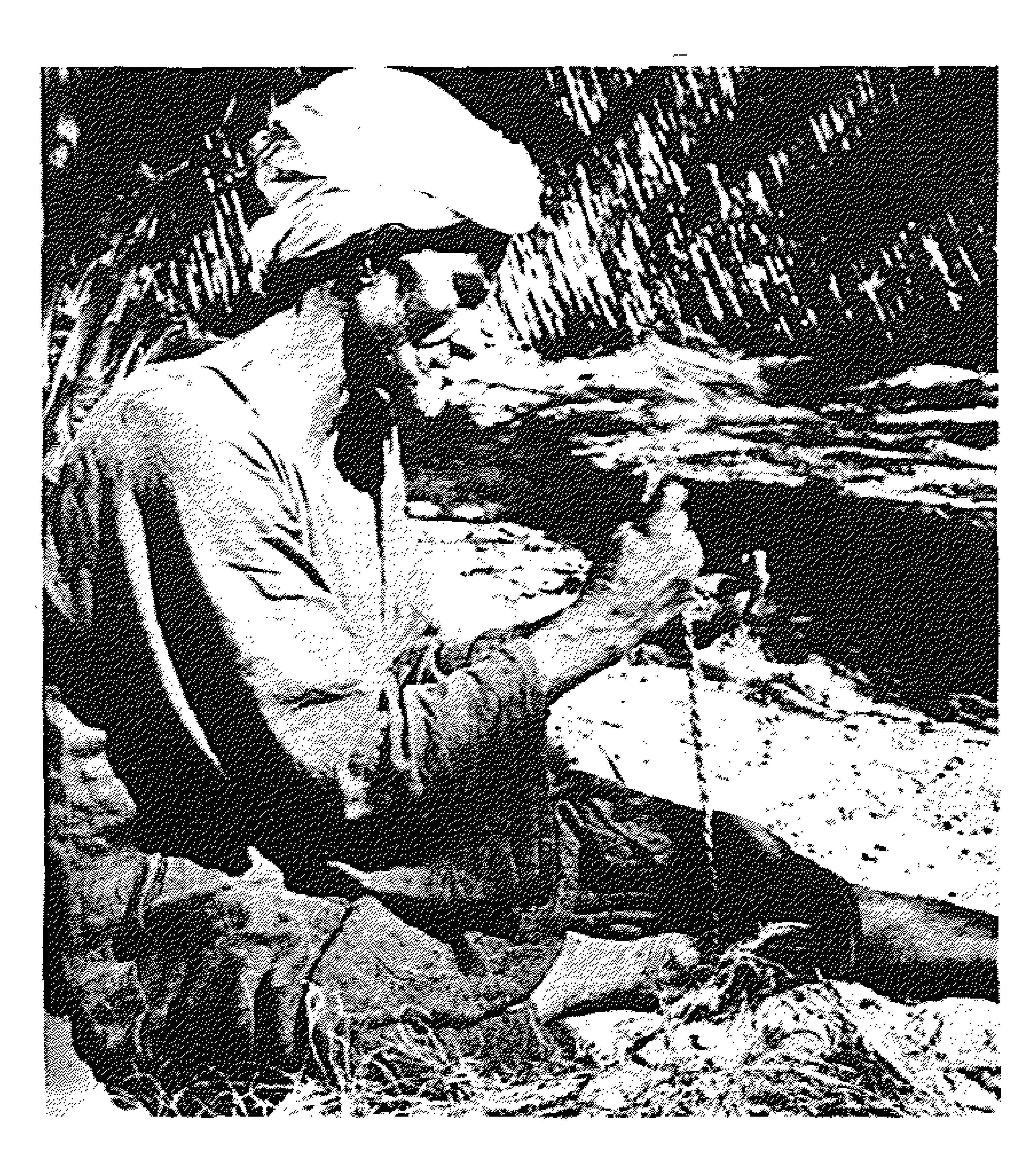
فاض الماء، وطغى على الجانبين، يبتلع الزرع، ويهلك الحرث والضرع، وعلى المنكوبين الاعتصام بالجبال والمرتفعات، فرارًا من الطوفان، وهذه دهيبة العجوز وأمثالها، يتمسكن بأرض الآباء والأجداد، يتساءلون حيارى مستنكرين ورافضين، كيف الرحيل؟ ولماذا التخلى عن مسقط الرأس وموضع قبور الأولين السابقين؟ لك الله يا مرتع الصبا، إلى متى يطاردنا النيل؟ يعز عليهم فراق التراب الذى اختلط به عرقهم، شدوا إلى أرض النوبة الغالية بسلاسل من ذكريات، وأغلال من تراث وذكريات الطفولة والصبا والشباب وأغلال الميراث التليد، ويحاول عثمان باشرى وشقيقه محى الدين، أن يقنعا والدتهم دهيبة بالرحيل والاعتصام بقمم الجبال والمرتفعات، فقد تسربت المياه إلى ديارهم، وأوشكوا على الغرق ولكن دون جدوى، فإنها تصر إصرارًا شديدًا، على عدم التحرك قيد أنملة من مكانها، ولما أوشكت على الهلاك، وقد زحفت المياه خلسة إلى داخل الحجرات، وكل يوم يزداد المنسوب، وترتفع المياه تدريجيًّا، ويقترب الخطر، ويحوم شبح الغرق، فيحملها محى الدين عنوة وينتزعها من الأرض انتزاعًا، فقد تشبثت بالأرض بأصابعها الضعيفة، كأنها قد ثبتت فى الأرض بأوتاد، ويرغبونها لترحل معهم، حيث الأمان فى المرتفعات، إلى المأوى المعد للابتعاد عن شبح الموت غرقًا، فتصدر صرخات مدوية، تخرج من حنجرتها تولول وكأنها صليل ناقوس، رغم الوهن الذى أصاب جسدها من الشيخوخة، ويعلو صوتها قائلة:

الوداع ياقريتى..... الوداع يا مرتع الصبا..... الوداع يا أهل القبور..... آبائى..... أجدادى........ أناشدكم العفو والسماح...... ما بيدى أفارقكم.... يا للفراق... يا للفراق...... وذلك فى صوت فيه حشرجة، وكأنها تلفظ آخر أنفاسها. أما الشيخ وهبى، فلم يكن أقل منها عزيمة، فقد عقد العزم على البقاء مهما كان الطوفان، وطغيان الماء، وقطع العهد على نفسه أن لا يرضى بغيرها بديلاً، وقد ابيضت عيناه بعد الاحمرار من شدة البكاء والدموع التى حفرت أخدودًا على خديه، ويرى أهل الشمندورة، وهم ينتقلون أمامه بمتاعهم وهم يرحلون عن تلك الأرض الحبيبة الغالية، إلى المرتفعات وقمم الجبال، فى ذل وانكسار وخضوع واستسلام، يزرفون الدموع أنهارًا، بقلوب واجفة، ونفوس حزينة، يهربون من خطر الغرق، مستسلمين للواقع المر المرير، فلا مناص ولا ملجأ إلا الرحيل، أو الاعتصام بالمرتفعات، فيلومهم على التخلى عن أرض الآباء والأجداد، أرض الذكريات والتراث، وتمنى أن لا يرى اليوم الذى تخلو فيه الشمندورة من أهلها، ولكن أزفت الآزفة، وارتفع المنسوب، حتى وصلت المياه إلى الأبواب، بل تسريت إلى الداخل، والشيخ وهبى مصر، ويصر على البقاء متحديًا الطوفان، وتتحول الشمندورة التى كانت آهلة بالسكان، إلى خراب ودمار، ينعق فى أنحائها البوم، ويصول ويجول بها الغربان، ويملأ صداها المكان، فلا أنيس ولا جليس، ولا أنس ولا حيوان، وسكن الجان والخيال المكان، وطافت الأطياف ولا حياة إلا كلب الشيخ وهبى، الذى يحوم حوله، يهز ذيله ويئن أنينًا لعله يواسيه أو يرجوه الرحيل، أو ينذره بالهلاك، والشيخ وهبى يعتصم بحجرته، التى اعتاد المكوث بها، يمسك عصاته الغليظة، يهش بها على كلبه، ويضرب بها على الأرض أحيانًا أخرى، ويحاول أولاده وأحفاده أن يقنعوه، ولكن لا جدوى فى هذا أو ذاك، بل امتنع عن الطعام، ربما عصيانًا يعلن

الإضراب، أو لسوء حالته الصحية والنفسية، فقد ضعفت قواه، ويتردد عليه الأهل من آن لآخر في وحدته ليردوه عن عزمه ورأيه، يخافون عليه من الهلاك، ولما فشلت كل الوسائل، لم يكن هناك بد من أن يحملوه من الأرض حملاً، ولكنه يطلق صرخة قوية احتجاجًا واعتراضًا:

يا زمان الذل والهوان...!! يا للعار... يا للعار...!!! أين الوفاء للآباء والأجداد!!! ثم ينادى على الآباء والأجداد الذين رحلوا عن هذه الدنيا منذ زمن بعيد.

ثم يسكت فجأة، ويرتمى على الأرض، خائر القوى، فيسرعون إليه، يقلبونه ذات اليمين وذات الشمال، ولكن لا إجابة، فقد فقدَ النطق وخارت قواه..... قد أتى أمر الله، وفاضت روحه إلى بارئها، رحمك الله يا شيخ وهبى... ولا إله إلا الله محمد رسول الله. يقولها لسان حالهم بكل الحزن والأسى.



وانحسر النيل

قرية الشمندورة، كغيرها من القرى النوبية، مترامية الأطراف، ذات نجوع وأحياء متعددة، وتسمى هذه النجوع والأحياء، بأسماء تنسب إلى ساكنيها، أو إلى ما يميز موقعها، أو إلى ما تشتهر به، نجع آل الشيخ، وآل باشرى، وآل النجار، والبوستة، وفركى نركى أى {الوادى بالنوبية}، ونجع البربا[1] (المعبد)، ونجع فقير، والفقير يعنى الولى، أو التقى، أو العبد الصالح، أو الفقيه العالم، وكل هذه المعانى للفقير، مرتبطة ببعضها البعض فى مدلولها، وبين كل نجع وآخر، مساحة شاسعة، فقد حباها الله مساحة واتساعًا، وكل هذه النجوع تطل على نهر النيل العظيم، فيستقبلونه كل صباح، ويودعونه كل مساء، ذلك النيل الذى يلمع كحد السيف الردينى فى ظلام الليل الدامس، وفى الليالى القمرية، تعكس صفحته ضوء القمر والنجوم الساطعة فى السماء، وفى النهار يبدو كفضة سائلة تعكس أشعة الشمس سلاسلا ذهبية، وعند الغروب، يلف حولها الأصيل ظلالا وردية كألوان الطيف، تتلون بلون الشفق.

وعلى شاطئ النيل، اصطفت أشجار السنط والنخيل، تشرئب برءوسها كحراس يحرسونها فى نظام بديع، ومن بينها أشجار

---

(1) من الآثار الفرعونية منحوتة فى مغارة صخرية تحت مستوى الأرض بعدة درجات من السلالم الحجرية، تؤدى إلى سرداب طويل، على الجانبين رسوم ونقوش، تعبر عن الاحتفال بموسم الحصاد وتقديم القرابين، وفى نهاية السرداب حجرة بها تماثيل ضخمة جميلة فى غاية الدقة والجمال.

الحنة تفوح بعبير رائحة زكية، تأخذ بالألباب، وتأسر القلوب، وتشرح الصدور، مملوءة بعبق الطحالب والأعشاب النيلية، وتنتقل بين جنباتها أسراب الطيور، من البلابل والكنارى وغيرها، من الطيور المهاجرة والبحرية والبرية (السيّة بالنوبية) وغيرها، تطير هنا وهناك، تصدح بأعذب الألحان، تتجاوب مع أمواج النيل التى ترتطم بالشاطئ، فتعزف سيمفونية بديعة، وتتناثر قطرات المياه كحبات اللؤلؤ المكنون، متبعثرة على الضفاف، ويهب النسيم، يدغدغ الأجساد، ويداعبها بلطف وحنان، فيبعث فى الجسم نشاطًا، وفى النفس أملاً وتفاؤلاً.

ويفصل بين البيوت المطلة على النيل ونهر النيل كثبان رملية صفراء، تلمع تبرًا كلما ألقت عليها الشمس أشعتها، وتتشكل بفعل الرياح أمواجا متحركة فتمحو آثار الأقدام بالأمس وتستقبل آثار اليوم الجديد وفى مواجهة نجع البربا الموردة حيث مهدت لسير الدواب تحمل الزائرين للمعبد من السياح حينما ترسو الباخرة فى مواجهة المعبد وقد تعهد الشيخ عبد القادر بتوفير الدواب لنقل السائحين من وإلى البربا نظير أجر يتقاضاه، كما أنه يستضيفهم فى مضيفته أحيانًا ويقدم لهم واجب الضيافة حيث يستريحون من عناء السفر أو للاستمتاع بتواجدهم بالشمندورة ويشاركهم فى ذلك حارس المعبد فهو من أبناء الشمندورة ويعد هذا مورد رزق وهذا المعبد بالشمندورة يشبه معبد وبربا قرية عنيبة إلى حد ما.

ويحد قرية الشمندورة غربا كغيرها من القرى سلاسل جبلية متصلة متتالية وفى أنحائها سلاح الحدود ويتمركز فى مناطق ونقاط معينة فهذه السلاسل الجبلية قد تكون طريقًا بريًا إلى أبو حمد[1] ووادى حلفا بالسودان ومما يذكر أن نهر النيل يشكل

---

(1) هذا الطريق كان يستخدم للتهريب والتجارة غير الرسمية بالدواب ولا يعلم دروبها إلا خبراء بالصحراء.

المجرى منحنيا إلى أسفل الجنوب فى منطقة كروسكو ومنحنيًا إلى أعلى الشمال فى منطقة أبو حمد والطريق البرى بين هذين المنحنيين من أقصر الطرق بين مصر والسودان، كروسكو وأبو حمد منطقتين بعيدًا عن الساحل وكانت هناك فكرة مد قضبان السكك الحديدية ولكن تدخلت ظروف جعلت ذلك مستحيلاً.

وفى الجبال المتاخمة لقرية الشمندورة تسكن بعض الحيوانات المفترسة من ذئاب وضباع وثعالب وتغشى هذه الحيوانات القرية من آن لآخر وبخاصة فى الليالى التى يغيب فيها القمر أو يتأخر فى الظهور فتخرج من جحورها تبحث عن ضالتها تغنيها من الجوع فى حظائر الأغنام والماشية التى كانت تبعد عن السكن الآدمى أو بين المزارع.

وقد تجوب الطرقات وهى تشق طريقها إلى النيل لتروى ظمأها ويتذكر أهل القرية قصصًا تروى عن أطفال افترستهم تلك الحيوانات أو كادت مستغلة الفرصة حينما تجدهم فى مكان قصى بعيدًا عن ذويهم ولذا كان الصغار دائمًا يحاطون بسياج من الكبار فى جلسات السمر والسهر ليلا ولكن لا ينجى حذر من قدر فكم من المآسى والآلام على هؤلاء الضحايا من الأطفال والصغار الذين إلتهمتهم تلك الوحوش الضارية، ولما انحسر النيل وكشفت الأرض عن وجهها سمراء غنية بالغرين وبدأ النخيل يلوح بسعفه يمينًا ويسارًا وكأنه يستقبل أهل الشمندورة ويفتح ذراعيه بعد غيبة موسم كامل، وأسرع أهل القرية كل إلى قراريطه المعهودة يتفقدها ليعدها للزراعة الموسمية ومن بين الصبية جمال وبشير وبكرى وغيرهم يشاركون الآباء الفرحة بحلول الموسم الزراعى الجديد ويمرحون مع أقرانهم وأترابهم هنا وهناك على ظهور الدواب وسيرًا على الأقدام فى الأرض الطينية الوحلة وتغوص فيها الأقدام بل السيقان ويجد أهل الشمندورة متعة رغم المشقة، وتمر الأيام وينحسر النيل تدريجيًّا حتى يصل إلى منسوبه المعتاد.

ويركب بكرى حماره الأبيض الشقى ويمتطى ظهره بصعوبة بالغة ولكنها متعة أى متعة فما زال يروضه ويحكم عليه اللجام ويشد وثاقه ولكنه مع ذلك يتجه به يمينًا وشمالاً وأحيانًا يقفز به فى الهواء فيطرحه أرضًا فيضحك عليه أترابه جمال وبشير، ويعاود الكرة فيساعداه على امتطائه مرات ومرات ولكنهما أسعد حظًا منه إذ يمتطيان حمارين مروضين من قبل واعتادا على امتطاء ظهريهما دون صعوبة أو اعتراض ويصل الصبية إلى عثمان باشرى والد بكرى الذى ينتظرهم فى لباسه العراقى[1] (التقشيطة) منذ السحر والصبية يلبسون جلبابًا من الكستور المخطط طوليًا وعلى رأسهم طاقية مزخرفة تنفذ من مقدمتها ذؤابة من شعر الرأس وفى أغلب الأحيان تترك وفاءً لنذر أو لوقت محدد سابقًا كما جرت العادة.

ينتظر عثمان باشرى بكرى ليأتيه بالبذور (الكشر نقيق واللوبيا) وعندما لمح بكرى مقبلاً عليه نهره بصوت عال جهورى:

لم تأخرت؟ ألم تعلم أنى فى انتظارك؟ وقد ارتفعت الشمس؟

الحمار يا أبى...... الحمار هو السبب.... اسأل جمال وبشير (ويستشهد بهما خوفًا من العقاب).

كيف الحمار هو السبب؟... أنت تقود الحمار أم الحمار هو الذى يقودك؟ ثم يقترب منه قائلاً: أين البذور يا متعب؟!!

يناولها إياه بكرى وقد تبعثر منها الكثير، ينظر إليها عثمان باشرى فى دهشة واستنكار..... أين الباقى؟!! أهذه الكمية تكفى؟!!

---

(1) يقول رأى فى مؤتمر معهد الدراسات الأكاديمية لطب المناطق الحارة الألمانى عام ١٩٩١ عن العراقى أنه يسهل عملية الحركة لأنه أقصر من الجلباب ويصل إلى الركبة وهو من قماش رمش العين أو ما يشابهه، مثل المسام تساعد على تبخير العرق، ويجففه ويرطب الجسم، ويخفض من درجة الحرارة ويسمح بمرور الهواء، والعراقى ذو فتحة نصف دائرية من الأمام حول الرقبة أو العنق، والأكمام ثلثى كم تقريبًا، وفى الشتاء يكون من (التيل أو البوبلين) وللمزارعين أزرق اللون فى الحقل.

لقد وقعت أكثر من مرة من على الحمار وكلما وجهت الحمار إلى هنا يصر على العودة إلى أمه فى الحظيرة ويقفز فى الهواء ثم يطيح بى أرضًا.

لقد احتجزنا كمية كبيرة من البذور تقاوى لمثل هذا اليوم (متجاهلاً تبريرات بكرى).

لقد قلت يا أبت إننى وقعت على الأرض مرات ومرات، وقد حلت عقدة كيس البذور، فتبعثرت على الأرض (فى صوت هادئ كأنه يعتذر).

هنا يضحك كل من جمال وبشير، اللذين توقفا معه عند عثمان باشرى، وهما فى طريقهما إلى والدهما محى الدين باشرى، فهو أيضًا فى انتظارهما، وتدخل جمال فى الحوار بين بكرى ووالده لينقذ بكرى، ويناوله كيس البذور التى يحملها قائلاً: خذ يا عمى إليك هذه البذور، فقد كنا فى طريقنا إلى أبى وسأعود لأحضر غيرها لأبى فعندنا فائض كبير من البذور.

ويعلق بشير على ما يسمع من كلأم جمال قائلاً: وسأظل هنا مع بكرى وعمى عثمان إلى أن تعود ياجمال.

ولكن عثمان باشري، يشفق على أخيه محى الدين من الانتظار طويلاً ويقول: إن والدك أيضًا ينتظر البذور.

ويرد جمال ملحًا على عمه فى قبول العرض: حمارى سريع يا عمى وسأعود بسرعة البرق، وليس على عم عثمان إلا قبول العرض قائلاً:

شكرًا يا ولدى اذهب ولا تتأخر على والدك، حفظك الله ورعاك ثم التفت إلى بكرى قائلاً:

هيا يا بكرى قم وغط البذور خلفى.... هيا والتفت بكرى إلى بشير قائلاً:

هيا يا بشير.. هيا معى ويحمل عثمان باشرى البذور وينثرها على

الأرض وخلفه بكرى وبشير يقومان بتغطية البذور ومن آن لآخر يتابعهما عثمان باشرى ويقول محفزًا لهما:

غط البذور جيدًا الهمة يا أولاد.

ولاح على البعد جمال وعندما اقترب نادى على أخيه بشير: هيا يا بشير لنلحق بأبى.. هيا لنواصل الطريق.

لكن عثمان باشرى يستوقفهما فقد سمع صوت زوجته وابنته زنوبة تناديان فقد تم إعداد طعام الإفطار للجميع من رقائق الخمريد[1] المخبوزة على الدوكة مسقية ومشربة باللبن الرايب الشهى ويصر عثمان باشرى على أن لا ينصرف جمال وأخيه إلا بعد تناول الإفطار معًا وتوجه الجميع إلى خيمة من البوص وأعواد الحلف المطعمة بالسيقان من الساسبان أعدت بطريقة هندسية على شكل مربع ناقص ضلع مفتوح اتجاه بحرى يسمح بمرور النسيم منعشًا لطيفًا ويمنع حرارة الشمس وجلس الجميع يتناولون طعام الإفطار بشهية فى حوار شيق متبادل بدأت الحديث أم بكرى قائلة:

ياخسارة البذور يا بكرى نصف الكمية تقريبًا تبعثر سدى.

وماذا أفعل مع هذا الحمار الشقى العصى؟

وتنتهز الفرصة كعادتها زنوبة للتشهير ببكرى قائلة:

- أنت الشقى يا بكرى ألست أنت الذى تقود الحمار؟

ويشارك فى الحديث بشير فقد أشارت إليه زنوبة خلسة فقال:

بكرى هو الذى يجب أن يروض.

ويتدخل جمال مدافعًا عن بكرى الذى لم يجد مبررًا لما حدث منه فيقول:

---

(1) تخبز على دوكة الحديد من عجين مخمر، ويكون مستديرًا فى مساحة الدوكة ويسمى بالنوبية بـ{شدّى}.

بكرى فارس يجيد ترويض الحمار الشقى ولكن الطريق غير ممهد ووعر ورمال وأرض وحلة كما أن كيس البذور لم يحكم ربطه.

وتعترض أم بكرى تدافع عن نفسها قائلة: - أتريد أن تحملنى المسئولية يا جمال؟ الكيس مربوط بإحكام فقد ملأته من (الجوسية)[1] بالأمس ولم يقترب منه أحد. ويعلق عثمان باشرى على كل ما دار من حديث وحوار قائلاً: يعملوها الصغار ويقع فيها الكبار.... أنت يا بكرى شقاوتك كثيرة.

وتحاول زنوبة أن تنال من بكرى مرة أخرى فتحيك شباكها وتقول:

من المؤكد يا بكرى إنك كنت تغنى وأنت على ظهر الحمار وكعادتك نسيت أنك تحمل البذور فرد بكرى غاضبًا:

ماذا تعنين بكلامك هذا يا زنوبة؟

عندما تغنى يا بكرى تصفق وتلوح بيديك ولذا انفلت الكيس من يدك وتبعثر على الأرض.

ورأى عثمان باشرى أن ينهى تلك المشادة بين بكرى وزنوبة قائلاً:

على العموم حصل خير والبذور لم تكن من نصيبنا، وتعقب أم بكرى وهى أيضًا تريد أن تنهى المشادة الكلامية فقالت:

الخير كل الخير أن جمال وبشير يفطران معنا اليوم يا له من قدر جميل وأراد جمال أن يحول مجرى الحديث لأن بكرى صديقه وزنوبة وما أدراك ما زنوبة إنها قريبة من قلبه لذا قال موجهًا الكلام إلى أم بكرى يا سلام يا خالتى على هذه الأكلة الشهية

---

(1) من أهم الأثاث المنزلى، فهو من طين مخمر، طوله ٢م تقريبًا والقاعدة محيطها ٢م تقريبًا والسمك ١بوصة، وهو ذو قاعدة أوسع من الفوهة على شكل مخروطى، وبه فتحة من الأسفل عند القاع،يسد ويفتح عند الحاجة إليه،له غطاء محكم من الطين، لحفظ الغلال أو البلح من الموسم إلى الموسم، بعد أن يضاف إليه كمية من الرماد، يحفظه من التسوس.

وبخاصة رقائق الخمريد، وردت أم بكرى مشيرة إلى زنوبة:

من صنع أختك زنوبة ياجمال.

ولكن بكرى ما زال صدره ضيقًا مما قالت زنوبة فقال مستنكرًا: زنوبة..!! زنوبة...!! زنوبة لم تتقن فن الخبز بعد.

لكن عم عثمان باشرى يثبت الكفاءة لها ويقول: زنوبة بنت شاطرة يا للعجب من خبيزها ويا حبذا لو (كابد[1] بالاتر أو الويكة "البامية").

وتستطرد أم بكرى قائلة: دعهم يا أبوبكرى زنوبة وبكرى مثل القط والفار دائمًا كعادة كل اثنين متتالين فى الولادة روسهم فوق روس بعض.

وتنادى على زنوبة، التى ظهر الغضب على وجهها، اثبتى شطارتك يا زنوبة، واعملى الشاى بأيديك الحلوة.

وترد زنوبة وهى تنظر بعينها إلى بكرى: الشاى للجميع إلا بكرى يقوم يعمل الشاى بنفسه، ويهدئ من غضبها بشير ويقول:

الطيب أحسن يا زنوبة، أنت الكبيرة عقلاً.

وبعد الشاى، ويحتسى الجميع، وتقوم أم بكرى وابنتها زنوبة لالتقاط الحشائش ووضعها فى ملاءة قد أعدت لذلك، ونادى جمال على بشير بسرعة يا بشير لنلحق بأبينا.

بشير وجمال، وقد انتهيا من احتساء الشاى: شكرًا يا عمى.

عثمان باشرى: بل أنا الذى أشكركم يا أولادى.... بلغا أباكما بأننى سأنتهى اليوم من أرضنا، وغدًا سأكون معه إن شاء الله. وبالتأكيد، أرضكم ما زالت وحلة، ولن تتحمل الأقدام، إلا غدًا أو بعد غد.

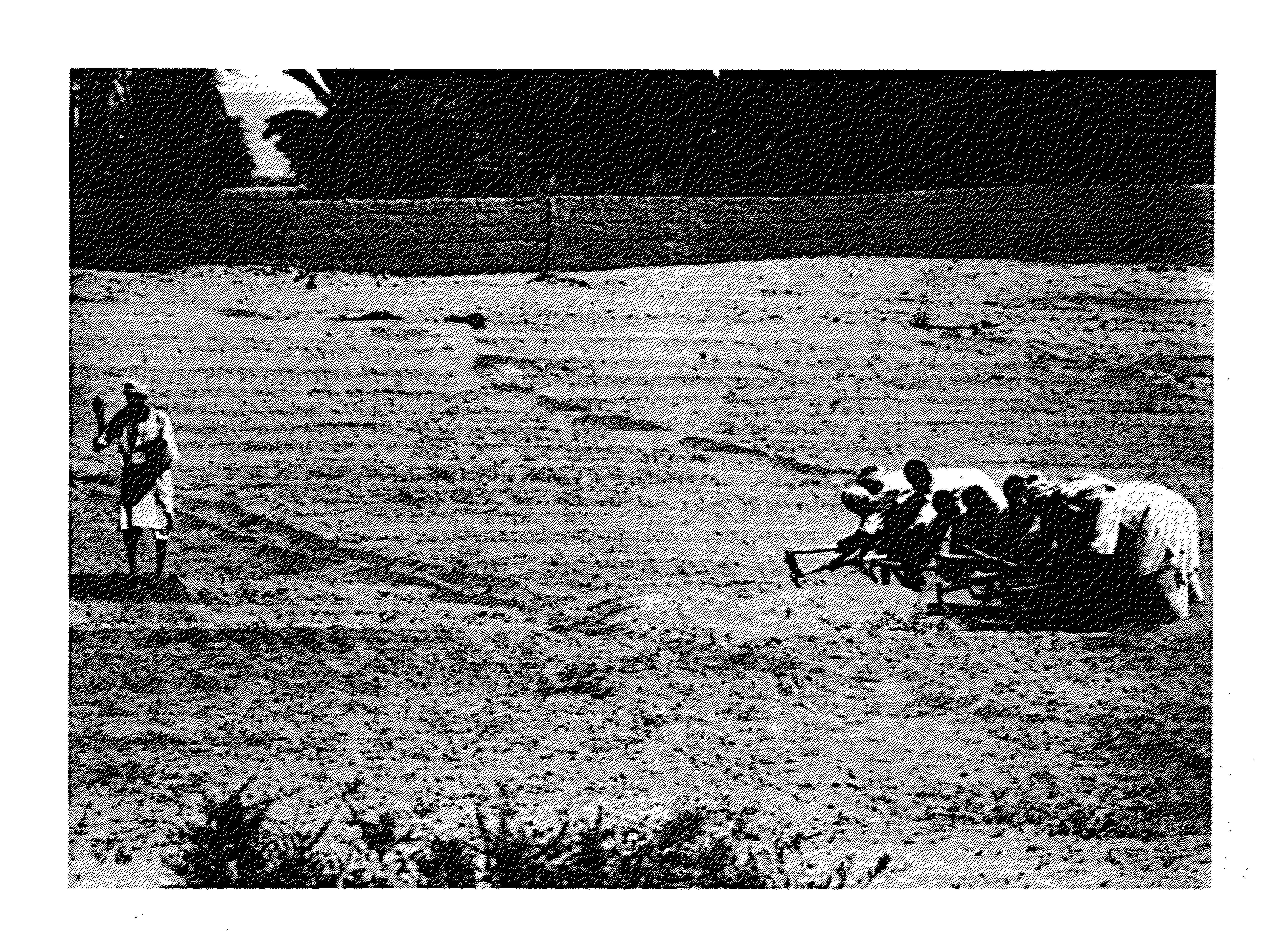
---

(1) يخبز على دوكة من الطين الأسود مضافًا إليه الشقف من الأزيار الفخارية ويكون الخبز أكثر سمكًا من الخمريد، وبه مسام تتشرب الويكة وغيرها من المطبوخات.

ويستعد جمال وبشير للانصراف، ويمتطيا ظهر الحمار مودعين {مع السلامة يا عمى، أى خدمة نقدمها لكم}؟.

شكرًا يا أولادى.... شكرًا.

وينظر جمال بطرف عينيه إلى زنوبة، التى تقف على بعد مع والدتها، تراقب الموقف، ينظر إليها جمال بطرف عينيه، وكأنه يريد أن يودعها إلى لقاء آخر، ويستعرض مهارته أمام زنوبة، وألهب ظهر الحمار بعصاته، ووخزه بقدميه، فأسرع قفزًا وتصاحبهما زنوبة بنظراتها، حتى غابا عن العين.



فى الجزيرة

بدت الجزيرة المعهودة كالعادة جزيرة خضراء وسط النيل فى منظر رائع جميل خضرة داكنة وسط زرقة الماء بعد انحسار النيل، فقد كشفت عن وجهها سافرة وشرع أهل الشمندورة فى نقل الحيوانات والماشية والأغنام إليها فهى مراعى خصبة مفتوحة لموسم كامل ووضع أهل الشمندورة علامات مميزة لكل منها تختلف عن غيرها فالبعض يضع حول العنق طوقًا من قماش ملون أو حبل مميز ومنهم من يعلق على رقبة الحيوان تميمة تميزها عن غيرها فمنها ما تميزت بأذن مقطوعة وغير ذلك من العلامات الظاهرة والخفية والثابتة وليس ذلك بغرض التعرف عليها وحمايتها من السرقة ولكن تمييزًا لها حتى لا تختلط بغيرها فقط لأنها ستظل موسمًا كاملاً فى ذلك المرعى الخصيب فى أمن وأمان ورغد من العيش.

وعلى كلتومة[1] صاحب المركب يقوم بخدمة النقل لأهل الشمندورة فيستعد ويبسط الشراع ويسحب السقالة إلى داخل المركب للإقلاع إلى تلك الجزيرة فقد امتلأ المركب عن آخره بالماشية والأغنام والصبية والكبار للإبحار إلى تلك الجزيرة لتترك الحيوانات فى الجزيرة حتى نهاية الموسم ويغطى الفيضان الجزيرة.

الانتقال من وإلى الجزيرة بالمركب وسط النيل يعد متعة للكبار والصغار ونزهة نيلية وبخاصة للصبية إذ يقضون وقتًا ممتعًا فى

---

(1) على كلتومة ولا غضاضة بأن ينسب الرجل إلى أمه، فمن المعتقدات أن ينادى الرجل منسوبًا إلى أمه يوم القيامة، وبخاصة الإناث يدعون بأسماء أمهاتهن.

ملاحظة الماشية والأغنام ورعايتها لترعى وتأكل العشب ويلعب الصبية فى فرح ومرح حتى يعودوا آخر النهار بمركب على كلتومة تاركين الحيوانات فى رعاية الله وحفظه.

جمال وبشير وبكرى وزنوبة وغيرهم من أقرانهم وأترابهم يقضون وقتهم فى متعة وسعادة وسرور بين اللعب والغناء سعداء بتجمعهم فى الجزيرة بنين وبنات يلعبون.

ويفاجئ الصبية تمساح كبير، مستلق على الرمال القريبة من الشاطئ، لعله يريد أن ينام، أو ينتظر حتى يهضم وجبة ثمينة وسرعان ما تجمع حوله الصبية ينادون بعضهم البعض واجتمع الدانى والقاصى فى ضجيج وصخب واقتربوا من التمساح واختلفوا فى الرأى فالبعض منهم يريد أن ينقض عليه ويمسكه أسيرًا من باب حب الاستطلاع والمغامرة والبعض يمتنع ويبتعد خوفًا وبينما هم كذلك فى خلاف واختلاف فإذا بالتمساح ينظر إليهم يبحث عن فرجة بين جموع الصبية ويجد الفرصة ويتحرك بسرعة ويقفز إلى النيل ويشق طريقه بين الأمواج عجبًا ويغوص تحت الماء ويختفى عن الأنظار ويعود الصبية إلى اللعب والمرح.

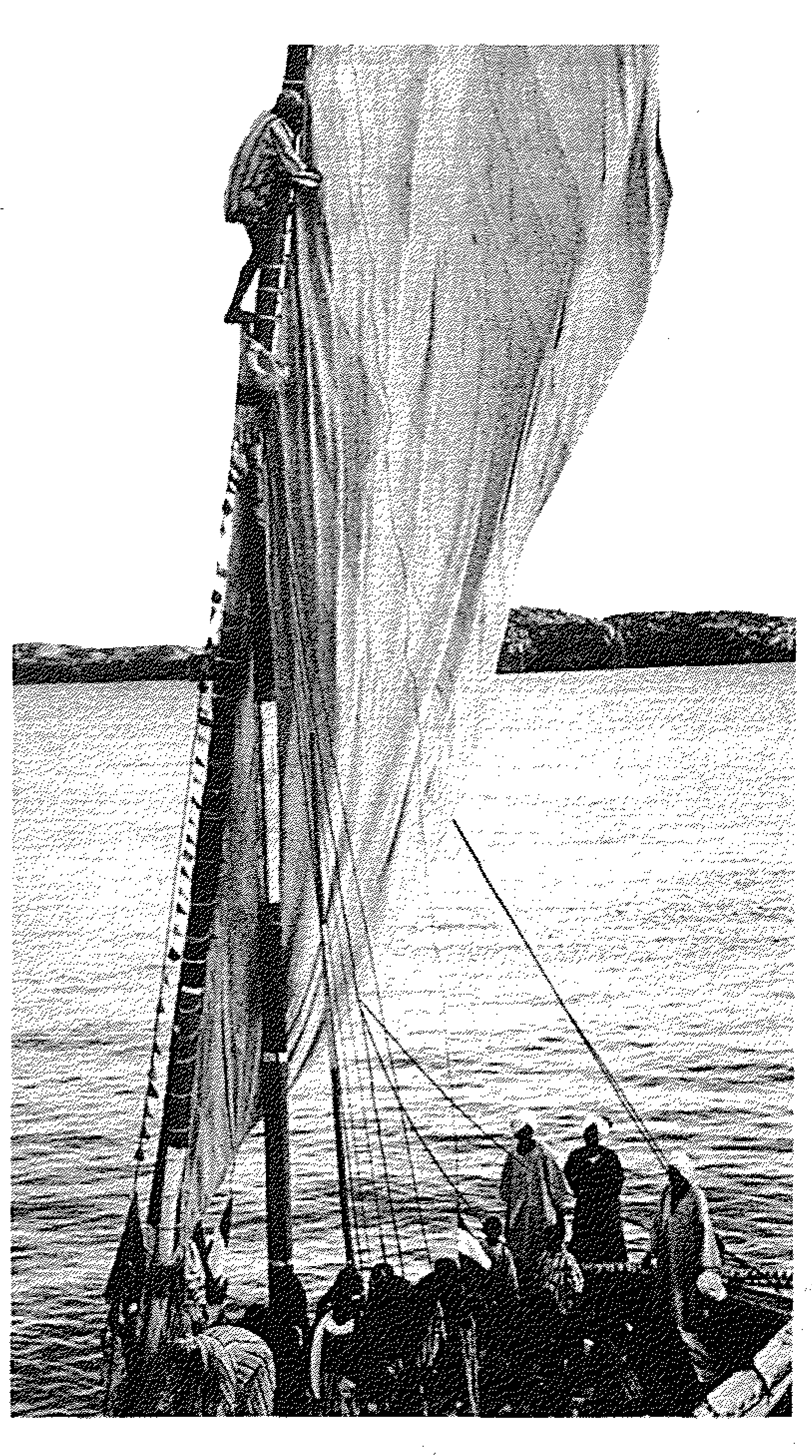
يعود مركب على كلتومة وينادى على كلتومة على الصبية بصوته العالى الجهورى يسمعه كل من فى الجزيرة فهذه هى المرة الأخيرة التى يبحر فيها نحو الشمندورة ولن يعود إلى الجزيرة إلا فى صباح اليوم التالى واجتمع الصبية من كل صوب ويعود الجميع إلى القرية، وتعود بعودتهم السكينة والطمأنينة لذويهم، فقد عاد الصبية بسلام، واستودعوا الله الماشية والأغنام، وقص الصبية ما رأوه على شاطئ الجزيرة ومنظر التمساح المفزع المخيف، وتنفس أهل الشمندورة الصعداء بعد أن سمعوا ما أذهلهم وحمدوا الله على سلامة أبنائهم وحذروهم من الاقتراب من أى تمساح لأى سبب من الأسباب بعد اليوم، ونصحوهم بالبعد عنه بالترهيب أحيانًا، والترغيب فى السمع

والطاعة أحيانًا أخرى، واتفق الجميع على أن يقدموا نذرًا لله تعالى، على سلامة أبنائهم (كرامة لله تعالى)، وفى صبيحة اليوم التالى قامت كل أم للأولاد الذين كانوا فى الجزيرة بالأمس بتقديم النذر {حبات من بذور اللوبيا والكشرنقيق والذرة والقمح مع حبات الفول وقليل من الأرز تلك الحبوب مجموعة تغلى مع بعضها البعض ويضاف إليها الملح حتى يستساغ طعمه} ويقدم فى أطباق صغيرة ويتناولها الجميع صبية وكبارًا على قارعة الطريق وبعد تناول ذلك يقولون (كرامة وسلامة.. ارفع البلاء) وهى دعوة بالسلامة ورفع البلاء فقد سلم الله أبناءهم من بطش التمساح وافتراسه.

وأعادوا على مسامع الصبية قصة التمساح منذ سنوات مع الفتى العجيب حتى تكون عبرة وعظة وتحذيرًا.

ففى مثل هذه الأيام وفى نفس الجزيرة منذ سنوات رأى صبية تمساحًا كبير الحجم مستلقيًا بالقرب من الساحل فى المياه الضحلة ومن بين الصبية صبى شقى أسرع إليه بدافع حب الاستطلاع ولما أحس به التمساح يقترب منه تحرك ليصل إلى الماء فاعترض الصبى طريقه وامتطى ظهره فقد استهواه حجمه الكبير فقد كان الصبى جريئًا محبًا للمغامرة ولا يعرف الخوف طريقًا إلى قلبه، وكان قدره أن أسرع به التمساح إلى داخل النيل وأطاح بالصبى من على ظهره حتى وقع فى مياه النيل ولما وقع الصبى وسط مياه النيل استغاث بأقرانه وأترابه فاجتمعوا على صوته ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا لإنقاذه إلا أن ارتفعت الحناجر بالصياح والعويل حتى حضر نفر من أهل الشمندورة الذين كانوا فى الجزيرة مسرعين ففر التمساح إلى الأعماق هاربًا تاركًا الصبى أشلاء مبعثرة وقد عقر بطنه فمات فى الحال وساد القرية حزن عميق على ذلك الصبى المغامر الجرئ فيا له من فتى عجيب!! قضى نحبه فى لحظة وفى مرأى من العين والبصر.

ومر هذا الشريط من الذكريات المؤلمة بأذهان أهل الشمندورة وسيطر على مشاعرهم الحزن ممزوجًا بالخوف والهلع من تكرار ما حدث، وكان أشد الناس خوفًا على أولادهم والدة بكرى فقد كان الولد شقيًا عصيًا مغامرًا جريئًا، وتصر زنوبة شقيقته بعدم السماح لبكرى بالذهاب إلى الجزيرة وتوصى والدها بذلك خوفًا على أخيها من أن يكون ضحية أخرى، ويكون مصيره مصير الفتى العجيب الذى افترسه التمساح، رغم ما بينهما من مشادة وشقاق واختلاف، لكنها الأخوة.



الفلكة

يدق جرس مدرسة الشمندورة دقات متواصلة ليعلن بداية اليوم الدراسى، وجمال وبشير يرافقان بكرى إلى عبده كندنونة[1] أو كندنية وهو تلميذ ذكى، توفى والده منذ سنوات، فقد أصيب بغثيان وقئ شديد متواصل وأشير عليه بأن، يتفصد[2] اعتقادًا بأن هناك دم فاسد بجسمه وفعلاً تم ذلك العلاج، ولكن دون جدوى، فبعد أيام من استمرار حالته، اصفر لونه وضعف جسمه، وأنهكت قواه حتى كاد أن يفارق الحياه، ولم تجد معه تلك الوصفات العلاجية، ويعيش فى رعاية والدته هو وشقيقته فاطمة، وتدعى بطة للتدليل، وهى صديقة حميمة لزنوبة شقيقة بكرى، وشق الصبية طريقهم إلى المدرسة بسرعة، ويقف على الباب عم جاه الله برسى يلوح بيديه يحثهم على الهرولة، أما خليل أفندى فى وسط الطابور يهز عصاه وعيدًا وجزاءً لكل من يتأخر عن الطابور ويتوسل عم جاه الله برسى لدى خليل أفندى ليسمح لهم بالانضمام للطابور دون عقاب فقد أسرعوا قدر جهدهم إذ رآهم يسرعون إلى

(1) كلمة نوبية معناها الأشول وفى بعض القرى النوبية تنطق {كندنية} وقد كان عبده كذلك.

2) من أنواع العلاج والأوصاف الشعبية عند أهل النوبة بأن يشرط بمشرط {مبضع} فى بطن الساق عدة مرات والأفضل أن يكون التشريط صغيرًا متقاربًا وتقوم بها ذوات الخبرة ويمسح الدم مع الضغط بشرائح رفيعة من الجريد الأخضر حتى ينضح ويمسح مرارًا ثم يغطى بطبقة من التراب الأصفر يتشرب الدم وينصح للمريض بالشراب الساخن من الشاى بالليمون.

المدرسة فيستجيب خليل أفندى ويسمح لهم ليلحقوا بزملائهم ويؤدوا تمارين الصباح وتحية العلم ثم ينصرف الطابور كل إلى حجرته الدراسية ليستقبل دروسه على وعد اللقاء كالمعتاد فى الفسحة لتناول وجبة الإفطار فى مجموعات صغيرة كما تعود التلاميذ ذلك.

ناظر المدرسة غريب عن أهل الشمندورة، من شمال البلاد من وجه بحرى {المنصورة} ولكنه استقر بالشمندورة وعاش بينهم كواحد منهم فى علاقة حميمة مع أهل الشمندورة يشاركهم فى أحزانهم وأفراحهم واستطاع أن يتعلم شيئًا من النوبية هو وزوجته، وفى جلسات السمر يستمع إلى حديثهم مع الترجمة إلى العربية أحيانًا يقوم بالترجمة خليل أفندى أو أحد زملائه إذا دعت الحاجة ويحدثهم عن المنصورة والحملة الفرنسية والإنجليزية والمقاومة الشعبية وقصص عن البطولات الفردية.

وخلعت زوجته ملابس المدينة فهى من المنصورة بالدقهلية ولبست الجرجار النوبى وأجادت خبيز الشّدى والكابد على الدوكة النوبية وعندما تتغنى الفتيات فى المناسبات السعيدة ويدقون على المزاهر تأتى بطبلة {دهلّة - الدربكّة أتت بها خصيصا وهى فى إحدى سفرياتها للمنصورة} وتنقر عليها دوم - تك - دوم..... وتختلط الإيقاعات وتنبهر الفتيات ثم يتوحد الإيقاع ويرقص الجميع.

ووضعت على رأسها الطرحة الجورجيت واستهوتها الحلى النوبية فلبست الجكد، وتجد متعة فى التحدث إلى النوبيين بلغتها فتنطقها بصعوبة وبلسان ملتوى كما أن النوبيات من أهل الشمندورة أعجبوا بها ويلقبونها بزوجة الناظر ويكنون لها كل احترام وتقدير، وتجيد أشغال الكروشيه على منديل الرأس (أبو أويه) بديل الطرحة النوبية فتستهويهم ألوانها الزاهية وقد وضعت بعض الفتيات المنديل أبو أويه تحت الطرحة إعجابًا به عن المنديل الأسود الذى اعتادوا عليه.

كما أنها دخلت إلى مواقد الدوكة (ديون شاه) وتعلمت خبيز الخمريد والكابد على الدوكة وأخذن منها نساء الحى فن صناعة الحلويات، أما ناظر المدرسة فقد ارتدى الجلباب النوبى ذو الفتحة النصف دائرية من الأمام والأكمام الواسعة والجيبين على جانبى الجلباب، وجيب صغير تحت الإبط تقريبًا، والطاقية والعمامة والحدبة من الخلف أو الجنب أما المدرسون بمدرسة الشمندورة فمن المغتربين إلا القليل، من أبناء النوبة حديثى التخرج، ومنهم خليل أفندى الذى تمتع بمنزلة رفيعة عند أهل الشمندورة فقد تعهد برعاية تلاميذ أهل الشمندورة، وتحمل مسئوليتهم كواجب وشهامة ومروءة، ولا يكاد يراه تلميذ من أبناء الشمندورة فى الطريق داخل أو خارج المدرسة إلا تنحى جانبًا من الطريق أو سلك طريقًا آخر احترامًا وهيبةً لعله يعاقبه فى اليوم التالى، وهكذا كان شعورهم نحوه احترامًا ممزوجًا بالخوف وحبًّا يختلط بالمهابة.

ويدخل خليل أفندى كعادته الفصل، يتمم على التلاميذ ويتأكد من الحضور، وعمل الواجبات، فقد حمله أولياء الأمور رسالة شفوية بمتابعة أبنائهم وعقابهم فقد فوضوه فى ذلك، خصوصًا الذين شقوا عصا الطاعة فى المنزل.

يدخل خليل أفندى الفصل، وينتاب التلاميذ القلق، وكل منهم تحدثه نفسه على من ينادى اليوم...!!، ومن يستحق العقاب...!!، وهم فى صمت رهيب كل يراجع نفسه، وما حدث منه هل يستحق عليه العقاب؟، وهل وردت شكاوى إلى خليل أفندى؟، كلها هواجس تدور فى نفوسهم، ولم يدم ذلك الصمت طويلاً، وتفحص خليل أفندى وجوه التلاميذ يبحث عن بغيته، وقد احتل بكرى مؤخرة الصف، وترك المقاعد الأمامية التى تعود عليها وفجأة وقعت عينى خليل أفندى على ضالته ونادى بصوته الجهورى بنبرة قوية مرعبة... بكرى... عبده كندنونة... فامتثلا أمامه فقال لهما: أين كنتما

بالأمس.... تكلما؟.

ويرد بكرى بسرعة وفى صوت خافت متقطع: كنت مع أبى فى الزرع.

وأين كنت يا عبده كندنونه؟

كنت مع بكرى فقد طلب منى أن أذهب معه حيث أرسله والده ليسقى الماشية من النيل.

وهنا اقترب خليل أفندى من عبده وهوى على ظهره وجنبه وكتفه بالعصا قائلاً:

لقد قضيتما اليوم كله تخوضان فى ماء النيل أنت وبكرى الشقى ولولا الريس على كلتومة لغرق أحدكما أو كلاكما.

ثم التفت إلى بكرى قائلاً: تعالى...... تعالى..... أنت ياألعبان.... أنت السبب.... ثم أمر اثنين من التلاميذ فى المقعد الأمامى أن يمسكا بيديه ويشداه على المقعد ومن تحت المقعد من يمسك بقدميه وظل يضربه على مقعدته والتلاميذ صامتون، وكأن على رءوسهم الطير من هول ما يرونه أمامهم، وبكرى يصرخ معلنًا التوبة، بأن لا يعود لمثل ذلك مرة أخرى، ولكن هيهات له أن يتوب أو يقلع عن أفعاله الصبيانية، فكثيرًا ما تكرر مثل هذا العقاب، وفى كل مرة يتسبب بكرى فى عقاب واحد من زملائه، يستدرجه معه ليشاركه الجريمة وكانت عقيدته ((الضرب يفوت ولا حد يموت)) وتوالت الحصص الحصة تلو الحصة حتى دق جرس الفسحة فأسرع التلاميذ يصطفون حول عم جاه الله برسى لينال كل منهم نصيبه من التغذية المجانية التى تصرف منحة بلا مقابل.

ولصرف هذه الوجبة لأبناء النوبة قصة طريفة، نذكرها تقديرًا لدور الشيخ مرسى على ورعايته للتعليم والمتعلمين فى بلاد النوبة، وشعوره بمعاناة النوبيين من أجل التعليم.

فقد اعتاد التلاميذ أن يأخذوا معهم إفطارهم فى منديل، أو قطعة قماش، أو إناء به لبن حليب، أو رايب، أو عسل، أو بيض مسلوق، أو فى بعض الأحيان قليل من الملوخية (الإتّر[1]) من أوراق اللوبيا، أو البامية، أو البسلة الخضراء، وهذه الأصناف المذكورة تسقى بها رقائق الخمريد.

فلما سمع الشيخ مرسى بزيارة مفتش من وزارة المعارف، لمدرسة عنيبة، أشار على أولياء الأمور والآباء، بأن يكون الإفطار موحدًا من نوع واحد، وهو الخمريد والإتر فقط، وتم الاتفاق على هذا، وفى اليوم المحدد للزيارة، لما دق الجرس، اصطف التلاميذ وأمام كل منهم ذلك الطعام المتفق عليه، من الخمريد والإتّر يتناولون بشهية مفتوحة، ولما رأى المفتش الزائر ذلك المنظر، سأل عن هذا الطعام الغريب الذى يراه أمام التلاميذ، فأخبره الشيخ مرسى على بذلك النوع من الطعام، قائلاً له:

كيف لهؤلاء التلاميذ الذين يأكلون هذا الطعام أن يستوعبوا دروسهم، وهم لا يملكون غير هذا الطعام الفقير غذائيًّا من الأوراق النباتية، فهو علف أخضر للحيوان وغذاء مطبوخ لهؤلاء التلاميذ فتعجب المفتش من ذلك، وظل يختبر ويحرك عصاه داخل آنية التلاميذ مندهشًا ومستفسرًا وصدرت الأوامر، بصرف وجبة غذائية كاملة العناصر لأبناء النوبة، ثم تطورت بمرور الأيام إلى وجبة غذاء، ثم الوجبات الثلاثة: إفطار وغذاء وعشاء، وما زالت حقًا مكتسبًا للنوبيين حتى اليوم.

والشيخ مرسى على له دوره العظيم فى حث الآباء إلى دفع

---

(1) أكلة شعبية لا تخلو منها أى مائدة نوبية فهى من أوراق النباتات المذكورة تغلى فى ماء مع رأس بصل وقليل من الملح وتعالج بالمفراك حتى تبدو مخلوطًا متجانسًا وتفرغ ساخنة فى طبق كبير من الفخار {الفالكّة} فوق شرائح الكابد غالبًا أو الخمريد {الشدّى}.

التلاميذ إلى المدرسة واصطحابهم قصرًا إلى المدرسة وكلما شاهد صبيًّا فى سن الإلزام أمسك به وأرسله إلى المدرسة لينضم إلى التلاميذ، حتى أن أولياء الأمور كانوا عندما يرون الشيخ مرسى يعلمون أنه جاء ليصطحب صبيًّا إلى المدرسة. وله دوره العظيم عندما قل العدد فى المدرسة، لظروف فيضان النيل، والظروف الصعبة بذل جهدًا كبيرًا لاستكمال العدد المطلوب، وفتح المدرسة مرة أخرى، لتقوم برسالتها فى التعليم والتنوير.

ونعود إلى عم جاه الله برسى الذى اصطحب التلاميذ بإشراف المعلمين وقد استلم التلاميذ الرغيف المصرى الذى يختلف مذاقه عن الخمريد أو الكابد، فكم هو شهى وعليه قطعة من الحلوى، أو قطعة الجبن الصفراء، ويتقدم التلاميذ فى قاطرة واحدة نحو عم جاه الله برسى، كل معه إناء ليغرف له عم جاه الله من قدرة الفول، بمقدار معلوم، متساو لكل نصيبه، ويجلس الصبية فى مجموعات صغيرة متراصة، تحت المظلة فى فناء المدرسة، لتناول هذه الوجبة الشهية فى فرح وسرور ومزاح، وأخذ التلاميذ يقصون على بعضهم البعض، ويعيدون رواية ما حدث فى جولات خليل أفندى الصباحية، ودار الحديث حول ماحدث لبكرى وعبده كندنونة من عقاب ونهر وتأثر عبده بحديثهم وشعر بالخجل وأمرهم بأن يمتنعوا عن الخوض فى هذا الحديث، ولكن بكرى يضحك بلا مبالاة، بل يعيد ماحدث من خليل أفندى ويقلده بطريقة فكاهية، فى نبرة تشبه نبرة خليل أفندى.... تعالى.... يا ألعبان..... أنت السبب يا له من فتى عجيب، لا نظير له من بين التلاميذ.



شجرة السنط

تفرق التلاميذ فى طريق العودة والانصراف من المدرسة فى مجموعات كل حسب موقع منزله من المدرسة يمينًا وشمالاً، شرقًا وغربًا، ويشير بكرى على أقرانه بأن تكون العودة على طريق شاطئ النيل، بين النخيل وأشجار السنط، لغرض فى نفسه، لكن عبده كندنونة، ما زالت عصا خليل أفندى تؤلمه فقد رفض العرض، وكذلك شقيقته بطوطة، وصديقتها زنوبة شقيقة بكرى، وفضلوا السير على طريق النجع الآهل بالبيوت، وانقسمت المجموعة إلى قسمين، وتصدر بكرى كالعادة مجموعته مع جمال وبشير وساروا على طريق الشاطئ، حتى وصلوا إلى شجرة سنط كبيرة عتيقة وارفة الظلال، متشابكة الأغصان، تحتها ظل ظليل، تشقشق بين أغصانها الطيور، فجلسوا تحتها ينعمون بالظل، ويتنسمون بنسيم عليل، يهب عبر سطح مياه النيل، ثم قادهم بكرى إلى لسان من النيل يمتد إلى كثبان رملية على الشاطئ، وأغراهم لذلك بأسماك تتحرك فى المياه الضحلة، فأسرعوا إليها يمسكون ببعضها، فتنفلت منهم مرة أخرى، فيتجهون إلى شجرة السنط، يلتقطون حبات الصمغ المتناثرة على جذعها الغليظ، وقد رشقت على لحائها السميك تبرق وتلمع تعكس ضوء الشمس، ولكن استهوتهم فكرة صيد السمك، وراودت عقلهم، فاهتدوا إلى فكرة لعلها من بنات أفكار بكرى،

فقد أشار إليهم بأن يفرغوا حقائبهم[1] من الكتب والأدوات المدرسية، ويمسكون بطرفها مفتوحًا، ويمرون به مغمورًا فى مياه النيل، على عكس اتجاه التيار، فيمتلئ بالماء، ثم يرفعونه عاليًا فيفقد الماء من خلال مسام القماش فرحين بهذا الصيد الثمين، واجتمع لهم عدد غير قليل من الأسماك المتنوعة منها {السلبايه} الإنسيابية الملساء و{الكورّى} ذات الشكل الشبه مستدير وأما {القرموط} فاستبعدوه فلم يرغبوا فيه، فأسرعوا إلى شجرة السنط، وجمعوا اليابس من العشب، مع قليل من فروع الشجر، والتقطوا قطعة من الصفيح الصاج، أعدوه لشوى السمك، وإعداد وجبة وهم أقرب إلى اللهو واللعب، أكثر من الحاجة إلى الطعام، ولكنهم يقفون حيارى، فليس معهم عود كبريت لإشعال النار، وبينما هم فى حيرة من أمرهم يروا على البعد (حسن جوربتى)، وهو شاب غريب عن الشمندورة، نزح إليها منذ سنوات، واستقر بها لظروف صعبة، فهو كما قيل عنه من أسيوط، وغادر أسيوط إلى الشمندورة طريدًا، بعد حادثة شجار بين عائلته وأخرى، فى نزاع أدى إلى سقوط قتلى، فجاء إلى الشمندورة واختفى بها فى مأمن وأمان، يأكل من عمل يده بالأجر فى أعمال الحقل والزراعة، أو حفر بئر، أو جمع حطب، أو نقل روث البهائم من الحظائر، أو ما إلى ذلك من الأعمال اليدوية، وبين هذا وذاك يتجول بقاربه الصغير ذو المجدافين، فيعود بكمية من السمك، يعطيه لمن يطلبه مقابل قمع سكر أو حفنة شاى، ولعل الحياة البسيطة الهادئة الوادعة فى قرية الشمندورة والقرى المجاورة لها، أثرت على شخصيته ونفسيته، فقد بات مطمئنًا آمنًا بعيدًا عن السلوك الإجرامى بل

---

(1) الحقيبة كيس من القماش الخام أو قطعة بالية من بقايا جلباب أو قميص تخيط مربعة الشكل أو مستطيل له مقبضان من شريطين فى أعلاه للإمساك بهما.

وديعًا ومسالمًا يتغنى بالمواويل الصعيدية يدندن بها أثناء العمل فى البر أو الصيد فى البحر {النيل} أو مشاركة لأهل الشمندورة فى المناسبات السعيدة ويقلده الصبية فى مرح وقد تعلم بعض الكلمات والألفاظ النوبية، يلوى بها لسانه.

فلما بدا حسن جوربتى تصدى له بكرى يناديه بصوت عال فيسمع النداء، وهو فى عرض النيل، ويلوح لهم بيديه أنه آت إليهم، ويزيد فى التجديف، ويضرب الماء بمجدافيه بقوة، يصارع الأمواج حتى اقترب منهم وقفز إلى الشاطئ فقدم إليه بكرى تمرات كانت فى حقيبته خلسة من الجوسيه[1] وقطعة من الحلاوة الطحينية وبقية من رغيف مصرى من تغذية المدرسة المجانية، مما كان مع بشير، ففرح حسن جوربتى بذلك فرحًا شديدًا ثم طلب منه بكرى أن يساعدهم فى إعداد وجبة سمك مشوى، فأضاف ما معه من السمك إلى ما جمعه الصبية، وأوقد لهم النار، وقام بإعداد وجبة شهية من السمك المشوى، وتناولوا طعامًا هنيئًا مريئًا، بين المرح والمزاح، وكأنهم فى رحلة برية، أو نزهة خلوية، ولم يتأخر حسن جوربتى عن خدمتهم، لأن عثمان باشرى كثيرًا ما يغدق عليه بالخير والمنح مراعاة لظروفه.

وبينما هم فى هذه الحال، من المرح والسرور، فهناك عثمان باشرى يسأل عن بكرى، فقد حان موعد أذان العصر، فتخبره زنوبة، التى لا تستطيع أن تخفى خبرًا عن بكرى فتقول إن بكرى وبشير وجمال ونفر من الزملاء، ساروا بمحاذاة النيل فى طريق العودة، وخالفوا الطريق المعتاد وسط القرية، فيثور عثمان باشرى قائلاً:

---

(1) من الأثاث المنزلى تصنع من الطين المخمرمخروطى الشكل محيط قاعدته من متر ونصف إلى مترين تقريبًا أكبر من فوهته أعلاه الغطاه بغطاء محكم بالطين وعند القاع فتحة تسد وتفتح عند الحاجة وتخزن فيه الغلال والتمرمن الموسم للموسم.

لعنه الله.... لعله الآن فى منزل عمه محى الدين اذهبى إليه.

وتخرج زنوبة، فإذا ببكرى على مقربة من البيت، قادمًا يمشى على مهل، يطوح بحقيبته فى الهواء، يمينًا ويسارًا ويظهر عليها آثار البلل، فما زالت مبللة، يتقاطر منها الماء، فلم تجف تمامًا بعد، وتنادى زنوبة على أبيها قائلة: لقد حضر بكرى يا أبت..... ها هو ذا قادم..... فيخرج إليه عثمان باشرى ينهره:

ألم يكفك التلكع حتى آذان العصر؟.... هيا.... هيا.... أسرع. ويفاجأ بكرى بصوت أبيه، فيمسك الحقيبة يخفيها وراء ظهره، لعله يستطيع أن يخفى شيئًا، وعندما يقترب من أبيه، يعاتبه أبوه.

- كالعادة يا بكرى، تمشى تلعب تارة، وتلتقط ثمرة البلح تارة، ... متعب... متعب، ويتقدم إليه يريد أن يشبعه ضربًا، ولكن تخرج أم بكرى بسرعة، فقد سمعت جانبًا من الحوار وهى بالداخل، فتفتح ذراعيها تحتضن بكرى الذى ارتمى بين أحضانها، ليهرب من ضربات أبيه، وتتوسل لدى عثمان وتقول: استحلفك بالله... سامحه هذه المرة... إنه ما زال صغيرًا.

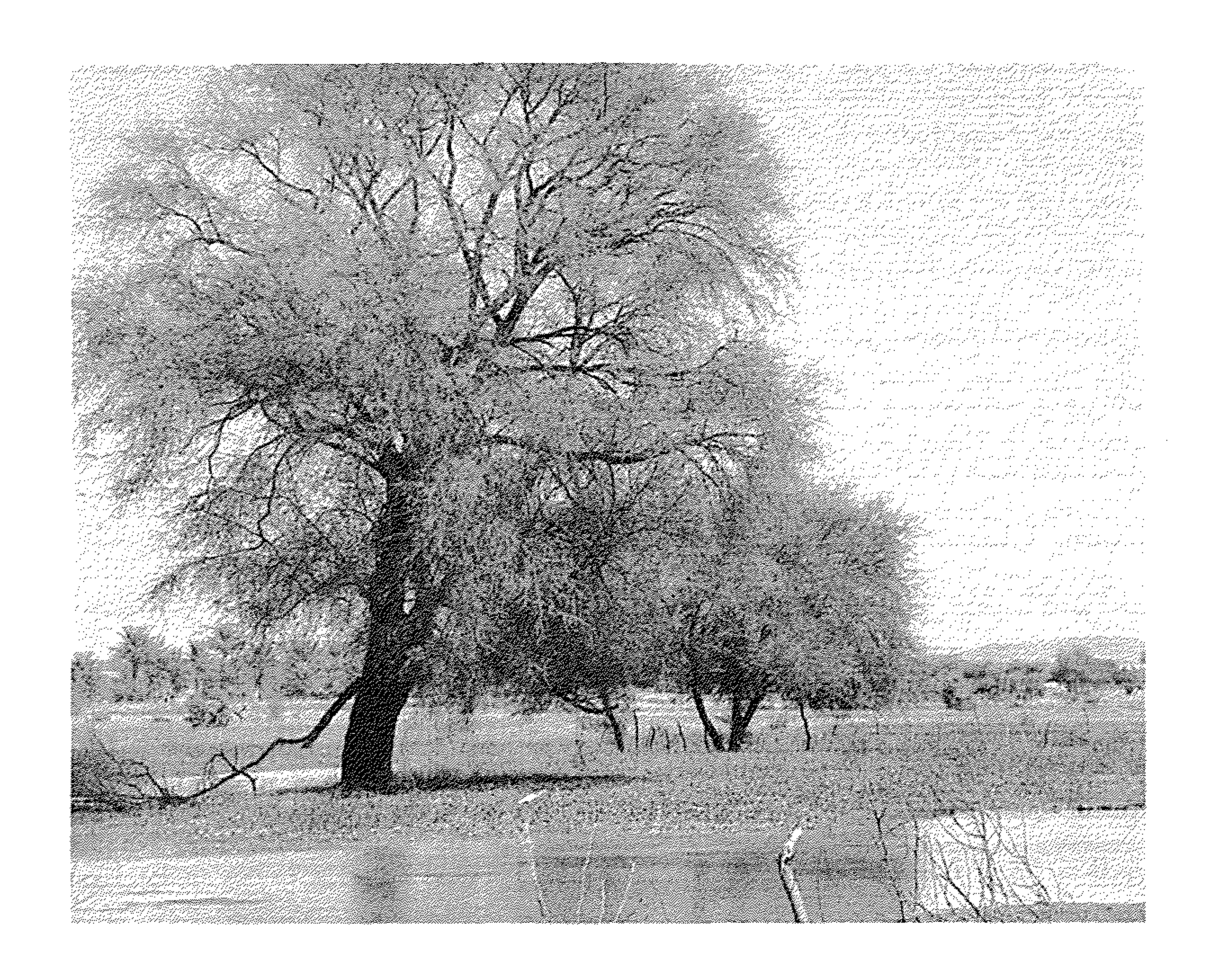
لقد سامحته مرات ومرات..... ألم تتذكرى ما حدث منه منذ أيام؟ وتتدخل زنوبة كالعادة تريد أن تزيد الطين بلة، وتنتقم من بكرى قائلة: لقد عاد متأخرًا بالأمس القريب يا أماه.

وكان عثمان قد توجه إلى داخل البيت فلم يستمع إلى بقية كلام زنوبة ولكن أمه ترد دفاعًا عن بكرى قائلة:

اسكتى يا زنوبة... بكرى أخوك وحامى حماك وتاج رأسك.

ويدخل عثمان باشرى ليعد العدة ليذهب إلى الجزيرة، وينادى على شقيقه محى الدين: الهمة يامحى الدين... هيا... هيا لقد تأهب على كلتومة للإقلاع وينتظرنا.

لقد كانوا على موعد مع على كلتومة، لإعادة الماشية والأغنام من الجزيرة، فقد يطغى النيل قريبًا ويصعب الوصول إلى الجزيرة، ويزيد الطلب على مركب على كلتومة ففى الأيام القادمة قد يرتفع المنسوب، ويأتى الفيضان، ويأخذ الجميع كامل استعداده، لينتهى من جمع المحصول وجنى البلح وتخزينه وإعادة الماشية والأغنام من الجزيرة قبل الفيضان وطغيان النيل.



سباق مع الزمن

عقارب الساعة تدور بسرعة، وتتعاقب الأيام، وتتوالى الليالى، ويبدأ السباق مع الزمن، فقد لوحظ ارتفاع منسوب مياه النيل تدريجيًّا، وربما يكون الفيضان قريبًا، وطغيان النيل آت لامحالة، ومحى الدين باشرى وعثمان وأبناء عمومتهم، مثل بقية أهل الشمندورة، عليهم أن يشكلوا تحالفًا يقتضيه العرف السائد لجمع المحصول، وجنى ثمار النخيل، ولم يتركا محروسة باشرى شقيقتهم، فقد توفى زوجها، وترعى صغارها، وتزرع قراريطًا انحسرت عنها المياه، تحت رعاية شقيقيها يقومان بما يصعب عليها تداركه من أعمال الزراعة، وقد عقدوا العزم على جمع المحصول، وبخاصة الكشرنقيق، الذى يعد غذاءً آدميًا، وسيقانه وأوراقه تجفف كعلف للماشية وهو غنى بالفيتامينات اللازمة لتسمين الحيوانات، وليس أمامهم إلا أن يسابقوا الزمن، والاستعانة بحسن جوريتى، فقد يعز طلبه فى هذه الآونة، وعليهم أن يضاعفوا له العطاء، ويتعاون الجميع، رجالاً ونساءً وصبية، فى هذه الآونة للتغلب على عنصر الزمن، فيقوم الرجال بالحصاد والجمع، وتقوم النساء بإعداد الطعام، والأعمال اليسيرة مثل التذرية وربط الحصيد ليسهل نقلها، ودور الصبية امتطاء ظهور الدواب لنقل المحصول وعلف التخزين إلى البيوت، ويجدون فى ذلك متعة فى الذهاب والإياب.

اما جنى البلح فهذه المهة لها رجال متخصصون حيث يحتاج إلى خبرة ودراية وإلى نوع من المهارة لتسلق النخيل الباسقات والجنى أو التقليم أو التلقيح يكون باستخدام حبل مشدود على جذع النخل

ويدور حول وسط المتسلق فيقف مشدودًا بهذا الحبل إلى النخل ولم يترك أهل الشمندورة بينهم أرملة أو عجوزًا أو ضعيفًا يستحق المعاونة وفى مظهر تضامنى تكافلى أخوى وفى جو تسوده المحبة والمودة والتعاون يمر هذا الموسم بالخير على الجميع ولم يتحسر أحد أو يحزن على خير فاته أو بغلبة الفيضان وبهذه السمة الغالبة استطاع أهل الشمندورة أن يتغلبوا على الطبيعة القاسية وسبقوا موعد الطوفان وطغيان ماء النيل وإذا بالجميع قد نجح وفاز بجمع وجنى ما جادت به عليهم الأرض الطيبة من خير.

ونصبت المكاييل والموازين بالقسط للغلال والحبوب والبقول والتمر وكل ينال نصيبه ولا يحرم فقير أو مسكين من أهل الصدقة والزكاة كما يهادى كل أخاه بما أنعم به الله عليه من خير وتتنقل العطايا والهبات والهدايا بين الأهل والجيران سواء من كان له أرض زراعية أو ليس له أرض زراعية، فيعطى كل أخاه قائلاً له:

تذوق خير السنة ويسمى بالنوبية {الأير}[1] بعيدًا عن الزكاة المفروضة أو الصدقة المستحبة فالكل يبارك الأخ لأخيه ويدعو له بالمزيد من المحصول وطول العمر وبعودة فى العام القادم.

وقد تكون النخيل أو الأرض الزراعية ميراثًا عن الآباء والأجداد فتقسم بين الورثة بكل نفس راضية للذكر مثل حظ الانثيين ولا ينسى شيخ الكتاب ولا العريف.

أما تجار البقالة والقماش والخردوات وغير ذلك من التجار ينتظرون هذا الموسم بفارغ الصبر حيث تسدد الديون وتمحى الحسابات من دفاترهم بعد السداد للمديونية وتصفر المديونية أى

---

(1) الأير لعل هذه الكلمة مشتقة ومحرفة من كلمة (EARLY) أى باكورة الإنتاج لأنه يكون فى بداية موسم الجنى.

تصبح صفرًا ليبدأ موسم جديد وصفحة جديدة للحساب حتى مثل هذا الموسم من العام القادم.

وتضج الشمندورة وتزدحم كغيرها من القرى بالأكتوبريين وتعنى الوافدين والقادمين من القاهرة والإسكندرية ومدن بحرى حيث يعملون بها ويعودون فى هذا الموسم الذى يوافق شهر أكتوبر أو نوفمبر ولذا يسمون بالأكتوبريين وقد يفد البعض لسداد مديونية التجار على حساب ذويهم وأسرهم خلال العام المنصرم وللحصول على نصيبهم من الإنتاج الزراعى وتمر النخيل الخاصة بهم أو ورثة عن الآباء والأجداد ويفد إلى القرية أيضًا فى هذا الموسم مجموعات من الجنوب يفدون لجمع الصدقات أو لمقايضة الغلال والتمر بسلع معروفة تجلب من الجنوب مثل الحلى من الباغ أو الخرز أو غير ذلك من الأدوات والأوانى المنزلية ولعب الأطفال وأنواع من القماش والأحذية من البلاستيك أو من الجلد الخالص والعطور وخلطة البخور، ولا تخلو هذه المجموعات ممن يلجأون إلى طرق النصب والتحايل للحصول على مزيد من الغلال والحبوب والتمر أو غير ذلك فيدعى البعض بعلم الغيب وقراءة الكف والطالع وضرب الودع، كما تفد مجموعات تردد الإنشاد الدينى والمدائح النبوية تصاحبهم الطبول أو المزاهر فيتبعهم الصبية من البنين والبنات فى مرح فرحين بما يسمعون ومستمتعين بما يشاهدون يرددون خلفهم ويطوفون الأحياء والنجوع فيستقبلهم أهل الشمندورة بالمنح والهبات بنفس راضية حبًا فى الله ورسول الله ﷺ وإكرامًا للضيف، وقد يكون من بين هؤلاء من يقصد بيت الله الحرام للحج وقضاء الفريضة فيمر بالنوبة فى طريقه إلى الأراضى الحجازية.

وهكذا يدب النشاط فى أنحاء الشمندورة وتصل فى هذه الأيام برقية من سيف الدين باشرى بالقاهرة يتسلمها الشيخ عبد الله تفيد بأنه قادم من بين الأكتوبريين لقضاء إجازته السنوية مع الأهل

بالشمندورة، وتصل هذه البرقية إلى يد بكرى الذى يسرع بها إلى عائشة خير الله زوجة عمه سيف الدين ويرفض أن يبلغها بمضمون البرقية إلا إذا أعطته {البشارة} كما يسميها المصريون بالحلاوة أو {تحلى له فمه} فتعده عائشة خير الله بذلك ولكنه يرفض ويلح فى الحصول على البشارة أولاً فأعطته قطعة من السكر فأخذها بكرى والتهمها بسرعة وطلب المزيد لأن الخبر سعيد جداً فزادته طبقاً من التمر عندئذ قرأ لها البرقية وبشرها بالخبر السعيد بقدوم عمه سيف الدين باشرى فوعدته بالمزيد من أغلى الهدايا القاهرية التى يجلبها سيف الدين معه من القاهرة.





الأكتوبريون

دبت الحياة فى بيت سيف الدين باشرى، حيث تتوافد جموع النساء؛ لتهنئة عائشة خير الله بوصول سيف الدين باشرى، يحملن إليها أقماع السكر والشربات مشاركة منهن لفرحتها بعودة زوجها فتتقبل الهدايا بروح طيبة ثم ترد إليهن الهدية بأحسن منها، فلكل منهن نصيبها طبقًا لقرابتها ومنزلتها عندها، فترد لواحدة بزجاجة عطر نفاذ، وأخرى بطرحة من الشفون، أو الجورجت الخالص، وثالثة بقطعة قماش من البوبلين السادة للأبناء الصغار، وقد تطمع إحدى الفتيات فى شبشب تمشى بها فى دلال، تصدر طرقعات تلفت الأنظار، ويصاحب تلك الهدايا دائمًا أعواد البخور أو حفنة منها، من بخور سيدنا الحسين أو السيدة زينب.

أما المندرة وهى بمثابة حجرة الضيوف، أعدت لاستقبال الرجال والشباب، وفى استقبالهم سيف الدين وشقيقيه، وأولادهما فيمر بكرى بأكواب الشاى الساخن مقرونًا بقطع البسكويت القاهرية التى تختلف عن المخبوزات النوبية {القراقيش} ومن آن لآخر يلتقط بكرى خلسة تلك القطع من البسكويت ويقرضها قرضًا ثم يسرع ليملأها مرة أخرى أما بقية الأولاد جمال وبشير محى الدين ومحمود يحملون أطباق الفيشار[1] التى تعلوها قطع الحلوى

---

(1) من الذرة الرفيعة وتصنع باستخدام صفيحة المسلى الفارغة سعة {١٨} لتر توضع فوق النار مثبتة أفقيًا وترش بكمية من الرمل الناعم حتى لا تحترق حبات الذرة والخبرة فى درجة حرارة النار وكمية الرمل والذرة فى كل مرة ومن النساء من تجدن هذه الصنعة وبخاصة من الموالى ويقدم ذلك الفيشار فى الأفراح وفى كل

والشيكولاتة القاهرية بدلاً من البلح الرطب أو التمر مختلفة الأحجام والأشكال، بينما سيف الدين يرحب بضيوفه ويمر عليهم بعلب الدخان {السجائر} من أنواع الهليود والكوتاريللى والوينجز أما الأنواع الممتازة من سجائر الكرفيليه أو القط والبحارى فيحتفظ بها خلسة للأعيان وكبار تجار الشمندورة وأعز الأحباب فيلقون بالسمسون وورق البفرة وعلب الدخان الأخضر جانبًا على الأقل فى تلك الأيام من شهر أكتوبر التى تزدحم فيها الشمندورة بالأكتوبريين الذين يهادون أهل الشمندورة بالسجائر القاهرية.

أما عائشة خير الله فهى مشغولة بإعداد لفائف الهدايا للأهل والأقارب هدايا مختلفة الأحجام والمحتويات من أرز ومكرونة وعلب الصلصة وقطع صابون الحمام المعطرة والغسيل وأقمشة الموسكى وهدايا الأزهر والتبليطة وغير ذلك من الأصناف التى جلبت من االقاهرة مع سيف الدين باشرى فتقدم ذلك هدية وهبة.

أما أش الله وأخواته والصغار أحمد ونعمة أولاد سيف الدين فهم فى فرح وسرور بأبيهم فيرتمون فى أحضانه دلالاً فقد غاب عنهم والدهم عامًا وسيغيب لعام آخر ويتلقاهم الحاضرون ويقبلونهم تحية ومجاملة لسيف الدين باشرى إذ يرونهم يرفلون فى ملابسهم الجديدة المميزة ولم يحرم أولاد العمومة أبناء عثمان ومحى الدين باشرى من الحب بجانب من دلال وترحيب وسعادة.

وهذا المنظر والمشهد الذى نراه فى بيت سيف الدين باشرى متكرر فى كل بيوت الشمندورة وقرى النوبة التى يفد إليها الأكتوبريون فقرى النوبة كلها فى مثل هذا الفرح والسرور ينعمون بتلك السعادة والهناء ولم ينس سيف الدين باشرى كغيره من الأكتوبريين أن يهادى أشقاءه بهدايا مما جلبه من القاهرة ومن

المناسبات السعيدة وفى الضيافة مع البلح الرطب أو التمر والشاى بالحليب والقراقيش النوبية.

بينها الكريز {العكاز من الأبنوس أ و العاج على شكل حرف ل أو t} واحتفظ بإحداها لنفسه تلك التى فى نهايتها عند المقبض دبلة من الفضة نقش عليها اسمه وتاريخ الشراء كعادة أهل النوبة يتوكأ عليها متباهيًا بها.

وأما الشيخ حمدون إمام المسجد ومحفظ القرآن للصبية فى الكتاب يوصيه سيف الدين برعاية خاصة لأولاده ويهدى إليه الطربوش الأحمر المميز بالذر الأسود والجبة والقفطان ويبشره الشيخ حمدون ويزف له البشرى فإن ابنه أحمد قد وصل إلى قوله تعالى "ماشاء ركبك" من سورة الانفطار حفظًا عن ظهر قلب وما أدراك بوصوله إلى هذه الآية فإنها توجب على سيف الدين أن يقدم وليمة من اللحم والثريد وتسمى هذه الوليمة بـ{ماشا الله نكبك} وتعنى بالعربية أكلة ما شاء الله فالعادة المتبعة والتقليد المتكرر والمتعارف عليه فى قرية الشمندورة وغيرها من قرى النوبة أنه عندما يصل الصبى إلى هذا الموضع حفظًا عن ظهر قلب يقدم ولى أمره ويقوم بإعداد وليمة والدعوة إليها لأنه هناك علاقة "بين ماشاء ركبك" و"ماشا الله نكبة" نطقًا بالنوبية.

وقام سيف الدين باشرى بإعداد وليمة معتبرة من اللحم والثريد للشيخ حمدون خصيصًا ولكل صبية الكتاب بوجه عام طعامًا هنيئًا مريئًا للجميع.

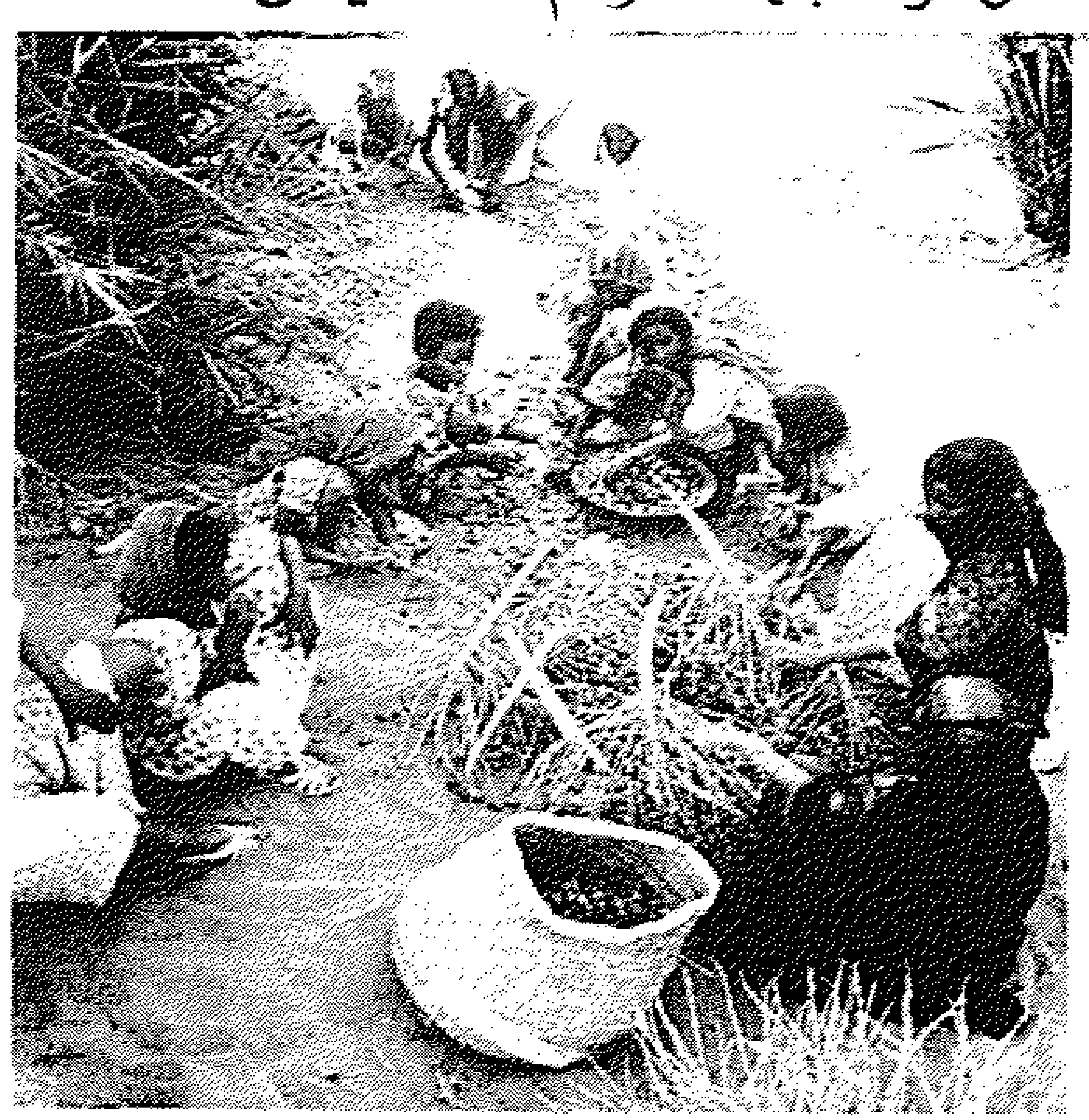
ولم تحرم محروسة باشرى ولا أولادها الصغار من عطاء سيف الدين فقدم لهم ما توجبه عليه حقوق الأخوة وصلة الرحم والمروءة بالإضافة إلى أنه ذهب كالمعتاد إلى متجر الحاج صالحين يسدد ما على شقيقته من ديون خلال العام المنصرم، كما أوصى سيف الدين باشرى الحاج صالحين بأن يمد محروسة شقيقته بكل ما تحتاجه من بقالة وخردوات وغير ذلك مما تحتاجه محروسة فإن متجر صالحين يعد أكبر متجر بالشمندورة ويضم ألف صنف

وصنف مما تحتاجه البيوت فهو أشبه بسوبر ماركت أو المول فى العصر الحديث وكانت هذه هى عادة الغالبية من أهل الشمندورة الأكتوبريين تجاه ذويهم وبخاصة الأرامل وذوى الحاجة والاحتياج.

ففى هذا الموسم من كل عام خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر تعقد جلسات السهر والسمر حول أكواب الشاى الساخن وتحت ضوء القمر أو على ضوء تلألؤ النجوم يتحدث فيها الأكتوبريون إلى أهل الشمندورة عن المدينة والخواجات وألسنتهم الملوية حينما ينطقون العربية وعن عطائهم السخى وقد يتطرق الحديث عن النساء ذوات البشرة البيضاء وأجسادهن الغضة البضة فقد اختلطوا ببعضهن من اللاتى يعملن فى خدمة الأثرياء وعلية القوم فى القصور والفلل وفى كثير من أحياء القاهرة، كما يتطرق الحديث إلى البعض من أبناء الشمندورة والنوبة الذين استهوتهم تلك النساء ومظاهر المدينة فانغمسوا فى غمارها وتاهوا فى خضمّها العميق وضلوا طريق العودة إلى الشمندورة وشدوا إلى المدينة وإلى تلك النساء بوثاق يصعب أو يستحيل الفكاك والفرار منها هيهات...... هيهات لمثل هؤلاء أن يعودوا إلى الشمندورة أو يفكروا فى العودة إلى ذويهم، ولعل البعض منهم يرسل برسالة مكتوبة أو برسالة شفوية أو بقروش معدودة مع الواردين من حين لآخر ليتذكره الأهل ولا يفقدون الأمل أو ينقطع حبل الرجاء فى عودته، ولكن الكثير منهم قد ارتمى فى أحضان إياهن ولا ذكر له بين أهل الشمندورة إلا آهات وزفرات أهله الأقربين وقد يمنون أنفسهم بالأمانى أملاً فى عودتهم ولكن هل يعودون كما يأملون يا ترى..........؟!!

فيسألون عنهم الأكتوبريين واحدًا تلو الآخر فأحيانًا يجدون من الإجابة ما يطفئ الشوق ويذهب الشك من صدورهم وكثيرًا لا تكون الإجابة مفيدة بشىء جديد أو تبعث ببصيص من الأمل فيعود الأهل بحال لا يحسدون عليه بقلب مكسور وخيبة أمل.

أيام قليلة ويعود سيف الدين إلى القاهرة ولذا يخلو سيف الدين إلى شقيقيه ويعقد بينهم شبه اجتماع مغلق بين الأشقاء الثلاثة يطمئن فيها سيف الدين على حال أشقائه وبخاصة شقيقته محروسة وماذا يكون من أمرهم خلال العام القادم وبعد استعراض الحساب لإيراد الأرض الطيبة وغلتها وثمار النخيل من الرطب والتمر الموروثة عن باشرى الجد الأكبر عرض الشقيقان على سيف الدين حاجتهم إلى مزيد من الأرض الزراعية فقد توسعت الأسرة ولم تعد تلك القراريط التى تنحسر عنها مياه النيل كافية، وكان الاقتراح بإنشاء ساقية تدور وتدر بالخير فالفرصة متاحة ولا ينقصها إلا التمويل النقدى فأمام بيوتهم مساحة مناسبة من الأرض الفضاء ذات التربة الطينية إلى الصفراء ملك باشرى ومنسوب المياه الجوفية بمسافة لا بأس بها، فهى قريبة من النيل نوعًا ما فوافق سيف الدين باشرى على الاقتراح ورصد مبلغًا من المال وسلمه إليهما على أن يرسل الباقى بعد وصوله القاهرة وعلى أن يتولى الشقيقان الإشراف والتنفيذ والمشاركة بالجهد مع من يعملون بالأجر ولكل منهم الثلث فى الساقية مشاركة بين الأخوة الثلاثة، أما شقيقتهم محروسة فلن تحرم من الإيراد والإنتاج فلها مثل نصيب واحد منهم دون أن تتكلف بشىء من المال أو الجهد، وتم تخصيص المساحة المزمع إنشاء الساقية عليها وتم الاتفاق بينهم بصورة نهائية وقرأ الجميع الفاتحة تبركًا وتفاؤلاً مع الدعوات من القلب بأن يتمم الله المراد على خير وبخير إن شاء الله.



رحيل الجدة طماية

عاد سيف الدين باشرى إلى القاهرة وأرسل بعد أيام ما اتفق عليه مع شقيقيه من تكاليف إنشاء الساقية وبدأ العمل على قدم وساق حيث عيسى نجار القرية صاحب الخبرة والكفاءة ومحتكر هذه المهنة فى الشمندورة والقرى المجاورة، عيسى النجار ينشر الأخشاب من جزوع الأشجار ويعشق بعضها ببعض بمهارة وطريقة فنية باستخدام خوابير (الأسفين) دون المسامير ويقوم البعض بحفر البئر إذ ينحدرون إلى الأسفل بحبل من ليف النخيل يفتل فتلاً جيدًا بإحكام ودقة مشدود إلى وسطهم وظهورهم، بينما يقوم آخرون بتجهيز الطعام من لحم وثريد لكبش أقرن ثمين ذبح شكرًا لله تعالى وتفاؤلاً بإراقة الدماء عند بداية العمل، أما الصبية من بنين وبنات فهم فى فرح وسرور بهذا الجمع السعيد وفى حضور شيخ الناحية الشيخ عبد الله فى صحبة إمام المسجد لتحل البركة بحضورهما معًا وتفرقت فرق العمل كلا يشارك ويبارك الخطوة ويتعجل اتمام إنشاء الساقية ليعم الخير على الجميع.

أما عائشة خير الله فى غاية السعادة والسرور لذا أسرعت لتبرق لزوجها تزف إليه البشرى ببداية العمل أما نبرة زوجة عثمان باشرى أم بكرى وهجلة زوجة محى الدين أم جمال تحملان صينية شاى أو عصير الليمون أو أطباق الفيشار والتمر التى لا تغادر المكان إلا لتملأ مرة أخرى وتعود، بينما زنوبة ونعمة يتعاونان فى إعداد الطعام وعثمان باشرى وشقيقه محى الدين يتنقلان بين مجموعات العمل هنا وهناك ليلبوا الطلبات ويشحذوا الهمم بكلمات التشجيع والشكر

الجزيل للجميع واستمر العمل أيام والكل ينتظر متشوقًا إلى دوران الساقية لتجلب الخير ويخرج الماء ينساب فى سلاسة عبر الجداول والمساقى يروى الزرع ويدر الخير.

أما فتيات الشمندورة ينتظرن اللحظة التى ينبثق فيها الماء بفارغ الصبر لأن ذلك ييسر لهن الحصول على الماء من قريب عندما ينحسر النيل وتطول المسافة للحصول على الماء، فالساقية سوف تقصر المسافة وتجنبهم حمل الكوبية النحاسية فوق الرأس مسافات ومسافات، ونساء الشمندورة يحلمن باليوم الذى يغشون فيها أرض الساقية ليقطفن أوراق اللوبيا أو الباميا والملوخية والبسلة طبقًا للموسم الزراعى لطبخ (الإتر) وهى الأكلة الشعبية المفضلة من تلك الأوراق النباتية فهى ميسورة وفى متناول الجميع، كما يحلمن بجنى الخضروات وقد يمضى بهن الخيال بعيدًا فتشم أنوفهن عطرًا ذكيًّا ينبعث ويفوح من شجر الحنة فى جنبات أرض الساقية ويملأ المكان عبقًا طيبًا.

وتمر الأيام ويزداد البئر عمقًا ويقترب عيسى النجار ويوشك أن ينتهى من تجميع أجزاء الساقية وتركيبها (الأرجديه والكوديه والفيشيه وتعنى القواديس) ويضم بعضها لبعض، وبعد طول الشوق والاشتياق دارت الساقية وسط فرح الأهل وبين التهليل والزغاريد وتلقى آل باشرى أجمل التهانى وعلقت على الساقية بقرتان إحداهما لعثمان والأخرى لمحى الدين باشرى، وخفق قلب محروسة باشرى خفقانًا وارتعدت خوفًا وهلعًا على شقيقيها اللذين يقفان على حافة بئر الساقية، فقد تذكرت ما حدث للشيخ فى قرية أرمنا حيث كان يملك بئرًا من النوع المعروف بالآبار الكفرية واقعة بالقرب من منسوب التعلية فتأثرت جوانبها بفعل مياه النشع بينما كان الشيخ وبقرتاه فوق فوهة البئر تمهيدًا لإدارتها وشعر بهزة بسيطة أعقبها انهيار جوانب البئر إلا أن صادفته العناية الإلهية

فبقى ثابتًا فى مكانه مع بقرتيه حتى كمل انهيار الجوانب الثلاثة للبئر وصاح مستغيثًا فهرول الجميع لإغاثته وحملوه والبقرتين على الأعناق وبعدها انهار الركن الرابع الذى كان عليه الشيخ وبذلك استوى مسطح البئر مع الأرض ونجا الشيخ بعناية الله ورحمته وبهذه المناسبة زاره العمدة وزملائه من المشايخ والأعيان وقدموا له التهنئة على نجاته من هذا الحادث الأليم فتذكرت محروسة باشرى ذلك وخفق قلبها.

ولما تحركت البقرتان ودارت الساقية أسرع بكرى ليعتلى كرسى الساقية وهو عبارة عن حبال من ليف النخيل مشدودة بين قوائم من خشب الشجر وأمسك بفرع من غصن الشجر وكأنه قد أعده خصيصًا لهذه المناسبة مسبقًا واعتدل فى جلسته يرفع عقيرته مناديًا يحث البقرتين على السير بل الإسراع فى السير (ها... ها... ها) وينهال على مؤخرتيهما وظهرهما بتلك العصى فيلهب جسدهما فتسرع البقرتان، وانساب الماء يجرى فضة سائلة تتسكب من القواديس تباعًا إلى الجدول الرئيسى ومنها إلى الجداول الفرعية والمساقى حتى وصلت إلى أطراف الأرض المحيطة بالساقية التى غرست فى أرجائها أشجار النخيل (الفسائل) وأشجار الحنة وشتلات الليمون فى نظام بديع، كما خصصت مساحة للخضراوات وأخرى للبقول مما يتناسب مع الموسم الزراعى.

ولما طار الخبر إلى سيف الدين باشرى أرسل لتقام وليمة على حسابه الخاص دون شقيقيه يدعى إليها أهل الشمندورة وبخاصة الفقراء وأن تتقاسم محروسة شقيقته مما تدره الساقية وتأخذ بنصيب وافر.

ووسط هذه الأفراح وسعادة أهل الشمندورة وسرور آل باشرى فإذا بطمايا وهى جدة بكرى لأمه تشعر بآلام فى صدرها تزداد حدة بمرور الوقت مع سعال حاد متواصل وتنتابها إثر ذلك غيبوبة

تفيق منها بعد فترة وتعاودها الكرة مرة أخرى بل مرات، فيشير البعض من ذوى الخبرة بالعلاج بالأعشاب والأوصاف البلدية بحلف البر أو الحرجل أو بقليل من العسل الأسود وعند الغيبوبة يشير آخرون بأن يقرب إلى أنفها قطرات من عطر الكولونيا أو رأس بصل حار أو قليل من النشادر ولكن لاجدوى وعندما ازدادت الحالة سوء انقسم الجمع؛ فمنهم من يقترح أن يتخذوا راحلة من الدواب لنقل طماية إلى مستشفى عنيبة وآخرون يرون البحث عن على كلتومة لعل مركبه يكون راسيًا على الشاطئ ومنهم من لا يرى هذا ولا ذاك ويشير إلى انتظار القطعة البحرية (الرفاص) الوحدة العلاجية المتنقلة التى تحمل الطبيب المتنقل فاليوم موعده فى الشمندورة كالمعتاد أسبوعيًّا حيث ترسو القطعة البحرية على الشاطئ ويتوجه إليها كل من يشتكى من أى مرض أو ألم فيقوم الطبيب بالكشف وصرف العلاج اللازم.

وبينما أهل الشمندورة يتشاورون فى الأمر فقد عرضت عليهم إحدى النساء أن تفصد فى بطن ساقيها بالموسى أو مبضع (مشرط) للتخلص من الدم الفاسد سبب هذه الأعراض، ولكن قبل أن يلبى طلبها فقد سبق أمر الله ولفظت العجوز طماية أنفاسها الأخيرة وفاضت روحها إلى بارئها ورفعت أكف الضراعة والابتهال بالدعاء لها بالرحمة والغفران.

ونصب العزاء بمضيفة آل باشرى وأقبلت الجموع من الشمندورة والقرى المجاورة أفواجًا لتقديم واجب العزاء والمشاركة الوجدانية، وتكفل أهل النجع والحى باستقبال الوافدين وتقديم واجب الضيافة من طعام وشراب طوال أيام العزاء وفى نهاية أيام العزاء قرئت الفاتحة وما تيسر من القرآن على روح الفقيدة وذبحت قطعة من الغنم وقدم الطعام صدقة على روحها ثم توجهت النساء إلى المقابر حيث لم يتبع النساء الجنازة فى يوم وفاتها؛ لذلك يقمن

بزيارة قبر الفقيدة يوم رفع العزاء ويسقى القبر بالماء ويملأ إناء من الفخار عند رأس القبر ليشرب منه الطير وتنثر على القبر وحوله حبوب من الغلال يلتقطها الطير لعلها تكتب صدقة لروح الفقيدة، كما يوضع على القبر بعض من الجريد الأخضر لعله يخفف عنها العذاب حتى ييبس ويقرأ الفاتحة وما تيسر من القرآن أحد الصبية الذين يتعلمون فى كتاب القرية أو المدرسة فى خشوع وإنصات تام وتوزع عليهم بعض المأكولات من المخبوزات النوبية التى أعدت لهذه المناسبة وحبات من التمر أيضًا صدقة، وبعد الدعاء للفقيدة ولأهل الجبانة عامة وللمسلمين كافة يعودون بقلوب مؤمنة بقضاء الله وقدره ويستمر الحزن فى بيت أهل الفقيدة حتى الأربعين[1] يومًا.

ومن عادة أهل الشمندورة أن يقدموا مساء كل يوم بعد صلاة المغرب وجبة عشاء للصبية من أهل الحى لمدة أربعين يومًا أو أقل حسب إمكانات أهل الفقيد أو الفقيدة وغالبًا ما يكون هذا الطعام من البيض المطبوخ بالصلصة والإتر واللبن الرايب.

وفى اليوم الأربعين تذبح قطعة أخرى من الماشية أو الغنم ويدعا لها الأهل والجيران لتناول الطعام وقراءة آيات من القرآن الكريم تنتهى بدعوات بالرحمة والمغفرة للفقيدة والصبر والسلوان لأهل الفقيدة مما كان يعتقد أن روح الفقيد يزور البيت ويروى عطشه من زير أهله يوميًا عند الغروب ويزور أهله وتتردد روحه على المكان يوميًّا حتى الأربعين يومًا.

---

(1) الأربعين يرجع إلى قدماء المصريين فإن تحنيط جثة المتوفى كان يستغرق أربعين يومًا فقد تكون هناك علاقة بين هذا وذاك.

ليالى السهر والسمر

صبية الشمندورة فى غاية السعادة والفرح ينتظرون بشوق أحّر من الجمر على مشارف القرية عودة طلاب مدرسة عنيبة العائدين لقضاء العطلة، فهم نخبة من خيرة الشباب يتعلمون فى حى الفاروقية[1] بعنيبة وحينما يعودون للشمندورة تعقد جلسات السهر والسمر فى حلقات تحدثهم تلك النخبة عن الحياة فى عنيبة تلك القرية التى تتميز عن بقية القرى النوبية؛ فيحدثونهم عن السوق البحرى والقبلى ومحلات مطاعم الفول والطعمية التى تقدم الرغيف المصرى الذى يختلف عن الخماريد والكابد[2] ومحلات حلاقة الشعر وخردوات وبقالة وغير ذلك من المحلات التجارية وبها منشآت حكومية من مستشفى وحميات (معزل) ومركز شرطة ومحكمة ومخازن المواد التموينية ومحطة لرفع المياه ومقاهى، وتزدهر فيها حركة البيع والشراء وبخاصة عند رصيف الميناء النيلى مرسى البواخر (البوسطة والأكسبريس) القادمة من الشمال إلى الجنوب من الشلال إلى حلفا والعكس، يحدثونهم عن الطعام والشراب فى القسم الداخلى المجانى فلا خماريد ولا كابد ولا أتر ولا ويكة ولا عسل ولا عدس ولا عصيدة بيضاء نوبية مصرية ولا خضراء نوبية سودانية[3] ولا لبن

---

(1) نسبة إلى الملك فاروق وذلك لكسب امتيازات من القصر الملكى كما كانت تسمى إحدى المحافظات بالفؤادية.

(2) من المخبوزات النوبية بديل الرغيف المصرى الأول منها أرق وأقل سمكًا من الثانى ولكل استخدامه.

(3) تعد من أوراق الحلبة الخضراء وتضاف إليها الحليب والسمن البلدى.

رايب، ولكن رغيف مصرى شهى وقطع الزبدة والقشطة والمربى والحلاوة الطحينية والجبن الرومى والأصفر قوالب.

ويستمعون إلى شكرى حسنين الذى يلوى لسانه بكلمات انجليزية يجيدها نطقًا وكتابةً فيقول للصبية الصغار: (هاو.. آر.. يو؟ - وط إزيورنيم) ويترجمها لهم بالعربية: (كيف حالك؟ وما اسمك) وتبدو هذه الكلمات عند سماعها لأول مرة غريبة على مسامع نعمة وفاطمة ومحمود وأحمد سيف الدين وبكرى وجمال وبشير وغيرهم من الصبية فى مدرسة الشمندورة فى كتاب الشيخ حمدون. أما مصطفى أبا يزيد يعيد على مسامعهم ما حفظه من مدرس اللغة العربية ويردد أبيات من الألفية فيقول:

كلامنا لفظ مفيد اسم وحرف ثم فعل كاستقم.

فيعتقد الصبية أنها كلمات معقدة مقعرة فيشرحها لهم فتبدو سهلة بسيطة أما أش الله فإنه يشدهم إليه بحديث شيق طريف عن بريا الشمندورة أو قصر إبريم الذى بنى فى العصر الرومانى على مسافة ٢٣٥كم من خزان أسوان شرق عنيبة فقد أسعده الحظ أنه زارها فى رحلة مدرسية؛ فهى قلعة فوق صخرة عالية وفى المدخل عند الباب صخرة كبيرة وضعت مرتكزة على منتصفها متأرجحة مثل كفتى ميزان فإذا حاول شخص غريب أو معتدى الدخول إليها بمجرد أن تطأ قدمه تلك الصخرة المرتكزة فوق فوهة بئر عميق فينزل طرفها الذى وطأه وتغوص فى الماء وينزلق المار عليها فى الماء وتتقلب تلك الصخرة بحركة دائرية رأسًا على عقب وتعود على ما كانت عليه من قبل ولعل هذه الفكرة لحماية القصر من الغرباء المعتدين، وشهد هذا القصر عصر الأتراك والمماليك ومما يذكر أنه غرب عنيبة فى مواجهة نجع حبيب بوابة سرداب ضيق أو ممر يؤدى إلى هذا القصر {قصر إبريم}، ولكن لم يتجرأ أحد أن يتجاوز تلك البوابة فقد كان السرداب مظلمًا طويلاً مخيفًا للغاية

ولم يعرف أنه ممر وطريق {سرى وللطوارئ} إلا عند مجئ بعثة أجنبية قبيل الهجرة يحمل أحدهم خريطة ويسأل عن ذلك الممر ويكشف السر ويبين حقيقته ويعرف بـ{فجّ - فرنج} كلمة نوبية من مقطعين معناها طريق أو ممر حد السيف أى ضيق.

وقد كان أش الله مغرمًا بتاريخ النوبة والنوبيين وشغوفًا بتلك الآثار والمعابد ولذا انتهز الفرصة وحدثهم عن معالم أخرى غير بريا الشمندورة وقصر إبريم؛ فحدثهم عن معبد الدر الذى شيده رمسيس الثانى صورة مصغرة لمعبد رمسيس فى أبو سمبل ولكنه لم يكن فى جمال وعظمة أبو سمبل حيث حرم رمسيس مهندسيه المعماريين من الحصول على أصحاب المهارة الفنية للعمل بالأقاليم ويبدو أن خيرة وأفضل وأمهر مثالى العصر كانوا يعملون فى معبد أبو سمبل، بينما الرجال الذين كانوا ينحتون النقوش الملكية فى معبد الدر كانوا أشبه بنقاشى الأحجار.

ويستطرد أش الله ويقول إن هناك آثار ومعابد سمع عنها فى المنطقة الشمالية ولكنه لم يرها؛ فقد سمع عن معبد قرطاس فى دهميت على بعد ٤٥كم من خزان أسوان ومعبد {تافا} ، كما أن هناك معبد بيت الوالى فى كلابشة ومعبد دندور فى أبو هور على بعد ٧٨كم وهذه آثار رومانية.

وينصت إليه الجميع فى شوق وشغف واهتمام للتعرف على هذه الآثار والإلمام بكثير من المعلومات عنها استشعارًا بعظمة الأجداد والأولين.

ويسأل بكرى المتحدث أش الله عن حقيقة ما يروى عن الوزير الخصى ونشر المسيحية فيتنهد أش الله ويتنفس نفسًا عميقًا وكأنه غير راضى عن تلك الرواية فيقول إن ذلك الوزير لم يكن له تأثير فى نشر المسيحية فى بلاد النوبة، فقد كان ذلك حادثًا فرديًا فيعتدل بكرى ويقترب إلى حيث يجلس أش الله فى مقدمة الجلسة ويسأله عن دخول المسيحية التى استمرت سنوات وآثارها باقية فى

عادات وتقاليد النوبيين وخاصة فى شكل البيت النوبى، فعلى الباب شكل (الضبة) الكالون البلدى على شكل صليب وعلى عتبة الباب الرئيسى تلصق أطباق الخزف الصينى على شكل صليب، وفى يوم السبوع يرسم على جبهة المولود بالكحل شكل صليب وتغيرت إلى شكل ١١١.

ويروى أش الله القصة كاملة ويقول: إن ملك النوبة طلب من إمبراطور القسطنطينية أن يبعث له بمبشرين وكان الإمبراطور حريصًا على بسط نفوذه السياسى والدينى فى منطقة النوبة وسمعت زوجته (تيودورا) بذلك وهى مصرية الأصل فأمرت الكاهن حمل راية الإنجيل ورسالة التبشير إلى أرض النوبة قبل أن يصل مبعوث زوجها إلى النوبة واستقبل ملك النوبة الكاهن وتلقى تعاليم الإنجيل ونشر المسيحية بين أبناء النوبة.

ويسأل شكرى حسنين المتحدث أش الله: ومتى كان ذلك؟

فى حوالى سنة ٣٧٠م وظلت المسيحية حتى دخول الإسلام ويسأل عبده كندنونة بذكاء شديد لقد كانت النوبة وثنية قبل المسيحية تعبد إله مروى فما الدافع الذى جعل ملك النوبة يطلب مبشرين وكيف عرف المسيحية حتى يطلب مبشرين؟!! فهل هناك مقدمات وتمهيد للمسيحية فى النوبة ويعلق أش الله على هذا السؤال قائلاً: سؤال وجيه وإجابته تحتاج إلى وقت طويل لأسرد لكم القصة ونؤجل الحديث عنه إلى ليلة أخرى.

ولكن أش الله وجد اعتراضًا على التأجيل وارتفعت الأصوات وبخاصة الصغار قبل الكبار لقد شوقتنا يا أش الله وكلنا آذان صاغية.

ولم يجد أش الله بدًا من أن يكمل الحديث قائلاً:

كانت الاضطهادات الكبرى على يد (ماكسيمنيوس) دفعت

المئات للفرار من مصر إلى بلاد النوبة واللجوء إلى التلال والصحراء واتجهوا إلى حياة الزهد والتعبد والتأمل مما أثار حب الاستطلاع عند النوبيين وبخاصة لأدباء الصحراء ادب يخلب اللب مما حوى من وصف لحياتهم التى وهبوها للآثار وخدمة الآخرين وإنكار الذات والتأمل فى ملكوت الله ولهم كثير من الحكم منها (أن الخصام يؤدى إلى الغضب، والغضب يسلمه إلى عمى العقل وعمى العقل يدفعه إلى إتيان الأعمال الشريرة) وكانت هذه الحكم ثورة فى نظرة الإنسان إلى الحياة والعلاقات الإنسانية وكان أثر ذلك عظيمًا على الناس لدرجة أن روما اضطرت أن تعترف رسميًا بالعقيدة الجديدة واعتنقها أول إمبراطور مسيحى (قسطنطين الأكبر) بمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣م، كما أن أسلوب حياة وسلوك النساك الزاهدين فى صحراء النوبة هو الذى دفع ملك النوبة إلى طلب إرسال مبشرين.

وكان حديث أش الله يعد من الطرائف والنوادر التى تستهوى قلوب الصبية الصغار وتأسر عقول الكبار فيشدهم جميعًا إلى الاستماع إليه.

وبعد هذا الحديث الشيق تتحول الجلسة والسمر إلى الطرب والغناء والسهر ويستمعون إلى أصحاب الموهبة وذوى الإبداع والابتكار من المغنين وبخاصة إلى جمال باشرى الذى يتغنى على أنغام الطنبور والدفوف فى مساجلات ومنافسة طريفة فى الإبداع مع زملائه وأترابه وتتحمس كل مجموعة لمبدع ومغنى تشجعه وتستحسن معانيه، ويتغنى جمال بمواويل (أسمر اللونة) بأنواعها المختلفة والمتنوعة ما بين المقطعين إلى سبع مقاطع والتف الصبية بنين وبنات حول جمال فيتغنى بأسمر اللونة بذات المقاطع الصغيرة ليستوعبوا المعانى ويطربوا لها كما يعشقها الكبار ومنها:

لا إله إلا الله غالى يامحمد يا رسول الله

نتضرع إليك ونبتهل يا السيدة زينب بأن

تحرسى بعين الرعاية العروسين من كل سوء

ويرد عليه زميله بمقطع من نفس الوزن واللحن وعدد المقاطع حيث يدعو للعروسين بأن يبشرهم الله بمولود ذكر خلال شهر العسل:

لا إله إلا الله محمد يا رسول الله غالى يا محمد يا رسول الله

إن العروسين يقضيان الآن شهر العسل فيا إلهى

بشرهم وأكرمهم بمولود ذكر هبة من عندك

وينتقل جمال إلى معنى آخر فيصف مجموعة من الفتيات بأنهن جميعًا فى غاية الحسن والجمال شكلاً وقد تشابهت اسماؤهن كما تشابهت أشكالهن جمالاً فإذا نودى على إحداهن رد الجميع لتشابه الأسماء.

ثم ينتقل إلى الفتى النوبى فى نموذجين من الحب والعشق فالأول يموت شهيدًا فى عشق وحب محبوبته إذ يكتوى بنار غرامها الحارق والثانى قوى الإرادة لا تعجبه الفتاة مهما كانت جميلة ملائكية الجمال إذا كانت مغترة بجمالها؛ فالجمال عنده جمال الفتاه فى أخلاقها لا تتباهى أو تتيه بحسنها فلا يشغله الجمال ولا يلقى له بالاً فشتان بين الفتيين أو النموذجين.

وفى نهاية السهرة أو الليالى التالية قد تتحول الجلسات إلى ساحة للألعاب الشعبية على ضوء القمر أو فى الظلام الساحر الدامس.



الألعاب الشعبية

شهر رمضان المبارك أوشك على الانتهاء وكادت تلك الأيام السعيدة أن تنقضى فى خلال هذا الشهر يتناول الرجال والفتيان ترافقهم الصبية من البنين يتناولون الإفطار فى شهر رمضان أمام البيت ينتظرون أن يرتفع صوت المؤذن بالأذان (الله أكبر............ الله أكبر) لصلاة المغرب ومن هنا وهناك من كل بيت فى الحى أو النجع يسرع الفتية بأوانى (الكوب - تجر) أى ذى الغطاء المحكم وهى أوانى من الخذف الصينى لها قاعدة تثبت بها على الصينية وغطاء مقعر بمقبض، والغطاء يحكم غلق الإناء ولذا سمى بالنوبية (كوب – تجر) وحولها أكواب مملوءة بمشروب الإفطار الخاص وهو عبارة عن (الإبريج) ويسمى بالعربية {الجرجبيدة} ويعده النساء والفتيات قبل أن يهل شهر رمضان استعدادًا لشهر الصيام، ويعد من عجين الذرة المخمر لمدة عدة أيام لتكسبه مرارة مستساغة، وهى على هيئة رقائق خفيفة رقيقة جدًا ومن دقة هذه الرقائق أنها عندما تجفف تتكسر إلى قطع صغيرة وعند التجهيز والإعداد قبيل المغرب تفرك براحة اليد وتضاف إلى الماء البارد المحلى بالسكر فيأتى الصبية يحملون هذه الأوانى مقرونة بأطباق التمر أو الرطب من البلح حسب الموسم منقوعًا متشربًا الماء أو اللبن الحليب بينما ينتظر الرجال والشباب فى جماعات على قارعة الطريق عند رأس كل حى أو نجع لينالوا ثواب إفطار أى صائم يكون عابر سبيل وقت الأذان، كما تكون هذه التجمعات أمام كل مسجد من المساجد فى الشمندورة أو غيرها أو زاوية أو مصلاة.

وهكذا........ اجتمع محى الدين وعثمان باشرى والشيخ عبدالله والحاج صالحين وجمع من رجال الحى والنجع وجلسوا على الفراش المفروشة (البرش) كالعادة يستدعون حسن جربتى فى كل مساء ليتناول معهم طعام الإفطار.

وعندما يؤذن لصلاة المغرب يجلس الجميع يتناولون أكواب الأبرية؛ بسكون الباء وكسر الراء؛ وحبات التمر الرجال والفتيان كل على حدة والصبية يجلسون على مقربة منهم على حدة ويؤدى الجميع صلاة المغرب وترفع هذه الأوانى وتستبدل بأوانى أخرى عبارة عن أطباق غرف كبيرة من الفخار ذات عمق ومفلطحة وتسمى بالنوبية {الفالكه} بفتح اللام وتشديد الكاف" وبها أنواع مختلفة من الطعام مثل {الإتر - الملوخية - اللبن الرايب - اللبن الحليب - البامية - العدس شتاءً - تقلية البصل بالصلصة مع الكابد أو الخمريد مع تلك الأنواع من الأطعمة}

وبعد تناول هذه الوجبة تخرج صوانى الشاى الساخن فيحتسون الشاى ويدور بينهم الحوار والسمر إلى أن يحين وقت صلاة العشاء فيتجهون جميعًا إلى مسجد القرية ويجد الصغار بكرى وجمال وبشير وغيرهم المتعة فى الذهاب والإياب بتلك الأوانى بين المجلس والبيت وبعد صلاة العشاء والقيام جماعة بالمسجد يعودون إلى منازلهم لتناول وجبة العشاء بما لذ وطاب من المحمر والمشمر وما إلى ذلك من أنواع الطعام واللحوم من الحمراء والبيضاء.

ويتجه الفتيان والصبية إلى جلسات السمر والسهر حتى وقت متأخر من الليل ينتظرون المسحراتى يدق وينقر على الطبل {الدف} وينادى قائلاً يجوب ويطوف أنحاء الشمندورة يرفع صوته:

السحور......... السحور........ السحور يا مسلمين السحور

السحور....... السحور........ السحور يا صائمين السحور ويتغنى مادحًا الرسول ﷺ بأناشيد دينية، ثم يعود بالنداء بالسحور وهكذا.

تتحول جلسات السمر إلى ساحة للألعاب الشعبية على ضوء القمر أو النجوم الساطعة ومن هذه الألعاب للبنين الهندكية " وهى الحجلة بالعربية و(الشبر شبرين) والجسر كدية وتعنى بالعربية رمى العظمة والناف نافية وتعنى الاستغماية للبنين والبنات معًا من فريقين متساويين فى العدد ويحرس كل فريق رئيس الفريق حتى يصل إلى عرين الآخر ويعترض أعضاء كل فريق ذلك الرئيس ويفوز الفريق الذى استطاع أن يحمى رئيسه ويدافع عنه حتى يصل إلى عرين الآخر ومن لم يحجل بساق واحدة ويمشى على قدميه يخسر المباراة ويستبعد من الفريق.

أما محمود سيف الدين فكان دائمًا يحب أن يلعب لعبة الشبر شبرين لأنه كان يتصف بطول القامة والمهارة فى القفز عاليًا أو الوثب العالى لأن فى هذه اللعبة يجلس اثنان يبسطان أقدامهما للأمام من جهتين مختلفتين؛ حيث تلتقى قدميهما ويضعان القدمان فوق بعضهما وتشكل ارتفاعًا وعلى أعضاء الفريق الآخر الوثب عاليًا ليتخطى ارتفاع القدمين وإذا نجح يكون التصعيب للعبة بأن يضع الاثنان الجالسان على الأرض كفيهما فوق قدميهم فتزيد على الأولى ارتفاع الشبر ثم الشبرين وعلى أعضاء الفريق الآخر القفز عاليًا حتى يتخطى الارتفاع وهكذا..

وفى حالة الفشل يستبدل أعضاء الفريق بالفريق الجالس الذى يصبح واثبًا وهكذا.....

ولكن بكرى كان يحب أن يلعب (الجسر كدية) لصغر حجمه الذى يساعده فى المراوغة والسرعة، كما يمتاز بذكاء فى تحديد المكان الذى تسقط فيه العظمة فى جنح الظلام فيسرع إلى المكان دائمًا ويعثر على العظمة ويفوز بها ثم يسرع بها بين زملائه فيتبادل معهم، بينما أعضاء الفريق الآخر يحاولون انتزاعها منهم أو اعتراض مسيرتهم إلى العرين، وفى الغالب كان يصل بها فى مهارة

ودهاء ومراوغة وكانت العظمة دائمًا قطعة من الكتف أو الفك لحيوان نافق، فهى قطعة من رميم عظمة بالية..

أما نعمة وزنوبة تحلو لهما ألعاب الفتيات فتلعبان لعبة (الهلى) ومعناها بالعربية البلى وتختار قطع من الحجر الرملى وتجلى على قطعة كبيرة حتى تستدار مثل البلى، وأحيانًا يشاركون بقية الفتيات فى لعبة (التاب) وهى قطع دائرية فى حجم العملة المعدنية من قشر الليمون أو البرتقال أو اليوسفى طبقًا للموسم وترمى مثل الزهرة فى لعبة النرد أو الطاولة، وتشير بخطوة أو أكثر حسب السطح الأبيض أو الملون منها ويحرك شاخص من عود الخشب فى مربعات أو حفر على الأرض على شكل مربع تحتوى على خمس وعشرين نقطة ,وتتميز النقطة الوسطى بين الخمسة والعشرين بعلامة؛ فكل سطر يحتوى على خمس نقاط فى خمس سطور من النقطة رقم واحد إلى الخمسة وعشرين.

أما فردوس أخت خليل أفندى ورقية وسعدية الشيخ عبد الله وزهرة سعيد واللاتى هن أكبر سنًا من نعمة وزنوبة؛ لذا فهن مع صديقاتهن تلعبن (الكونكلية) وتعنى بالعربية بعر البعير وهذه اللعبة تحتاج إلى مهارة عقلية رياضية تجيد الحساب عن ظهر قلب فتجمع أعدادًا من بعر البعير تتكون من العدد سبع ومضاعفاته وتخطط على الرمال عدد من النقط فى خطين متوازنين تبدأ إما أربعة إلى خمس أو سبع أو تسع أو إحدى عشرة طبقًا لمهارة الفريقين، وتضع على كل حفرة سبع بعرات وتبدأ اللعبة بأن تحمل الفتاة البعرات من أية حفرة من الصف المقابل لها وتوزع على بقية الحفر تاركة واحدة مكانها فى الحفرة وتوزع فى كل حفرة واحدة إلى أن تنتهى البعرات، وإذا انتهت بعدد مجوز فى الحفرة الأخيرة تستحوز تلك البعرات فى حفرة لها ثم تبدأ الثانية وهكذا.. والفائزة هى من تستحوز على أكثر البعرات ذات العدد الزوجى.

وقد تتجمع الفتيات الصغيرات والأكبر سنًّا وتجمعهم لعبة (الدول دول) وتعتمد هذه اللعبة على قوة الملاحظة والحدس والحاسة السادسة، ويتكون الفريقان من إحدى هذه الفتيات الأكبر سنًّا وإحدى الصغيرات مثل زنوبة ونعمة وتخطط على الأرض حفرة صغيرة فى حجم قبضة اليد فى خمس صفوف كل صف يحتوى على خمس حفر على شكل لوحة الشطرنج، ثم تمر على هذه الحفر بأصابع يدها وتمسك باليد الأخرى إصبع السبابة للفتاة الصغيرة خلف ظهرها وتردد الدول.... الدول.... إلخ وترجمتها بالنوبية يا جامع الخرز الصوماد[1] اجمع وعلقها فى رقبتى ولا تعطيها لأبيك أو لأمك واعطها لى يا جامع اجمع...... إلخ وعندما تصل إلى حفرة معينة أثناء ترديد هذه العبارات تضغط على إصبع السبابة للفتاة الصغيرة وعلى الفريق الآخر أن يتعرف على هذه الحفرة التى عندها تم الضغط على السبابة وعند النجاح فى معرفتها تنتقل اللعبة إلى الفريق الآخر أما فى حالة الفشل تدور الفتاة بوجهها حتى تشير زميلتها إلى الحفرة المقصودة، ثم تعود الفتاة بوجهها لتعلن مشيرة إلى الحفرة أو النقطة التى تم الضغط على الإصبع عندها وتكون هى نفس النقطة التى أشارت إليها زميلتها فإذا تم الاتفاق على النقطة المقصودة يعيد الفريق اللعبة مرة ثانية أما عند الاختلاف وعدم معرفة الفتاة الصغيرة للنقطة المقصودة أو نجاح الفريق الآخر فى تحديدها من المرة الأولى تكون اللعبة لصالحه والدور عليه.

وزهرة سعيد ورقية من الفتيات اللاتى يجدن المراوغة والخدع وكانتا من المتميزات فى لعبة (التو نجريه) ومعناه بالنوبية هى الوضع فوق البطن يمد كل من الفريقين أقدامهم للأمام وفى هذه

---

(1) من الأنواع المميزة من الخرز ذات اللون الأزرق من الخزف الصينى وقد تعلق تميمة لمنع الحسد والعين.

اللعبة تجلس الفتيات فى قاطرتين متوازيتين فى خط البداية وعلى بعد ومسافة تحدد خط النهاية والفريق الفائز هو الذى يصل أولاً إلى هذا الخط ولكل فريق رئيس زهرة سعيد ورقية ترأس كل منهما فريقًا من الفريقين ودور قائدة الفريق أن تأخذ قطعة من القماش مميزة وتمر بها على قاطرتها من الفتيات وهن يضعن أكفهن على بطونهن وتدس القطعة القماش فى كفى إحدهن وعلى الفريق الآخر أن يبين الفتاة التى دست القطعة فى كفيها وإذا نجح الفريق عادت اللعبة إليهم وعند الفشل فعلى الفتاة التى تجلس فى آخر القطار أن تقفز من موضع أقدام أول القطار إلى مسافة وثب طويل ويتحرك القطار إليها ويقترب من خط النهاية وهكذا....

قد عرف عبده كندنونة بذكائه فهو يحفظ عددًا كبيرًا من الألفاظ والأحاجى ويتولى القيادة فى لعبة (شد واركب) لينشط عقولهم وفى هذه اللعبة يقف أمامهم، وقد يصطف الصبية على بعد أمامه ويلقى عليهم السؤال على صيغة اللغز مثل لعبة عروستى وتسمى بالنوبية (ارتن ارتونانة) بمعنى ما شيتى وأغنامى بدلاً من عروستى وتصدر الإجابات عن اللغز وعندما ينطق أحدهم الإجابة الصحيحة يقول بأعلى صوت (شد واركب) فعليه أن يمسك بأحدهما وعليه أن يحمله على ظهره حتى المكان الذى يقف عنده عبده كندنونة، ثم يعود إلى مكانه وهكذا؛ ولذا عندما يسمعون من عبده كندنونة كلمة (شد واركب) يجرى كل منهم وعلى من أجاب الإجابة الصحيحة أن يحاول الإمساك بأحدهم وهذه الألغاز من البيئة المحيطة والأشياء المعروفة لدى الصبية وكان عبده كندنونة يختاره من بيئة سهلة أحيانًا وصعبة أحيانًا أخرى، فكان يقول بالنوبية (ارتن ارتونانة) ما معناها ذيله يساويه عشر مرات فما هو؟ (الإبرة والخيط).

(ارتن ارتونانة) يُحلق له ذقنه وهو مستلق على ظهره؟ (جدول

المياه وتطهيره من الحشائش).

(ارتن ارتونانة) بالداخل وشنباته بالخارج؟ (النار والدخان).

(ارتن ارتونانة) كلما سار صنع طبقًا؟ (خف الجمل وأثره على الرمال).

(ارتن ارتونانة) كلما دفعته من أذنيه قام بمهمته؟ (المقص).

(ارتن ارتونانة) جدتى ماكثة فى الشمس لا تتحرك؟ (الوتد من الخشب أو الحديد).

وبعد هذه الألفاظ يميل بهم عبده كندنونة إلى مهارة أخرى وهى البراعة والمهارة فى تكرار عبارات تتشابه فى مخارج حروفها أو متقاربة؛ فيقول لهم من يستطيع أن يكرر (فرج فرنج لوج أفرنجى) أى فرج يتخطى بالسيف، ثم يطلب منهم تكرار عبارة (تيسج تنيسج تسين تسا توسو) ومعناها بالنوبية كرة منى أن أعطيت الخيط لأختة ودعا علىَّ بالسوء، أو عبارة (تلين تليلوج تليا تليا تولا تليا دكر تليويى) ومعناها بالعربية هو الذى ضم بعضها لبعض بالإبرة بشدة وجعلها متصلة موصولة، ومن أمهر الصبية لتكرار مثل هذه العبارات مرات عديدة دون غيره من زملائه بدون خطأ أو تهتهة بكرى باشرى.

أما محروسة باشرى فى آخر الليل تجمع حولها الصبية كما يجلس إليها أش الله ومصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين مجاملة أو مشاركة للصبية الصغار أو حبًّا فى معرفة ذلك التراث الخالد من الأساطير النوبية ذات الدلالات المختلفة للثقافة النوبية والأدب المسموع والأهداف والمآرب البعيدة المغزى من مجرد الحكاية والسرد فيتناولونها بالبحث والتحليل، وتحكى محروسة باشرى ونبرة أم بكرى باشرى حكاية (الأميرة والأركبى[1]) و(الأمن

---

(1) شخصية خرافية أسطورية مثل امنا الغوله.

دوجر[1]) و(تجارة الطفل اليتيم[2]).

الذى أبحر بمركب يحمل فيه الملح بينما حمل زملاؤه من التجار مختلف السلع والبضائع، وحكاية البطل المغوار الذى قهر جيش الملك، وحكاية الثعلب المكار والكلب الوفى ويستمع الصغار فى إنصات بعد أن أجهدتهم الألعاب ينصتون وكأن على رءوسهم الطير حتى يغلبهم النعاس ويناموا نومًا هادئًا حتى الصباح يحلمون بأحلام سعيدة.

هذه الألعاب تختلف عن الألعاب التى كانوا يلعبونها فى الصباح فى نور الشمس صيفًا وشتاءً، ومنها (أول نكه والكولى، وزِنّ حلاوة زِنّ، والسيجة، وكم كمن كديس، أى القطة الحائرة).

ومن ألعاب الفتيات (والا والا) ومن الألعاب المائية فى مياه النيل (الليلة واكيه) ويقف الجميع فى الماء وينادون بصوت عالى صيحة رجل واحد (الليلة واكيه) ثم يغوص الجميع ويغطسون فى الماء والسباحة تحت الماء ثم يرفعون رءوسهم فوق الماء ليروا أيهم قطع مسافة أطول غوصًا ثم يعودون الكرة مرة ثانية ومرات ومرات حتى يتبين أيهم أطول نفسًا ومهارة فى الغوص تحت الماء.

ومن الألعاب الموسمية (الألص) فى موسم صيانة السواقى وتغيير الحبال التى تشد بها القواديس بأخرى وتلقى حبال الموسم السابق وغالبًا تكون فى ليلة العاشوراء من كل عام فيأخذه الفتيان ويشعلون عليها النار ويصارعون بهذه الحبال المشتعلة، وهى لعبة فروسية وشجاعة وسرعان ما تنطفئ النار عندما يضربون بها بعضهم البعض وفى الغالب لا يصابون بأذى من النار إلا أنه قد

---

(1) تعنى بالنوبية ساكن البحر الشرير العصى وهى شخصية خرافية ويعتقدون أنها تشبه القرد أو النسناس.

(2) الطفل اليتيم لم يتيسر له حمل بضاعة غير الملح وانكب الناس عليه يقبلون على الملح تاركين بقية السلع لأنهم لم يتذوقوا طعم الملح الذى غير الطعم فى طعامهم وجعله مستساغًا فربح وربح أكثر من زملائه.

تحترق أجزاء متفرقة من ملابسهم وهم سعداء بهذه الإصابة..

وفى هذه الليلة ، فهى الليلة الأخيرة من شهر رمضان أو ليلة الشك ولذا اجتمع الكل حول مذياع الشيخ عبد الله ينتظرون الإعلان عن صباح الغد هل هو المتمم لشهر رمضان أم بداية شهر شوال وحلول العيد.

ويمر بالقرية بعد صلاة العشاء والقيام الخفير النظامى فقد أعلن نهاية شهر رمضان وظهور هلال شهر شوال وأعلن فى المذياع فلا يوجد مذياع إلا عند شيخ البلد أو العمدة {الإذاعة} ، ولكن يمر الخفير النظامى ليسمع الجميع من أهل الشمندورة حيث تبلغ مديرية الأمن مركز عنيبة ويتم التنبيه على العمد والمشايخ بإصدار تعليمات للخفير النظامى ليطوف أنحاء الشمندورة كما يطوف بغيرها من القرى النوبية ويعلن أن غداً أول أيام عيد الفطر، ويسمى بالنوبية {مديدن كوريه} أى عيد المديد (العصيدة) فيسرع الجميع كل يهنئ أخاه بالعيد المبارك.



فى العيدين

أُذِّن لصلاة الفجر وامتلأ المسجد عن آخره وأقبل الكل من أهل الشمندورة فى بهجة وسعادة يلبسون الجديد من الملابس فهذا اليوم هو يوم العيد عيد فى الأرض وعيد فى السماء. وخرج عثمان باشرى إلى منزل شقيقه محى الدين باشرى ليهنئه بالعيد السعيد متمنيًا له عيدًا مباركًا إن شاء الله فاستقبله بكل الترحاب وهو يدعو له بطول العمر، ثم رافقه محى الدين إلى منزل شقيقتهم محروسة فاستقبلتهما استقبالاً حارًا وتمنت لهما عامًا سعيدًا وهى تدعو لهما بمرور وعودة هذه الأيام المباركة من كل عام على آل باشرى والجميع بالخير والسعادة، ومن منزل محروسة باشرى توجها إلى مسجد القرية مع الجموع من أهل الشمندورة ويؤدون صلاة الفجر بالمسجد ثم يتجهون إلى الساحة والخلاء مكان أداء صلاة العيد، وتوجه المصلون إلى تلك الساحة يتوسطهم شيخ القرية وإمام المسجد يهللون ويكبرون:

الله أكبر......... الله أكبر...... الله أكبر............. لا إله إلا الله

الله أكبر...... الله أكبر............. ولله الحمد

ويجلس أهل الشمندورة فى الساحة فى صفوف متتالية وتصل مجموعات وجماعات إلى الساحة من مختلف الأحياء والنجوع لأداء صلاة العيد تردد وتهلل وتكبر فى أصوات ترتفع وتصل إلى عنان السماء وعلى جانب من المصلى فى تلك الساحة الصبية من البنين فى ملابسهم الجديدة فرحين مبتهجين وفى سعادة وسرور بالعيد

وعلى مقربة من تلك الساحة المقابر والمدافن يتوافد إليها النساء حاملين المخبوزات النوبية {القراقيش} والحلوى والترمس والفول السودانى وما إلى ذلك صدقة على أرواح من رحلوا من هذه الدنيا؛ فيفرح الصبية إذ يملأون جيوبهم من هذه الأنواع ويعودوا بها فرحين إلى ساحة الصلاة يلعبون ويمرحون هنا وهناك.

وبعد صلاة العيد والخطبة يلتقى كل أهل القرية يتبادلون التهنئة بالعيد ويقول كل منهم للآخر {كريج آنجانليه} والترجمة الحرفية تعيش وتشوف العيد، ويرد {اكون آنجانليه} والترجمة الحرفية وأنت تعيش وتشوف، بينما النساء تزيد قائلة ترى عيداً يليق بوجهك الجميل مع أهلك وأولادك وكل من يحبك، ومن ساحة الصلاة تتكون جماعات ومجموعات تطوف بالقرية من أولها إلى آخرها بكل أحيائها ونجوعها للتهنئة بالعيد السعيد، بينما الصبية يفضلون المرور على بيوت من تزوجوا حديثًا خلال العام فتستقبلهم العروس وتعطرهم بأجمل العطور النفاذة وتهدى إليهم أطيب أنواع الحلوى والبسكويت المخصوصة والمتميزة؛ فهى عروس جديدة وهذا هو أول عيد يمر عليها وهى فى مملكة بيتها السعيد فينشرح صدرها؛ فهى ملكة تلك المملكة عش الزوجية بينما يخرج زوجها مع أقرانه يهنئ بالعيد.

وتلك الجولة لهذه المجموعات من الرجال والصبية طوافًا بكل بيوت الشمندورة تتخللها فترة إستراحة اجبارية وهى فترة تناول وجبة الإفطار مجتمعين حيث يتوافدون إلى مضيفة القرية {الخيمة العمومية} عند الضحى؛ حيث تقدم كل أسرة أو كل بيت وجبة الإفطار وهى عبارة عن عصيدة وتسمى بالنوبية {المديد} يعلوها اللبن الحليب والسمن البلدى أو العسل أو أرز باللبن يعلوه اللبن الحليب والسمن البلدى أو العسل أو شعرية أيضًا باللبن والسمن البلدى أو العسل، متفائلين باللبن الحليب الأبيض الصافى أو بحلاوة

العسل لتكون أيامهم فى صفاء اللبن وحلاوة العسل. ويتناول الجميع هذه الوجبة بين المرح والسرور وقلوب منشرحة ومبتهجة ويقرأ شيخ وإمام المسجد الفاتحة مع الدعوات بأن يعيد الله هذا العيد وهذه الأيام المباركة فى العام القادم والأعوام القادمة بكل خير وسعادة وهناء ويردد الجميع خلفه تلك الدعوات {آمين....... آمين} وينفض الجمع المحتشد من المضيفة ويعود يستأنف جولة التهنئة بالعيد لأهل القرية وبخاصة العجزة والمسنين والمقعدين لينالوا رضاهم ويفوزوا بدعواتهم وليشاركوهم الفرحة بالعيد.

أما ثان يوم من أيام العيد تنتقل الأفواج للتهنئة من قرية لأخرى ولذا ففى اليوم الثانى من العيد فى كل قرية ضيوف من القرى المجاورة لها والتى لها صلة الرحم معها وتأكيدًا للمحبة والمودة لأن غالبية القرى النوبية ترتبط بعضها ببعض بصلة الرحم.

أما فى عيد الأضحى ويسمى بالنوبية (ارجن كوريه) أى عيد اللحم فهى نفس المراسم إلا أنه بعد صلاة العيد وتبادل التهانى بعيد الأضحى يتوجه أهل القرية كل إلى بيته ليقدم الأضحية وينتظرون إلى أن يضحى شيخ وإمام المسجد ثم شيخ البلد أو الناحية ثم يضحى بقية أهل الشمندورة.

وتكون وجبة الإفطار للأسرة مجتمعة من كبد الأضحية مع الكلاوى والحلويات {الأمعاء والرئتين وما إلى ذلك} ويتناولونه فى وجبة الإفطار مع من يحضر للتهنئة بالعيد ويجهز باستخدام الطاجن والتقليب المستمر حتى التسوية تمامًا ويقدم ساخنًا ويسمى بالنوبية {الكاشاد أو الكاشيد} وتعنى بالعربية اللحم المستوى بالتقليب المستمر.

أما وجبة الغداء تكون بمضيفة القرية كما كانت وجبة الإفطار فى عيد الفطر ويقدم كل بيت صينية طعام لوجبة الغداء لمضيفة القرية من اللحم والثريد؛ فيتناولون مجتمعين معا هذه

الوجبة وغالبًا يكون رأس الأضحية يعلو الصينية وتقدم إحداها إلى شيخ وإمام المسجد بركةً وتفاؤلاً واحترامًا وتقديرًا لمكانة شيخ وإمام المسجد ، فيقوم بتفتيت الرأس والفوز بالمخ فهو أطيب ما يؤكل فيأكل منه ويعطى من بجواره، وتكون هذه الوجبة فرصة للقاء جميع أهل القرية فى مرح وسرور وبهجة بعيد الأضحى بينما الصبية يفرحون بالطحال فيتسابقون لإلتقاطه من الأضحية عند السلخ للأضحية وتقطيع اللحم فمن يفوز به من الصبية يسرع به إلى النار ليأكله مشويًّا.

أما جلود الأضحية تجمع للصالح العام أو فى خدمة مضيفة القرية ويقوم أهل الشمندورة بتبادل الإهداء للحم الأضحية محبة ومودة، وقد تنتقل من قرية إلى أخرى وبخاصة بين الأهل والأقارب الذين يشتركون فى أكثر من قرية فيكون هذه الإهداء صلة للرحم بين أبناء العمومة والخؤولة فى القرى المختلفة أما بقية لحم الأضحية بعد إخراج حق الفقراء والمحتاجين يقوم أهل الشمندورة بحفظها ولهم طريقة خاصة فى الحفظ فتسوى باستخدام أوانى من الفخار (الطاجن) مختلفة الأحجام فمنها الصغير الذى يستخدم فى تقديم قرص البيض مقليًّا أما المتوسطة والكبيرة فتستخدم فى طهى اللحوم قديدًا فتظل مدة أطول تصل لأيام عديدة دون أن تتلف أو تفسد أو يصيبها العفن، ويسمى هذا النوع من اللحم المحفوظ بالتجفيف {اصلاد} وتعنى بالعربية اللحم المحمص وهذه الطريقة فى تسوية اللحم وحفظه مجففًا مأخوذة عن العرب فى العصر الجاهلى.



الكوبية النحاسية

خليل أفندى ينتظر بلهفة وشوق بالغ عودة سعدية بنت الشيخ عبدالله من مدرسة المعلمات بأسوان كثيرًا ما ألفت عيناه السهاد والسهر ويمر عليه الليل طويلاً يجر أذيال الظلام بطيئًا فى سكون صامت ساهرًا وحيدًا يأتنس بنجوم السماء أحيانًا بشريط الخيال أحيانًا أخرى حيث تتراءى أمامه رقية التى لم تنل حظها من التعليم كبقية بنات الشمندورة، تختلف عن سعدية شقيقتها المحظوظة باستكمال تعليمها فقد تحملت رقية مع والدتها مسئولية البيت وتربية الصغار حيث لا دافع عندها ولا طموح لاستكمال تعليمها ولا أمل لديها فليس أمامها النماذج التى تقتدى بها ووجدت المتعة فى القيام بشئون البيت بعيدًا عن الواجبات المدرسية والالتزام بمواعيد الجرس؛ فتخرج فى الصباح الباكر إلى طريق الموردة تتجه إلى النيل تحمل الكوبية النحاسية على رأسها مثل أترابها لكنها تتميز عنهن بمشيتها المتأنية لبساطة جسمها عن زميلاتها ويساعدها على ذلك الإيوال المتميز على رأسها فتستقر عليها الكوبية وكأنها شُدّت بحبل عا ى رأسها وتمشى فى دلال وخفة وتسرع الخطوة وتتقدم سرب الفتيات مطمئنة إلى مهارتها ودقة الإيوال العريض؛ أما ضفائر شعرها فتنساب من الإيوال العريض وتحت الطرحة الجورجيت السوداء وتكاد تتساقط على خصرها أسودًا كثيفًا تهتز يمينًا وشمالاً تتناسب مع حركة مشيتها ونسيم الصباح يعمل على تطاير خصلاتها وتتجاوب مع حركة قدميها اللتين تغوصان فى الرمال وتنتزعهما فى

سرعة وخفة كأصابع (السيه)[1] ويمر خليل أفندى بهذه المورَدة وهو فى طريقه إلى مدرسة الشمندورة كل صباح يقف يراقب كل ذلك من خلف شجرة السنط المتشابكة الأغصان على شاطئ النيل، وقد يقتربن منه متجهات إلى النيل ولكن لا يشعرن به ويخضن فى ماء النيل الذى يغمر الساقين وينحسر عنهما الجرجار وقد يتقاذفن قطرات الماء مرحًا ومزاحًا؛ فينثرن على وجوه بعضهن قطرات من الماء ويتنافسن أيهن تصل إلى العمق فكلما خاضت فى الماء إلى الداخل ملأت الكوبية بماء أكثر نقاءً وأصفى لونًا وقد تخاف البعض منهن أن تصاب بدوار البحر من تأثير هذه الأمواج المتحركة بين الساقين، وقد تستند إحداهما على الأخرى، وقد يثير الرعب فى نفوسهم الخوف من تمساح يغوص فى الأعماق وقد يصل إلى الشاطئ، وقد تكون هناك بعض الحشائش النيلية التى تعوق حركة القدمين عند الخوض فى مائه، وتعد رقية البارعة بينهن فهى الواثقة من نفسها تصل إلى العمق وتعود بكل ثقة وثبات ولكن ما السبيل لخليل ليعبر عمّا يكنه لها من حب وإعجاب.

فهل يستمر خليل أفندى على هذه الحالة من الوله والعشق؟!! فإن والدها الشيخ عبد الله رجل له وقاره واحترامه وهيبته ومنزلته وأحيانًا يفكر فى تقاليد الشمندورة والنوبة فخليل لا تربطه صلة رحم أو قرابة مع رقية ليتقدم لها ويطلب يدها!! وليست أمامه وسيلة إلا شقيقته فردوس فهى مقربة إلى رقية من بين أترابها اللاتى يرافقنها إلى النيل ذهابًا وإيابًا، فهى التى تستطيع أن تبلغها رسالته مباشرةً إلى رقية وإلى الشيخ عبد الله عن طريق سعدية هذه التى ينتظر عودتها.

وتشير عليه فردوس أن ينتظر لحين قدوم سعدية التى ينتظر

---

(1) طيور تشتهر بها النوبة تكون دائمًا على شط النيل وتتميز بمشيتها البطيئة مع اهتزاز جسمها.

عودتها من أسوان هذه الأيام وبعد أيام عادت سعدية إلى الشمندورة وتقدمت إليها فردوس وتعجلت لإلحاح خليل أفندى ورتبت للقاء سعدية وتنفرد بها بذكاء النساء وغريزة المرأة فالتقت فردوس بسعدية واقترحت عليها الخروج إلى ساقية آل باشرى التى زرعت بها اللوبيا والباميا وأنواع أخرى من الخضراوات وانتهزت فرصة اشتياق سعدية إلى البامية الويكة والإتر من ورق اللوبيا وفعلاً نجحت فى أن يسيل لعابها إلى تلك الأنواع من الطعام وأقنعت سعدية بفكرة الخروج إلى الساقية وفى الحقيقة تريد فردوس فرصة متاحة لتحمل إليها رسالة شقيقها خليل إلى رقية أو والد رقية وفى طريق الذهاب والعودة دار الحوار عن أسوان وما فيها من مظاهر المدنية وتحدثت سعدية عن آمالها وطموحها وأفصحت عن رغبتها فى العودة من مدرسة المعلمين بأسوان إلى الشمندورة معلمة؛ فمثلها الاعلى خليل أفندى وما يتمتع به من شخصية ومنزلة ومكانة بين أهل الشمندورة فانتهزت فردوس الفرصة ولم تدعها تمر وتنفلت منها فبلغتها برسالة خليل أفندى إلى رقية حينما ورد ذكر ومدح خليل أفندى على لسان سعدية واعربت لها عن رغبة خليل أفندى فى رقية زوجة له فانشرح صدر سعدية لتلك الرغبة ولكن عليها أن لا تفصح بذلك ولا تدلى برأى حتى يقر بها ويوافق على الرغبة الشيخ عبدالله وتلقى قبول لديه وليس لرقية رأى كغيرها من الفتيات فى الشمندورة والنوبة فلا رأى لهن ولا خيرة ولا اختيار اذا قضى الوالد أو ولى الأمر أمرًا فلا بد للفتاه الطاعة العمياء والرضا بما اراده الوالد أو ولى الامر زوجا وقرينا فى الحياه.

وفى أغلب الأحيان والحالات يكون الاختيار منذ مرحلة الصبا بأن فلان لفلانة أو فلانة لفلان من أبناء العمومة والخؤولة وقد يعلم كل من الفتى والفتاة بذلك أو لا يعلم.

طارت سعدية بالخبر السعيد كما تعتقد إلى والدتها لتتولى

مهمة إخبار الشيخ عبد الله فقد تخجل سعدية أو تستحى أو تمنعها هيبة والدها ولذا أسرَّت إلى والدتها لتقوم بهذه المهمة وفى جلسة المجلس العرفى الذى ينعقد بمندرة الشيخ عبد الله كل مساء بصفة دورية يستقبل فيها الشيخ عبد الله أعضاء المجلس من أعيان القرية وأصحاب الحل والعقد وإمام المسجد ويدعو إليها الشيخ عبد الله كل من يراه مناسبًا لحل قضية أو مشكلة معينة، وتصل قرارات هذا المجلس إلى درجة القانون الملزم لأهل الشمندورة وينفذ.

ومن المشاكل والقضايا التى تعرض فى هذا المجلس الاختلافات والنزاعات حول ماشية غشيت زرع أحدهم أو نزاع على نوبة رى أو حدود علامات بين قراريط جارين أو اختلافات بين اثنين من أهل القرية ودائمًا تنتهى بالتصافح والتسامح والحلول المرضية لجميع الأطراف فالحق أحق بأن يتبع ولا يترك ذلك ضغينة أو حاجة أو حقدًا فى النفوس فالنهاية دائمًا صافية وقد تكون هناك موضوعات تنتمى إلى ما يسمى بالأحوال الشخصية بين زوجين خلاف أسرى أو بين زوجتين لرجل واحد (ضرتين) ومن الأمثال النوبية فى هذا المجال حيث كان النزاع دائمًا بين الضرائر أكثر مما بين السلايف (مركب السلايف تعدى وتعبر ومركب الضراير تغرق).

وفى مثل هذه القضايا يستدعى الشيخ عبد الله كلاً من مأذون القرية وإمام القرية ليستعين بهما فى وضع الحلول المناسبة.

تدخل والدة رقية على الشيخ عبد الله بالشاى الساخن المزود بالحليب الطازج قبل افتتاح الجلسة وانشغال ذهنه بأية قضية وعرضت عليه طلب خليل أفندى ورغبته فى رقية زوجة له فسمع الشيخ عبد الله كل ما قالته بروية وتأنى ثم صمت ولم يعلق على ما سمعه وخاب ظن أم رقية، فقد كانت تتوقع أن يرحب الشيخ عبد الله بخليل أفندى!! ومن هو خليل أفندى أنه يحظى بمكانة عند الشيخ عبد الله وأحيانًا يشترك فى هيئة المجلس العرفى

لشخصيته القوية ومكانته عند أهل الشمندورة!! وبعد فترة الصمت يعتدل الشيخ عبد الله موجهًا كلامه لزوجته قائلاً ومحذرًا:

اكتمى هذا الخبر ولا يتعدى شفتيك حتى أفكر وأبت فى الأمر.

ولم يكن من والدة رقية إلا السمع والطاعة والامتثال لأمر الشيخ عبد الله والذى هو فى الحقيقة متمسك بعادات وتقاليد الشمندورة فالمصاهرة والتزاوج بين أبناء العمومة والخؤولة وعليه أن يرسل إلى ابن أخيه فى القاهرة حسب الله جاه الرسول حيث نزح إليها للبحث عن رزق فابن العم أولى.

ومرت الأيام بطيئة ثقيلة على خليل أفندى وهو يتعجل مرور الأيام ليتلقى الإجابة على طلبه، ويمر بالموردة وهو فى طريقه إلى المدرسة كالمعتاد مرات ومرات ويحاول أن يرى رقية كما كان يراها كل صباح ولكن دون جدوى فقد اختفت رقية من بين سرب الفتيات.

اختفت رقية من بين سرب الفتيات لأن من عادات أهل الشمندورة أن تختفى الفتاة عن من تقدم إليها وبناء على تعليمات والديها فقد اختفت رقية وربما انتاب رقية شعور بالخجل والاستحياء فقد سمعت من سعدية كل ما دار من حوار بينها وبين فردوس وبين والديها؛ فسعدية هى التى تقوم بمهمة ملء الكوبية من ماء النيل بالموردة بين سرب الفتيات ويصل المكتوب إلى حسب الله جاه الرسول الذى نزل ضيفاً على سيف الدين باشرى بعد أن تعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب فى كتاب القرية وسافر إلى القاهرة يبحث عن فرصة عمل بها واتيحت له فرصة عمل فى ورشة من ورش ميكانيكا السيارات بمعرفة سيف الدين وتعهد صاحبها بأن يعلمه أسرار المهنة ومهاراتها ولكنه لم يمكث بالورشة سوى أيام لأنه وجد صعوبة فى أن يرتدى ملابس نظيفة يطوف بها فى المدينة فهذه المهنة لا تمكنه من ذلك حيث لا بد من ارتداء (الأوفرول) المصاحب برائحة البنزين والشحوم وزيوت

السيارات ويعود فى نهاية اليوم يبحث عن طعام ومكان للمبيت أو يتوجه لمنزل سيف الدين حتى أن كف اليدين تحول لونهما إلى لون أسود مثل ظهر اليد فالباطن والظاهر كلاهما سواء نتيجة لممارسة تلك المهنة ومما أثر فيه وكان سببًا مباشرًا فى تركه العمل بالورشة هو تعليق أحد زملائه بقوله:

إن ملابس (أوفرول) حسب الله جاه الرسول إذا عصرت فأن ما بها من زيوت وشحوم تكفى لتسيير الأكسبريس من الشلال إلى حلفا.

لذا فضل أن يترك الورشة ويبحث مثله مثل غيره من أبناء الشمندورة عن عمل يكفل له المأوى والمأكل والإعاشة والإقامة ولا يتوفر ذلك إلا فى خدمة أكابر القوم والخواجات فى القصور والفيلل وبذلك لا يكون ضيفاً ثقيلاً ملازمًا لبيت سيف الدين باشرى.

واستطاع أن يشق طريقه فى القاهرة ويلتحق بالعمل فى خدمة أحد البشوات وعليّة القوم واستطاع أن يجمع جنيهات معدودة لأخوته ووالدته ليسد عنهم ما سجل فى دفتر ديون وسجلات حساب متجر الحاج صالحين فلما أرسل إليه الشيخ عبد الله المكتوب أبدى رغبته فى الزواج من رقية فهى ابنة عمه وابنة شيخ البلد أو الناحية: جمال وحسب ونسب فلماذا يرفض؟!!

وبلغ الشيخ عبد الله زوجته أم رقية بقراره بأن رقية لابن عمها لتبلغ سعدية التى تقوم بدورها بتبليغ فردوس وتعتذر لها عن عدم قبول طلب خليل أفندى كما زفت سعدية البشرى الخير لرقية حيث يطلبها ابن عمها حسب الله جاه الرسول وتمنيها الأمانى لتسكن القاهرة الباهرة وترحل عن الشمندورة وتتخلص من الكوبية النحاسية وتستبدله بحنفية على حوض المطبخ وتنعم بترف العيش، كما يمكن أن تظل بالشمندورة ويفد إليها حسب الله مع الأكتوبريين وتستقبله مع أهل الشمندورة وتوزع الهدايا التى يحملها من الموسكى والحسين وتتقبل التهانى من أهل الحى والنجع بالشمندورة.

رقية لا رأى لها ولا خيرة وليس لها إلا الطاعة والتنفيذ لما اختاره الشيخ عبد الله وليس من حقها أن تقارن بين خليل أفندى المعلم بمدرسة الشمندورة والذى يشار إليه بالبنان وبين حسب الله جاه الرسول النازح إلى القاهرة يعمل فى خدمة البكوات والبشوات.



برقية مفتوحة

كان الله فى عون خليل أفندى أحب رقية حبًا صادقًا وتعلق بخيط واهن من الأمل والعشق فأذهب عقله ولم يفطن إلى تلك العادات والتقاليد التى تحكم الشمندورة وغيرها من قرى النوبة وأصيب بصدمة عاطفية حينما بلغه الخبر بأن رقية لابن عمها حسب الله جاه الرسول أغلق الباب على نفسه فالعرف السائد بمثابة القانون وعم الخبر الشمندورة وبخاصة من لهم صلة قرابة بالأسرتين حيث عرض عليه أن يتخذ من أخريات بديلاً عن رقية ولكن القلب وما عشق.

وبعد أيام أخذ خليل أفندى قراره أن يهجر القرية وما فيها ويرحل بعيدًا عن تلك العادات والتقاليد التى حرمته من رقية وأعد العدة وتوجه إلى ميناء عنيبة مع صديق عمره وزميله بمدرسة الشمندورة عوض الله ليستقل الباخرة إلى الشلال وأوصى شقيقته فردوس خيرًا بأمه دون أن يصرح لها بما عزم عليه ولا أحد يعلم إلى أين يتجه خليل وقد يكون خليل نفسه لا يعلم وجهته فالصدمة قد شلت تفكيره.

غادر خليل أفندى الشمندورة وترك الجمل بما حمل لتستيقظ الشمندورة صباح يوم وتفتقد خليل أفندى وأشارت أصابع الاتهام إلى عوض الله الذى شوهد معه فى طريقه إلى ميناء عنيبة، ولكن عوض الله برئ براءة الذئب من دم ابن يعقوب فهو لا يعلم عن خليل سوى وجهته إلى الميناء وصعوده الباخرة فلم يصرح له خليل بشئ وربما لم يكن قد رسم خطته بالكامل ليخبره وربما أسر ذلك لنفسه فقط.

غادر خليل أفندى وأهل الشمندورة كل منهم يتخيل وجهته كما يرى ولا أحد يعلم الحقيقة وما هى إلا توقعات وظنون إلى أن وصلت برقية تقطع الشك باليقين تصل البرقية من خليل أفندى إلى

والده لا تحمل مضمونًا سوى الاطمئنان عليه وكل ما فى البرقية (وصلت أسوان وسأغادرها).

وهنا اطمأن والد خليل ووالدته وشقيقته وأهل الشمندورة على سلامة خليل أفندى ولكن بدأت التساؤلات: سيغادر أسوان إلى أين؟...ومتى؟... ولماذا؟!!

تساؤلات لا إجابة لها على وجه الحقيقة والتأكيد فوالدة خليل أفندى وشقيقته لم تغادر الدموع عينيهما ويئن قلبهما ويتمزق فراقًا عليه أما والده فيصبر نفسه ويتجالد قائلاً لكل من يسأله عن خليل: سيغادر أسوان إلى القاهرة ليعود بزوجة شقراء ذات عيون زرقاء وبشرة بيضاء من القاهريات بنات بحرى ولعل والد خليل يريد أن تصل هذه الكلمات إلى سمع الشيخ عبد الله لأمر ما ولشئ فى صدره.

وأما تلاميذ مدرسة الشمندورة يسألون عن خليل أفندى متشوقين إليه مع أنه كان قاسيًا عليهم بعصاته الغليظة التى تلازمه ولا تكاد تفارقه ولكنه كان يقسو ليزدجر وبخاصة بكرى الذى كان كثيرًا ما يذوق الويل من عصاته الغليظة كلما تأخر عن طابور الصباح أو اشتكى منه عثمان باشرى فيتوجه بكرى كل صباح إلى مكتب ناظر المدرسة يسأله عن خليل أفندى أما محمد وأحمد ونعمة أولاد سيف الدين باشرى يتلفتون فى فناء المدرسة يبحثون عن خليل أفندى وينتظرونه كل صباح ليصحبهم إلى المدرسة كما عودهم حتى تنادى عليهم والدتهم عائشة خير الله وتؤكد لهم أن خليل أفندى لن يمر اليوم وتعلق به هؤلاء الصبية لأنه كان يهتم بهم ويحبهم لذكائهم المتميز ومستواهم الطيب فى التحصيل الدراسى علاوة على سلوكهم الحميد البعيد عن الشغب ولذا كثيرًا ما كانت الخطابات متبادلة بينه وبين سيف الدين بالقاهرة يطمئن منه على أولاده وفى جو تسوده المحبة والاحترام والتقدير يهدى إليه من الهدايا القاهرية عند حضوره إلى الشمندورة

مع الأكتوبريين فى كل عام.

أما بقية أهل الشمندورة فهم منقسمون بين مؤيد ومعارض لتصرف خليل أفندى وهجرته ورحيله من الشمندورة وتناقلت الألسن حكايته فأحيانًا ينتابهم شعور بالأمل فى أنه سيعود ولا محال بعد أن يهدأ نفسيًا ، ولكن البعض يؤكد أنه لن يعود ولن تطأ قدماه أرض الشمندورة التى صدمته فى حبه ومشاعره فهذا أفضل من أن يصاب بهلوسة مثل ما حدث (لعمر درويش[1]).

وطار الخبر إلى القاهرة والإسكندرية ولكن لم يعثر عليه فى تلك المدينتين وتمر أيام وأهل الشمندورة يتحسسون الخبر عن خليل ويترقبونه ولكن كما يقال: لا حس ولا خبر عنه.

ربما تكون وجهة خليل أفندى إلى مدينة أخرى غير القاهرة والإسكندرية فأرض الله واسعة ومصر ممتدة شمالاً وجنوبًا فهذا حسن جورباتيه لا أحد يعلم عنه شيئًا فإنه يعيش منذ سنوات وسنوات بين أهل الشمندورة ولم ولن يعدم رزقًا فالله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولكن هناك فرق بين خليل أفندى الشاب المتعلم الذى يحمل مؤهلاً علميًا يعتمد عليه فى غربته وبين حسن جوربتى الذى يعتمد على عضلاته وقوة جسمه وقاربه الصغير ومعونة الآخرين وعلى عطايا ومنح أهل الشمندورة من كرم وسخاء علاوة على أن حسن جوربتى جاء إلى الشمندورة طريدًا هاربًا من الثأر وفارًا من تتبع خصومه له والسبب المباشر لرحيل خليل أفندى هو الشيخ عبدالله الذى وجد نفسه بين المطرقة والسندان، بين العرف السائد من العادات والتقاليد وبين خليل أفندى الشاب الوجيه المرموق ولم يهدأ

---

(1) كان شابًا وجيهًا بقرية مجاورة للشمندورة وأحب سكينة جاشديه (أى الدلوعة المدللة) بالنوبية وذلك لجمالها الفاتن الساحر فقد أحبها عمر حبًا من طرف واحد ولما تزوجها ابن خالتها جن جنونه ومن ليلة زفافها هام على وجهه وتحول من حالة الوجاهة إلى ثياب رثة يكلم نفسه وفقد صوابه.

للشيخ بال منذ رحيل وغياب خليل أفندى لأنه لم يكن يتوقع أن يصل الأمر بخليل أفندى إلى هذا الحد، ولذا رجع إلى نفسه يفكر ويفكر ويفكر فيما حدث من خليل أفندى، فأرسل فى طلب والد خليل أفندى، وكان اللقاء بينهما ودار الحوار التالى وهما يحتسيان الشاى الساخن بالحليب الطازج فى جلسة مغلقة بينهما:

- لعل هناك أخبارًا مطمئنة عن خليل أفندى؟

- خليل أفندى رحل إلى القاهرة ليعود بشقراء ذات عيون زرقاء وبشرة بيضاء من بنات بحرى.

(وهنا شعر الشيخ عبد الله بضيق صدر والد خليل وما يكنه من غضب فأراد أن يخفف الوطء).

- خليل أفندى من خيرة الشباب ولن يعدم حسناء وألف من تتمناه.

- لكن يا شيخ عبد الله تعلم ما حدث فَلَمْ تتمناه لرقية!!

- العادات والتقاليد وأنا شيخ البلد أحق بأن أتمسك بها.

- لكنها عادات وتقاليد اطاحت بخليل وما يتمناه.

- ما زالت لى بنات غير رقية سعدية وشقيقتها الصغرى فالتخلى عن العادات والتقاليد يغضب أبناء العمومة إذا ذهبت برقية بعيدًا عنهم فيعزفون عن شقيقتيها.

- الزواج نصيب يا شيخ عبد الله.

- نعم الزواج نصيب ولكن هل ألح على أبناء العمومة ليؤمنوا بذلك.

- لقد دفع خليل الثمن غاليا ورحل عن الشمندورة.

- فما رأيك فى مرجان دهب؟

- شاب مكافح وعلى خلق وذو مروءة يحب أهل الشمندورة ويحبونه.

- وإذا تقدم للزواج من فردوس فهل أنت توافق؟

(فقام والد خليل واقفًا ورفع صوته مستنكرًا).

- لا يا شيخ عبد الله..... لا ..... ثم لا.

فانتهز الشيخ عبد الله ولا بد أن يصطاد فقد تهيأت الفرصة سانحة مواتية.

- لماذا؟..... لماذا هذا الإصرار..... الزواج نصيب!!

- لأن أقطع فردوس قطعًا وألقى بها فى طريق الموردة

ولا أزوجها لمرجان دهب...... مرجان دهب إنه...........

فيقاطعه الشيخ عبد الله وقد نال ما أراده من طول الحوار.

- هذه هى عادات وتقاليد الشمندورة التى رحل عنها خليل أفندى

(وهنا توقف الحديث فقد طرقت سعدية على الباب وكأنها على موعد تدعوه إلى طعام العشاء وتضع الطعام أمامهما وتتصرف.

ويدعو الشيخ عبد الله والد خليل إلى الطعام: خمريد مسقى باللبن الحليب يعلوه السمن البلدى وتفوح منه رائحة ذكية تفتح الشهية وتتصاعد منه الدخان.

ولعل ذلك الطعام باللبن الحليب تفاؤلاً بالخير ودلالة على الصفاء فما زال حبل الود موصول بينهما وانتهت الجلسة المغلقة نهاية سعيدة وقد التمس والد خليل العذر للشيخ عبد الله مقدرًا لموقفه وقوة العادات والتقاليد وسمع بهذه الجلسة من سمع من أهل الشمندورة وتناقلتها الألسن بإكبار وإجلال للمحبة والمودة والصفاء وتقديرًا للعلاقة الطيبة بين الرجلين الشيخ عبد الله ووالد خليل أفندى، فلم ولن تفسد هذه العلاقة أو تشوبها شائبة وبذلك قطعت ألسنة المرددين للأقاويل الصحيحة وغير الصحيحة عن خليل ووالد خليل والشيخ عبد الله.

وتمنى الشيخ عبد الله بسلامة العودة لخليل أفندى..

العرافة

عائشة خير الله لا تمل من سؤال أولادها محمود وأحمد ونعمة عن خليل أفندى كما أن الأولاد ينتظرون صباح كل يوم وهى تسأل الأولاد حين عودتهم من المدرسة تسألهم على أمل أن تسمع عودة خليل أفندى الذى كان يمر كل صباح ينادى على كل باسمه ويحثهم إلى السرعة والمبادرة لحضور طابور الصباح هيا.... هيا..... انشطوا إياكم والكسل ويصحبهم إلى المدرسة يداعبهم مازحًا فى جوٍ من المرح والسرور ولعلة بذلك يكون وفيا لسيف الدين الذى يراسله ولا ينساه عند زيارته للشمندورة فى كل عام.

أما الشيخ حمدون إمام المسجد فقد افتقد خليل أفندى الذى كان ينوب عنه فى إمامة المصلين بالمسجد إذا تغيب لظروف ما كما أنه يساعده على تحقيق الانضباط وانتظام التلاميذ فى كتاب القرية؛ فمن تغيب اليوم عن الكتاب يحاسبه خليل أفندى فى المدرسة اليوم التالى فهو المتابع والمحفز لهم ويذهب الشيخ حمدون فى زيارة لوالد خليل يتلمس الأخبار عن خليل فيطلب منه والد خليل أن يدعو لخليل أفندى بسلامة العودة، ويقرأ السبع آيات المنجيات لتحرس خليل أفندى فى غربته.

وتمر بالقرية امرأة من النساء اللاتى يفدن إلى الشمندورة ويسألن فى الطرقات والنجوع ويجمعن الصدقات بطريقة أو بأخرى، فمنهن من تطرق على الأبواب تسأل ومنهن من تدعى معرفة الغيب وتضرب الودع مستغلة سذاجة نساء الشمندورة وكان هذا غالبًا يتبع موسم

الحصاد وجنى المحصول والتمر ويحملن ويجمعن على الدواب من حبوب وبقول وتمر وأقماع السكر التى يجود بها عليهن أهل الشمندورة ويطلق عليهن اسم (الحلب) ويمشى خلفهن الصبية يرددون ما معناه بالعربية (أيتها الحلبية التى تأخذين من كل بيت مقدار قدح من الحبوب شحاذة مرى بالطرقات واطرقى الأبواب) ويرددونها ملحنة على أنغام دقات المزهر (الدف) فالحلب يدقون على كل باب ومن خلفهم الصبية وقد يسيرون خلفهن مسافات ومسافات من نجع إلى نجع كنوع من أنواع الترفيه والتسلية.

وتلتقى إحدى هذه النساء بوالدة خليل أفندى المجروحة بغياب ابنها فتطرق على بأبها ففتحت لها الباب وأحسنت لها العطاء وأكرمتها وأجلستها تحدثها عما يثقل صدرها من أسى وحزن لرحيل خليل أفندى وتقص عليها القصة كاملة ولعلها تخفف من آلامها وتنفس عما بداخلها من الكبت فتسمع المرأة القصة وأرادت أن تزيدها أم خليل العطاء فجلست توشوش الودع وتحدث أم خليل أفندى بما تحب أن تسمعه ويوافق هواها وتؤكد لها عودة خليل أفندى غانماً سالمًا يتأبط زوجة شقراء يسيل شعرها على كتفيها حتى خصرها وتلوى بلسان عربى تكيد رقية وأمثالها من بنات الشمندورة بجمالها ودلالها ، ولعل هذه التنبؤات تتوافق مع رغبة والدة خليل أفندى وآمالها وتسرح والدة خليل أفندى فى واد الخيال وترى خليل أفندى يرفل فى أثواب السعادة والسرور ينعم بحياة ناعمة فى جوار زوجته الشقراء.

وبينما هما كذلك يصل والد خليل أفندى فى صحبة الشيخ حمدون إمام المسجد فيسألان عن سبب تواجد تلك المرأة من الحلب وما تقوله وتدعى فتخبرهم أنها تقول كذا..... وكذا.....

وتظن والدة خليل أن هذه التنبؤات ستسعد والد خليل والشيخ حمدون ولكن سرعان ما يثور الشيخ حمدون وينهر العرافة نهرًا

شديدًا ويعنفها ويؤكد أنها لا تعلم الغيب وإنما الله وحده هو علام الغيوب، ويتدخل والد خليل أفندى فى الحوار ويأمر العرافة بالانصراف فورًا من البيت والنجع بل من القرية بأكملها مكتفية بما نالته من عطاء وهبة من والدة خليل ويتوعدها مهددًا بأنه إذا تكرر ذلك منها مرة أخرى فى أنحاء الشمندورة يتوعدها بتسليمها إلى حضرة العمدة ليتخذ معها الإجراء اللازم ويؤكد عليها الشيخ حمدون بأنه عليها أن تسأل فقط دون النصب والاحتيال بعلم الغيب فيعطيها من يعطيها ويمنعها من يمنعها دون أن تتكسب بالادعاء بعلم الغيب إفتراءً وكذبًا، ويردد والد خليل أفندى: كذب المنجمون ولو صدقوا..

ولعله بذلك عنده الأمل فى عودة خليل أفندى يتأبط زوجة شقراء من بنات بحرى.



غاب القط فلعب الفأر

غـاب خليـل أفنـدى ولعـب بكـرى ومـارس أفعالـه الصـبيانية وأفكاره الشيطانية ففى طريق العودة مـن مدرسـة الشـمندورة يجـد بكـرى دائمًا المتعة، حيث يسـتدرج مجموعـة من زملائـه مثـل جمـال وبشـير وأمـا عبـده كندنونـة فأحيانًـا يجاريه وأحيانًـا آخـرى يـرفض ويعترض خشية العقاب واليوم فلا خوف من خليل أفندى.

فيعـرج بهـم بكـرى علـى طريق الشـاطئ ويميـل بهـم إلى الـبحيرات المتكونـة علـى الجـروف مـن الألسـنة المتغولـة إلى الرمـال فيمارسـون هواياتهم المحببة صيد الأسماك والإمسـاك بها بالأيدى المجـردة أو بـأن يحفـروا جـدولاً مـن نهايـة هـذه الألسـنة إلى مسـافة فـى الرمـال تنتهـى بحفرة عميقة نوعًا ما فينحدر إليها الماء وتمتلئ الحفـرة بالماء مكونـة بحيرة صغيرة وبعد فترة تتشـرب التربـة الرمليـة المـاء فتغيض وتتنـاقص فـإذا بقعرهـا أسمـاك تتقلـب وتهتـز فيجهـزون عليهـا ويمسـكون بهـا ويجمعونها لتكون وجبة شهية أو صيدًا سمينًا يتقاسمونـه ويعـودون بـه إلى منـازلهم فرحين بهذا النـجاح فى صيد السمك.

وأحيانًا تستهويهم فكـرة ركـوب البحـر فيبحثون عـن جذع شـجرة أو نخلـة علـى الشـاطئ ويسـيرون مسـافات حتـى يعثـروا علـى ضـالتهم ويقـودهم بكـرى إلى مكـان تخـزين تلـك الجـذوع فهـو يعلـم أن أهـل الشـمندورة قـد قطعوهـا مـن نخيـل لا تثمـر أو شـجر قـد جـف وزالـت أغصـانه لتسـتخدم فـى اسـتخدامات متعـددة فـى الأسـقف وإعـداد الخيمة أو غير ذلك فيقـودهم إلى تلك الجذوع ويأخذون منهـا جذوعا

ويدحرجونها إلى الشاطئ حتى داخل النيل وتطفو على السطح فى اتجاه التيار فيحثهم على سرعة الامتطاء فوقها ويقفزون عليها وكأنهم يركبون دوابًا تتدلى أرجلهم على الجانبين ويمسكون بفرع شجرة غليظة كمجدافين أو يجعلون من أرجلهم مجدافين ويتحركون بها داخل النيل فى اتجاه التيار وكثيرًا ما ينقلب بهم الجذع فيقعون فى النيل فتبتل ملابسهم بالماء فيقضون فترة على الشاطئ بين المرح والمزاح حتى تجف ملابسهم وهكذا مارس بكرى وأترابه هوايتهم فليس هناك خوف من خليل أفندى ليمر عليهم فى الحجرات الدراسية صباح اليوم التالى ليتفحص الوجوه وينادى: بكرى.... بكرى.

وفى إحدى هذه المرات وفى طريق العودة أيضًا كالعادة استخدم بكرى شخصيته القوية وقوة إقناعه فى أن يستدرج تلك المجموعة من زملائه إلى طريق الشاطئ وكان ذلك مع سبق الإصرار فيشير عليهم بقضاء وقت ممتع تحت شجرة السنط وقد صنعوا أرجوحة بسيطة من جذعين الأول مثبت على الأرض رأسيًا والثانى يتأرجح عليه أفقيًّا وأغراهم بأرجوحة أخرى من نوع آخر صنعها على فرع من فروع شجرة السنط بحبل يتدلى عليه فقد كان يحمل فى {حقيبته[1]} حبلاً يخفيه بين الكتب وما أدراك ما هذا الحبل إنه حبل العجل الصغير العصى الفطيم وقد فتله عثمان باشرى والد بكرى خصيصًا للعجل الصغير فقد اشتد فى فتله وطعمه بشريط من القماش ليقلل من تأثير خشونة الليف على العجل ولاحظ فيها بكرى تلك المميزات والخصائص فانتقاها من بين بقية الحبال وجعلها فى حقيبته، فهو إصرار مسبق لفكرة الأرجوحة فربط الحبل على فرع من فروع شجرة السنط وظلت تلك الشلة يتناوبون

---

(1) الحقيبة مصنوعة من قماش على شكل مستطيل أو مربع ذات يدين للإمساك بها وغالبًا تكون من بقية جلباب أو قميص بالى.

على الأرجوحة فى متعة بالغة غير مبالين بعثمان باشرى الذى يبحث عن الحبل فى كل مكان يتوقعه لحاجته إليه ولكن دون جدوى.

فيضطر إلى استخدام حبلٍ آخر بدلاً من الحبل المقصود لذاته، وبعد أن فقد الأمل فى العثور على بغيته بينما بكرى وزملائه فرحين بالأرجوحة على فرع شجرة السنط ولما جاء دور بكرى ليركب الأرجوحة ويلعب بها أطاح بنفسه فى الهواء عاليًا ليتأرجح يمينًا وشمالاً بقوة واندفاع شديد فقد انكسر الفرع وسقط بكرى على الأرض يصرخ متألمًا يشكو ويتوجع من آلام فى ساقه التى وقع عليها وبهذه المأساة تنتهى لعبة الأرجوحة ويجمع بكرى الحبل فى حقيبته كما كانت بين الكتب ويعودوا إلى منازلهم، وقد اتجه كل منهم إلى بيته تاركين بكرى يمشى على مهله يتوجع من شدة الألم بساقه ويعود بكرى متأخرًا مما جعل عثمان باشرى يشك فى وجود الحبل معه فقد تكرر منه ذلك مرارًا؛ ولذا عندما عاد بكرى تلقاه عثمان باشرى يعاتبه ويسأله عن سبب تأخيره ولم ينتظر حتى يجيب بكرى بل جذب منه الحقيبة وفتحها يبحث عن الحبل فوجد ضالته بين الكتب، وربما تكون شقيقته زنوبة قد وشت به كعادتها وبخاصة فقد رفضت العودة مع بكرى على طريق الشاطئ فهى وزميلاتها نعمة وفاطمة شقيقة عبده كندنونة تركوا البنين لطريق الشاطئ وسارت زنوبة وأترابها على طريق النجع ورفضن فكرة الأرجوحة على شجرة السنط وكالعادة فى كل مرة يعاقب فيها عثمان باشرى تتدخل نبرة بعاطفة الأمومة التى تدلل الابن وتتوسل إلى عثمان باشرى بألا يعاقبه ويسامحه وبخاصة فى هذه المرة فقد لاحظت بكرى يزك على قدمه فقد وقع وأصيب بأذى فى ساقه فقالت نبرة: اتركه يا عثمان تكفيه إصابته ولعل ذلك يكون درسًا لا ينساه حتى لا يكرر ما حدث منه ولكن هيهات..... هيهات لبكرى الشقى أن يقلع عن أفعاله الصبيانية

وأفكاره الشيطانية....

ويتذكر عثمان باشرى خليل أفندى ويترحم على أيامه التى ولت؛ فقد كان يكفيه عقاب بكرى بعيدًا عن توسلات زوجته نبرة إذا اشتكى إليه أو أشار إليه إشارة كأن يقوم باللازم حفظك الله يا خليل أفندى وكتب لك سلامة العودة بخير... من يحل مكانه؟ فقد كان يهابه الجميع... إذا سلك طريقًا سلك التلاميذ طريقًا آخر مهابةً واحترامًا.... حتى لا تقع عيناه على أحد منهم فيكون له الويل من عصاه الغليظة..... أين المستقر يا خليل ملاذ الآباء والأولاد؟ وهكذا... ظل عثمان باشرى يحدث نفسه أما نبرة والدة بكرى تميل على بكرى تتحسس قدمه وتسأله سيلا من الأسئلة مم هذه الإصابة؟. وكيف؟.. وأين... ومتى... وهكذا... حتى قص عليها القصة كاملة فتأخذه وتسرع به إلى داريه هذه المرأة العجوز المجبراتية وطبيبة الكسور والالتواءات والجزع والخلع علاوة على تضميد الجروح والإصابات وتعالج الحروق بالعسل وأمراض العيون بمحلول السكر داريه العجوز تسمع من بكرى القصة كاملة وتسأله أين مكان الألم؟ وتحاول أن تخدعه وتأكل بعقله حلاوة كما يقال حتى تتحسس وتجس الساق من الركبة حتى كعب القدم وتصل إلى الأصابع وفى لحظة واحدة تضغط على مكان الألم بأناملها الضعيفة الرقيقة فيصدر بكرى صرخة فتقول: هنا الوجع لعلها تحدث بذلك بكرى أو نبرة ثم تثبت قدم بكرى على الأرض وتشد بقوه فيسمع طرقعة فيرتمى على إثرها بكرى على الأرض ويطير قلب نبره من بين جنبيها ولكن داريه تقول انتهى كل شئ لقد عاد كل شئ إلى طبيعته والعظم قد دخل مكانه الطبيعى ثم تبسط قماشًا أبيضًا خفيفًا وتضع عليه مسحوق الصمغ ودائمًا تحتفظ به لمثل هذه الحالات وتجمعها من لحاء الشجر وتضيف عليه زلال بيض طازج وتخلطه جيدًا وتلف القماش

على الجزء المصاب كما حددته بخبرتها وتعطى التعليمات لوالدة بكرى بأن تترك هذه الضمادة أيامًا حتى تجف تمامًا وبدلاً من أن تكون مشدودة على القدم فإنها ستتحرك حول القدم نوعًا ما وعندئذ تزال هذه الضمادة ويدلك مكانها بماءٍ فاتر لعدة مرات فى اليوم وبخاصة عند النوم مساء علاج طبيعى.

فسمعت نبرة التعليمات لتنفذها بكل دقة وتحذر داريه العجوز بكرى بأنها لن تعالجه إذا تكررت منه تلك الأفعال الصبيانية الشقية وتذكره بالمرة السابقة التى وقع فيها وأصيب فيها بجرح غائر نتج عنه نزيف دموى وحمل به إلى داريه العجوز التى نظفت مكان الجرح ووضعت عليه حفنة من البن وضمدته بعصابة أزالتها بعد عدة أيام وأوقفت النزيف والتأم الجرح ولكن مكان الإصابة ما زال على جبهته علامة مميزة ولعلها تمازح بكرى الشقى وفى نفس الوقت تلفت انتباه أم بكرى إلى شقاوة بكرى حتى لا تدلل نبرة بكرى أكثر من اللازم....



فى كفر أبو حماد

قضى خليل أفندى أيامًا فى أسوان ثم انتقل إلى مدينة غير القاهرة والإسكندرية انتقل إلى مدينة طنطا بعيدًا عن أعين النوبيين وكأنه يريد أن يهرب ويبعد عن كل ما يذكره بتلك العادات والتقاليد التى منعته من رقيه بنت الشيخ عبد اللّٰه ووقع اختياره على مدينة طنطا راغبًا فى الجوار من السيد البدوى فقد يرضى ذلك ميوله الصوفية؛ فكثيرًا ما سمع عن السيد البدوى فى الشمندورة واستلم العمل معلمًا بمدرسة كفر أبو حماد فى ريف طنطا ولكنه اتخذ سكنه بمدينة طنطا قريبًا من مقام السيد البدوى ليستمتع بزيارة الضريح وحضور حلقات الذكر والصلاة بالمسجد وبخاصة يوم الجمعة من كل أسبوع وعرف بين أهل كفر أبو حماد بميوله الصوفية وحبه الشديد للأولياء والصالحين وتعلقه بالسيد البدوى كما عرف بأخلاقه الطيبة وإخلاصه وتفانيه فى العمل ونال حب واحترام الجميع يقضى صباحه فى المدرسة ويعود إلى مسكنه بمدينة طنطا مساءً ويراوده طيف رقية يزوره كل مساء يتراءى أمامه لكنه عقد العزم على أن ينساها لكن هيهات... هيهات فرقية حبه الأول ومن الصعب أن ينساها بعد أن ملكت شغاف قلبه وظل على هذه الحالة فى أيامه الأولى يخيم عليه الظلام وتتسدل ستائر الليل فيراوده الطيف يتهادى أمامه فى صوره العديدة رقية فى طريقها إلى النيل لملء الكوبية النحاسية تمشى فى خفة ودلال تضحك مع زميلاتها وتمزح وتتوسطهم ثم تتقدمهم حتى تصل إلى الشاطئ، وتتوسط مياه النيل الزرقاء وينحسر عنها الجرجار

فيكشف عن ساقيها اللتين تغوصان فى مياه النيل وتعكس زرقة المياه مع سمار الساقين ألوانًا كألوان الطيف وشفق الغروب وتميل لتملأ الكوبية وتسحبه بيدها إلى العمق فتداعب خصلاتها صفحة المياه فيأخذ التيار خصلاتها المجدولة يمينًا وشمالاً تتحرك مع الموج ثم تحمل الكوبية على رأسها فتستقر فوق إيوالها[1] المعروف لتعود تتقدم أترابها كقائد سرب طيران أو طيور مهاجرة وتغوص أقدامها فى الرمال فيهتز جسمها وتداعب ضفائر شعرها المنسكب على خصرها ولكنها ترفع قدمها بخفة ورشاقة عن تلك الكثبان الرملية الذهبية وتسرع فى دلال وقد استقر الكوبية على رأسها وكأنه شد بوثاق فيا لها من مهارة اعتادت عليه ولا يزال الطيف يؤانسه كل مساء بل يؤرق مضجعه.

وما زال خليل أفندى يداوم على صلاة الفجر فى مسجد السيد البدوى ويرافقه جاره فى الشقة المقابلة فيسكنها الحاج خليفة البنهاوى مالك العمارة وباستمرار الرفقة والصحبة فجر كل يوم إلى المسجد تزداد العلاقة محبة ومودة وصلة بينهما ويتعرف عليه فالحاج خليفة البنهاوى من النازحين إلى مدينة طنطا من بنها ولقب بالبنهاوى ويعيش فى طنطا من سنوات وسنوات واستقر بها حيث تزوج من إحدى نساء طنطا ويمتلك هذه العمارة، كما يمتلك كافيتريا (حتحور رست) على طريق القاهرة/ الإسكندرية وابنته كاميليا التى تعيش معه ووالدتها، أما نسرين فقد تزوجت من احد أبناء طنطا يعمل مهندسًا بإحدى الشركات بدولة الإمارات العربية وتعيش معه بالإمارات وتزور طنطا فى كل عام أو عامين طبقًا لظروف عمل زوجها أما سكان العمارة فهم من طبقات وأصول مختلفة تجمع بينهم طيب الأخلاق ونبل الخصال وكريم الصفات

---

(1) الإيوال أسطوانة من القماش تختلف فى حجمها وسمكها واتساع قطرها طبقًا للإناء المحمول عليها ومهارة حاملتها.

فقد انتقى الحاج خليفة سكان العمارة من الصالحين ذوى السمعة والصيت الطيب بعيدًا عن الإيراد الشهرى من الإيجارات.

وتشاء الأقدار فى فجر أحد الأيام بعد أداء صلاة الفجر بالمسجد وفى طريق العودة أن يغمى على الحاج خليفة البنهاوى وتنتابه النوبة التى تعاوده من آن لآخر ولأول مرة يعرف خليل أفندى بتلك النوبة فيتعهد به من بين المصلين حيث هو جاره المواجه له ويشير عليه المقربون إلى الحاج خليفة بالطبيب المعالج والمتابع لحالته فيسرع به إليه وبعد إسعافات أولية فاق من غيبوبته وتم علاجه وتتحسن حالته تدريجيًا فإذا به يجد أمامه خليل أفندى الذى يقف بجواره مستندًا على سريره يتابع حالته ويشد من أزره ويواسيه فيحدثه الحاج خليفة عن تلك النوبة التى تنتابه فى السنوات الأخيرة ويشكره جزيل الشكر على ما قام به من مروءة وشهامة.

لعل ما أصاب الحاج خليفة البنهاوى من أعراض الشيخوخة كما ذكر الطبيب فقد أصيب بضيق فى الشريان التاجى بالإضافة إلى مرض السكر ويحدثه البنهاوى عن حياته الخاصة وظروفه الصحية فقد انفتح قلب البنهاوى لخليل أفندى وانجذب إليه.

وبقى فى العيادة فترة يلاحظه الطبيب وبعد الاطمئنان على حالته يعود خليل أفندى بالحاج البنهاوى ولأول مرة يدخل خليل أفندى شقة الحاج البنهاوى ويرى كاميليا وأم كاميليا حرم الحاج البنهاوى فقد أحسنتا استقباله وقدمتا الشكر الجزيل لخليل أفندى فقد سمعتا عنه الكثير والكثير من الحاج البنهاوى والآن يرونه رأى العين ويصدق ما سمعوه عنه.

وتردد خليل البنهاوى على الحاج البنهاوى ليطمئن عليه من باب حق الجار والصاحب والمروءة والشهامة نحو رجل مسن فى حاجة للخدمة والرعاية فقد مكث الحاج البنهاوى أيامًا ملازمًا للفراش والراحة بعيدًا عن أى إزعاج.

ولفتت انتباهه كاميليا ابنة الحاج خليفة وشد إليها وانجذب من النظرة الأولى فلم تستقر عليها عيناه حتى أخذته بياض بشرتها الوهاج وجسمها الغض البض ووجهها المشرق البسام وثغرها الباسم ذو الأسنان الناصعة البياض والابتسامة التى تشع نورًا من بين الحجاب الذى اعتادت عليه ولكن الحياء يمنعه من النظر إليها طويلاً ليستمتع بذلك الجمال الطبيعى الذى لم يتأثر بمكياج المدينة وكلما يزور الحاج البنهاوى تقوم كاميليا بتقديم واجب الضيافة مصحوبًا بكلمات رقيقة فلم يجد بدًا من قبولها نزولاً على رغبتها وإصرار الحاج البنهاوى، فكانت تلك النوبة التى فاجأته سببًا فى توطد العلاقة بينه وبين خليل أفندى وبعد أيام تماثل الحاج خليفة للشفاء وتحسنت حالته نوعًا ما على الرغم من أن النوبة فى هذه المرة كانت أشد مما تعود عليه فقد كانت النوبة تزول بعد وقت وجيز ولكن فى هذه المرة أقعدته الفراش عدة أيام شعر فيها الحاج خليفة أنه فى حاجة إلى مؤازرة ومساعدة خليل أفندى.

كاميليا رغم رجاحة عقلها لم تستطع أن تتحمل مسئوليات حتحور رست لذلك فكر الحاج خليفة فى الاستعانة بخليل أفندى لما وجد فية من مروءة وشهامة وعرض عليه أن يعاونه أو يقوم بتحمل مسئولية حتحور رست نظير أجر ولكن خليل أفندى رفض مبدأ الأجر والحاج البنهاوى يصر على الأجر نظير التعب والجهد وبعد إلحاح تم الاتفاق فيما بينهما فقد راعى كل منهما شعور الآخر بعيدًا عن الماديات فالحاج البنهاوى فى حاجة إلى مساعدة خليل أفندى وخليل أفندى صاحب مروءة وشهامة ويستطيع أن يؤدى ما طلب منه على أكمل وجه.

وانقضت الفترة التى أمر بها الطبيب لراحة الحاج البنهاوى بعيدًا عن أى مؤثرات تقلقه أو تشغل باله أو تثيره ووجد خليل أفندى فى إدارة حتحور رست ما يشغله ويقضى على شبح الفراغ ويكسر

جمود الحياة الرتيبة المتكررة بين المدرسة والسكن ذلك الجدول اليومى المعتاد ولاحظ الحاج البنهاوى أمانة وإخلاص خليل أفندى وانعكس ذلك على الإيراد الذى يدره من حتحور رست وتمر الأيام ويبتعد طيف رقية ولكنه يأتيه بين الحين والحين.

الحاج البنهاوى يعرض على خليل الاستمرار فى تلك المهمة والإشراف على إدارة حتحور رست فقد وجد صحته تتحسن وتهدأ نفسيته بعيدًا عن تبعات ومسئوليات حتحور رست فما عليه إلا الجمع وتحصيل العائد ويعتذر خليل أفندى عن العمل بصفة مستمرة ويصر الحاج البنهاوى ويشكر فيه مروءته ويقول إنه يمكن أن يعرض حتحور رست للبيع ولكن لماذا؟ ويمكن لكلينا أن يستفيد منه أكبر فايدة ومنحه الحاج البنهاوى فرصة للتفكير فى العرض بروية وهدوء.

حتحور رست على الطريق الرئيسى ويتيح لخليل أفندى التعرف على الكثير والكثير من المترددين والعملاء الذين يمدون حتحور رست بالاحتياجات اليومية والموردين الأصناف المختلفة لحتحور رست، ويقضى عى وقت فراغه الكبير علاوة على أنها فرصة لزيادة دخله وحتحور رست فرصة للقائه بكاميليا التى أسرته بجمالها الفاتن وسحرته بسحرها فإنها تنظر إليه خلسة كلما كان فى زيارة للبنهاوى فقد اطمأنت من خليل أفندى الذى ملك قلب أبيها وكسب ثقته ورضاه، وينظر خليل أفندى ويفكر فى مستقبله المجهول بعيدًا عن الشمندورة.

وبعد أيام قليلة وتفكير واع وتدبير فى الأمر المعروض بعيدًا عن المجاملة والعاطفة وبعيدًا عن الخجل والحياء رد خليل أفندى على الحاج البنهاوى بالموافقة.

اختلفت عليه الأطياف طيف رقية الذى تضاءل وطيف كاميليا الذى يزداد رسوخًا، كاميليا تلك الشقراء ذات العيون الزرقاء وجدائل

ضفائر سوداء كموج البحر أو الليل المظلم الداجى والقوام المشوق فليس بالنحيف المذموم ولا بالغليظ الممقوت تناسق وتوازن وتناسب بين الأرداف والنهود ويفكر خليل أفندى ويفكر فى حيرة من أمره بين اختلاف وزيارة الطيفين طيف يزول وطيف يزور مرارًا كل مساء وفى حوار نفسى داخلى يتساءل خليل أفندى ملتمسًا العذر لنفسه ويلوم رقية: لماذا لم تصر رقية على حبها له؟!! لماذا لم ترفض الزواج من غيره؟!! لماذا كانت سلبية ولم تكن إيجابية تدلى برأيها؟!!

ولعله قد نسى أو تناسى طبيعة وعادات وتقاليد أهل الشمندورة فهى أسيرة لرأى والدها الشيخ عبد الله وحبيسة ومقيدة بسلاسل تلك العادات والمفاهيم الموروثة.

قد تكون رقية تبادله حبًا بحب وشغفًا بشغف ولكن لا حول لها ولا قوة هيهات..... هيهات!! ومتى كان لأمثال رقية رأى فى أن تتزوج من فلان أو فلان.

ويميل خليل أفندى ميلاً إلى طيف كاميليا ويمر بذهنه مرجان دهب الذى تزوج من شقراء واستقر به المقام بالإسكندرية ولم يرفض لاختلاف الجنس واللون وقد تناسى أصله ولم يكن لأنفه الأفطس ولا لشعره الأكرت ولا للونه الأسود الفاحم أى أثر فى اندماجه واختلاطه بأهل زوجته الشقراء، كما قفزت إلى ذهنه أسماء كثيرة من أمثال مرجان دهب وغيره من أبناء الشمندورة الذين انقطعت أخبارهم بزواجهم من بنات بحرى الشقراوات.

ومنهم من ما زال على صلة بالأهل بالشمندورة والنوبة ولكنه استقر بالقاهرة أو الإسكندرية بعيدًا فى أحضان تلك الشقراوات.

حادث على الطريق السريع

اعتاد خليل أفندى أن يذهب إلى حتحور رست مساء كل يوم ليتفقد سير العمل ويراجع الحسابات ولتدبير الاحتياجات لليوم واليوم التالى ويرتفع معدل الربح من يوم إلى يوم حتى أصبح الذراع اليمين للحاج البنهاوى الذى يتكىء عليه.

وفى احدى الأمسيات يعرض خليل أفندى الحساب على الحاج البنهاوى ثم يقترح عليه إدخال تعديلات على حتحور رست بإضافة ركن للخردوات إلى حتحور رست يحتوى على الاحتياجات اللازمة للمسافرين على الطريق السريع من قطع حلوى وبسكويت وأدخنة ومشروبات مثلجة وغازية وصحف وجرائد ومجلات ولعب أطفال وغيرها من مستلزمات السيارات من إكسسوارات وأدوات نظافة وعطور وهدايا.... إلخ.

ويوافق الحاج خليفة البنهاوى على اقتراح خليل أفندى ردًّا للجميل على أمانته وإخلاصه ووده على أن يستأجر خليل أفندى المكان ويعده لحسابه الخاص وتعلل لعدم ضمه إلى الكافيتريا بأن ذلك يشكل عبئًا فى وقت يحتاج فيه إلى الراحة وتخفيف الهموم والمشاغل عليه فوافق خليل أفندى وتقبل العلة والاعتذار شاكرًا..

وبدأ خليل أفندى فى تجهيز المكان واتخاذ الإجراءات اللازمة لافتتاح قسم الخردوات وأضاف على المكان بهجة ببعض ألوان وأنواع الزينة والديكور وفى فترة قصيرة تم افتتاح خردوات وعلق عليها لافتة ضوئية (نفرتارى) يعمل به واحد من شباب طنطا يتمتع

باللباقة وحسن السير والسلوك وسرعة البديهة وفى أيام قليل كان نفرتارى فى زيادة عدد الزبائن فى كافتريا حتحور وأصبحت الاستراحة بكافتريا حتحور مطمحًا وهدفًا لكثير من السائقين والمسافرين منذ بداية رحلتهم ويقصد لذاته على وجه الخصوص وكان هذا مما أسعد الحاج البنهاوى وأثلج صدره حينما يسمع من كثير من المسافرين بهذه السمعة الطيبة والصيت الشائع لكافيتريا حتحور وخردوات نفرتارى.

وفى ليلة مشئومة رن جرس التلفون فى منزل الحاج خليفة البنهاوى فأسرعت إليه كاميليا آلو آلو آلو.... مين؟ فإذا بمستشفى طنطا يبلغ بخبر يكاد قلبها ينفطر له ويطير من جنبيها فإن خليل أفندى نزيل بالمستشفى فقد نقل إليها مغمى عليه إثر اصطدامه بسيارة مسرعة وهو يعبر الطريق الرئيسى القاهرة/ الإسكندرية، فى واجهه حتحور رست وأصيب بكسر بإحدى ساقية وبعض الكدمات والإصابات الخفيفة من جروح سطحية وأجرى له اللازم وقد أفاق من غيبوبته أشار عليهم بهذا الرقم للاتصال به هو أقرب رقم يمكن للمستشفى الاتصال به لإعلامه الخبر.

ويسمع الحاج خليفة بالخبر وينزل عليه كالصاعقة ويهتز له وجدانه ويصر على أن يذهب إليه فى الحال أما أم كاميليا تضرب بيدها على صدرها من هول ما سمعت داعية لخليل أفندى بالصحة والسلامة.

وفى خلال مدة قصيرة كان الحاج خليفة وبصحبة زوجته وابنته كاميليا فى طريقهم إلى مستشفى طنطا ويلتقى الحاج البنهاوى بخليل أفندى ويعانقه مشفقًا عليه وبحرارة بالغة يدعو له بلسان يلهج بأطيب الأمنيات بالسلامة والشفاء العاجل ويحمد الله على سلامته أما أم كاميليا تواسى خليل أفندى بكلمات رقيقة وتشد من أزره قائلاً شدة وتزول قدر الله ولطف حفظك الله ورعاك، ثم تنحت جانبًا فلم تستطع أن تتحمل رؤيته وهو ممدود على السرير وقد شد

ساقه بجبيرة يتألم من ثقلها ويتأوه، ولكن كاميليا تنظر إليه بعين يكاد يفضحها وقد اغرورقت الدموع بعينيها وتريد أن تضمه إلى صدرها تحتضنه ويمنعها الحياة والخجل ويبادلها خليل أفندى النظرات بنفس المشاعر والأحاسيس فى لغة هامسة بينهما.

ويسال الحاج خليفة الطبيب المعالج الذى جاء ليتابع حالة خليل أفندى ليطمئن على حالته فيطمئن الطبيب أسرة البنهاوى ويبلغهم أنه يمكن لخليل أفندى أن يغادر المستشفى بعد يومين أو ثلاثة فقد ضمدت الجروح السطحية وأنه تحت الملاحظة والبوادر والمؤشرات مطمئنة فحالته لا تدعو إلى القلق ويمسح الحاج خليفة الدموع الساقطة من عينيه وهو يحمد الله على سلامة خليل أفندى، أما كاميليا فقد استدارت بظهرها حتى تجد فرصة للسيطرة على مشاعرها ودموعها بعيدًا عن الأعين وأمر الطبيب أن يتناول خليل أفندى قرصًا مهدئًا ومزيلاً للألم ويخلد إلى النوم فى راحة تامة واسترخاء وعلى آل الحاج خليفة البنهاوى أن يغادروا الحجرة حرصًا على سلامة خليل أفندى فغادر الحاج خليفة وأسرته المستشفى وقلوبهم تتحسر ألمًا وحزنًا على ما أصاب خليل أفندى.

ومرت الأيام بطيئة يومًا بعد يوم وخليل أفندى يتماثل للشفاء وتتحسن حالته ويتردد الحاج خليفة البنهاوى على المستشفى ترافقه كاميليا، وصرح لخليل أفندى الخروج من المستشفى على أن يعود لفك الجبيرة.

وفى الطريق يعرض الحاج البنهاوى على خليل أن ينزل خليل فى شقته لحين إزالة الجبيرة ولكن خليل أفندى يشكره شكرًا جزيلاً ويصر على أن يذهب إلى شقته فإنه يمكنه أن يتوكأ على عصاه ويقوم بشئونه ولكنه يعتذر عن متابعة وإدارة حتحور رست على الأقل لمدة أسبوع ويبادله الحاج البنهاوى الشكر والتقدير ويتعهد بإدارة حتحور رست لمدة أسبوع لحين قيام خليل أفندى بدوره

وقضى خليل أفندى أسبوعًا فى شقته ملازمًا للفراش وحيدًا إلا زيارات الحاج خليفة له فى رفقة كاميليا من آن لآخر فيجلس الحاج البنهاوى يتبادل الحديث مع خليل أفندى فى شئون شتى عن حتحور رست ونفرتارى وحالة الجو وكفر أبو حماد وزملاء مسجد السيد البدوى وعن حالته الصحية فى حين أن كاميليا تقوم بدور ربة البيت كاملاً تقوم بشئون المطبخ وترتيب وتنسيق الشقة، وتحولت الشقة التى مكث بها خليل أفندى وحيدًا يرتب وينسق ترتيب الرجل المشغول بداخل وخارج الشقة فقد اختلفت وتحولت الشقة فى نظامها وجمالها وحسنها، حيث ظهرت عليها لمسات وحس المرأة كاميليا فقد نشرت فى أنحائها باقات الورد الصناعية ورتبت كتب وأدوات وملابس خليل أفندى المبعثرة فوق المنضدة هنا وهناك فقد رتبت ووضعت فى أماكنها وفرشت بمفارش ذات ألوان تزيد البهجة وتملأ النفس أملاً كما أعيد ترتيب وتنسيق المطبخ وفى كل زيارة تعد طعامًا شهيًا مما يحبه خليل أفندى، وتشعر كاميليا للحظات أنها ملكة فى مملكتها وتنظر إلى خليل أفندى خلسة بطرف عينيها وتبتسم ابتسامة ذات مغذى يفهمها خليل أفندى ويبادلها النظرات وتمر اللحظات سريعة وكما انتهت زيارة الحاج خليفة ترافقه.كاميليا تمنى خليل أفندى أن تتوقف عقارب الساعة ولكن هيهات.....

وينتظر خليل أفندى بكل شوق تلك اللحظات التى يعود فيها خليفة البنهاوى فى رفقة كاميليا وبقدر ما ينتظر لحظة الشفاء وإزالة الجبيرة فهو يتمنى أن تطول أيام الجبيرة ليستمتع بكاميليا وذلك الحوار لغة العيون بينه وبين كاميليا مستأنسًا بحديث وحوار الحاج خليفة البنهاوى، يعود خليل أفندى إلى حتحور رست ويقوم بدوره كاملاً ويهنئه الحاج خليفة على عودته وشفائه ويشجعه ليتغلب على آثار الجبيرة، فلم يستسلم خليل أفندى لثقل الجبيرة

التى تحد من حركته بحرية ولكنه عاد يزاول عمله بهمة ونشاط فى حتحور رست ونفرتارى وكما يقال رب ضارة نافعة فإن تلك الحادثة قد تعددت منافعها رغم ضررها البالغ فقد أثبتت أن الحاج خليفة لن يستطيع الاستغناء عن خليل أفندى كما أن خليل أفندى فى حاجة إلى شريكة حياة ووطدت العلاقة والصلة بين خليل أفندى وأسرة الحاج البنهاوى فالصديق الحق يظهر عند الشدائد...

وبعد المدة التى حددها الطبيب أزيلت الجبيرة عن ساق خليل أفندى وعاد على الاعتماد على ساقيه يتوكأ على عصاه ولم يتبق إلا جلسات العلاج الطبيعى ويعود الساق إلى حالته الطبيعية.

وشغلت كاميليا بال وتفكير خليل أفندى وقد تعود على أن يأكل طعامًا شهيًا من صنع يديها بكل مهارة واتقان وقد تعود على ما هو أبعد من ذلك بكثير، فقد تعود على أن يراها كل يوم فى صحبة والدها ويحدثها وتحدثه بلغة العيون التى لا تكذب ولا تتجمل وتنتقل الإشارة بينهما عبر نظرات العيون وتسرى سريان الكهرباء وطالما انتظر كل منهما اللقاء وتآنس بنظرة العيون فكلاهما يخشى أن تنقطع تلك اللقاءات بشفائه واعتماده على نفسه ولكن الحاج خليفة لم يكف عن دعوة خليل إلى مائدة العشاء فقد تطول الجلسة بينهما لمراجعة حسابات حتحور وتقوم كاميليا بإعداد المائدة بما لذ وطاب ويشتهيه خليل أفندى وتدعوهما للعشاء وترسل بعينيها نظرات خاطفة لها بريق لامع يسطع كنجم فى سماء صافية فيشع نورًا على وجه خليل أفندى فيسعد لها..

ساقية مدنى

تمر الأيام سراعًا ويتحقق الحلم الذى راود الصبية صغارًا ليروا ما سمعوه مرارًا وتكرارًا من مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين وأش الله ليروا رأى العين عنيبة ومدرسة عنيبة وما أدراك بعنيبة بها السوق البحرى والسوق القبلى ومطاعم الفول والطعمية والرغيف المصرى والمبانى الحكومية من مركز شرطة ومحكمة ومستشفى وما إلى ذلك وأهم ما تتميز به الميناء وذلك الرصيف الذى يمتد إلى داخل مياه النيل مسافة طويلة حيث ترسوا البواخر النيلية بين حلفا والشلال، وبعنيبة حركة تجارية مثل سوق الشلال تقريبًا فى الأيام التى ترسو فيها البوسطة والأكسبريس وحركة بيع وشراء ونقل للركاب والأمتعة ويحلو رصيف الميناء ليلاً حيث تصطف المصابيح على جانبى الرصيف فى شكل بديع وتنعكس تلك الأضواء على سطح المياه الزرقاء وتهتز وتتكسر مندمجة مع نجوم السماء الصافية وحركة الأمواج وتلاطمها فى لوحة فنية ساحرة من الجمال والمتعة فما أجمل الميناء ورصيف الميناء المضاء بمولد كهربى.

أما زنوبة ونعمة لم يكن لهما حظ فى استكمال مشوار تعليمهما واكتفت كل منهما كغيرهما من الفتيات بمرحلة التعليم بمدرسة الشمندورة ولم يسمح لهما بالخروج من القرية حتى ولو للتعليم وليس عليهما إلا أن تنتظرا فارس الأحلام بفارغ الصبر وبكل قناعة واستسلام للعادات والتقاليد الموروثة.

ويلتقى جمال باشرى وعبده كندنونة ببقية زملائهما من قرى النوبة فى مدرسة عنيبة وتظهر موهبته وتتفجر عبقريته الأدبية وبخاصة فى قرض الشعر وعرف بشاعريته فلا تفوت مناسبة أو يمر لقاء إلا قدمه الأستاذ همام مدرس اللغة العربية الذى تبناه؛ يقدمه ليلقى شعره ولقى عبده كندنونة تشجيعًا ومساندة وصقلا لموهبته حتى أنه أشعل فيه الأستاذ همام تلك الروح المتوقدة فكان يقدمه دائمًا باسم (النابغة الموهوب) وتعرف على زملائه ممن يحبون الشعر ويهوون الأدب واشتركوا معًا فى الجماعة الأدبية تحت إشراف الأستاذ همام وكانت فكرة إصدار مجلة أدبية دورية بعنوان (شلفاج) نسبة إلى شلفاج[1] ذات موضوعات متعددة ومتنوعة بين الأدبية والاجتماعية وغيرها مما تتصل اتصالاً وثيقًا بالمجتمع فى النوبة بوجه عام شرق وغرب النيل وضمت الأحداث الجارية وتطرقت إلى مياه النيل وطغيانه على الجانبين وأثر ذلك على النسل والضرع والزرع وإلى التعويضات الهزيلة غير المجدية وتلك الهجرات إلى مختلف أنحاء المملكة المصرية، وتفرقوا فى البلاد باحثين عن الأمان من الغرق والبحث عن الرزق والكسب الحلال.

أما جمال باشرى فقد اختلفت ميوله وتطلعاته عن عبده كندنونة فكل مهيأ لما خلق له، جمال باشرى ندى الصوت يحب الغناء والطرب ويهوى السهر فانضم إلى لفيف من أمثاله واعتاد الخروج ليلاً خلسة إلى ليالى المرح والطرب والغناء حيث يعقد قران أو ليلة زفاف أو سهرة رفاق ويعود مع أول شعاع من نور الفجر دون أن يشعر به أحد من المعلمين وبخاصة ناظر المدرسة المشهود له بالالتزام والانضباط واحتاط جمال وكان على حذر شديد من أن يصل خبر سهراته إلى والده محى الدين وتعلم جمال العزف على آله

---

(1) الطعام مع مجموعة متحابة فى هناء وسرور.

الطنبور[1] بالإضافة إلى الدق على الدف (المزهر) واشتهر بمواويل (أسمر اللونة) من التراث الأصيل مقلدًا لكبار المغنين وأحيانًا أخرى يبتكر أجمل المعانى والتعبيرات المطعمة بالتشبيهات البليغة والصور البيانية والمقارنات الذكية ليصل من مقدمات إلى نتيجة وخاتمة للمقطع تصدر أثرها آهات للمعجبين مستحسنين لما يسمعونه فيصدح بحنجرته الذهبية مثل عصفور الكنارى أو الكروان والبلبل الصداح حتى أنه يطلب على وجه الخصوص لإحياء ليالى العرس والطرب واشتهر بين أبناء القرى المجاورة لغنيبة شرق وغرب النيل فأصبح كنار على علم..

وتغنى جمال بالغزل العفيف والنسيب الذى يطرب له الفتيان والفتيات ويسعدهم بوصفه نموذجًا للجمال النوبى الأصيل وتأصيلاً للعادات والتقاليد ويحتوى على معان تشرح الصدور وتلهب مشاعر العذارى وأهل الغرام فيتمايلون سرورًا وإعجابًا عند سماعهم له فحنجرته الذهبية تمتاز بعدة طبقات تتزاوج مع الإيقاع والأنغام مؤثرة تداعب الوجدان وقد تنوع جمال باشرى فى الألوان التى يتغنى بها واختلفت عنده أسمر اللونة أنواعا فمنها ذات المقطعين والسبعة مقاطع وما بينهما وهذه تحتاج إلى طول نفس وصوت أوبرالى أو سوبر أوبرالى كما تحتاج إلى براعة ومهارة للتدرج فى المعانى وعقد المقارنة والتشبيهات البليغة حتى يصل إلى الهدف المراد فى الشطر الأخير من المقطع بعلاقات خاصة ترتبط بالمعنى العام.

وقد طلب من جمال باشرى أن يحضر سهرة غنائية عقدها أحد زملائه تزوج حديثًا ووجه له الدعوة ليبحر إلى شرق النيل فأبحر هو ورفاقه فى مركب ليعودوا فى نهاية السهرة وتغنى فى تلك السهرة بأسمر اللونة ذات المقاطع المتعددة وكان مما تغنى به تلك العادة

---

(1) آلة موسيقية فى النوبة المصرية والسودانية أوتارها من السلك على سطح جلد شاه مشدودة على إناء مقعر ذات عمق ويلعب على أوتاره بريشة فتصدر أنغامًا شبيهة بالعود.

المتبعة للعروس أن تهدى إلى عريسها منديلاً أو طاقية أو نحو ذلك مما تقوم بإعداده خصيصًا له فتغنى ما معناه بالعربية:

لقد قمتى بكل المهارة والبراعة بتطريز المنديل بيديك

بتلك الأيدى المخضبة بالحناء وتنظرين فيه بعينيك المكحلتين

وبتلك الأيدى والعيون أتقنت الصناعة والصنعة

فلا مانع بعد هذا التعب أن تهديه لمن يستحقه

فاهدها لى فإنه يتناسب معى ويلائمنى

لتكن ذكرى خالدة ورسالة حب وإخلاص

ثم يتحول جمال باشرى من هذه المعانى التى طرب لها الحاضرون وأعجبوا بها ورقصوا على أنغامها وألحانها يصدرون تلك الآهات لينتقل إلى وصف لمحبوبته التى تميزت عن غيرها من الفتيات بصفات جمعها باتقان وبراعة فتغنى:

أنت التى تلبسين الساعة فى معصمك الأيسر

وتمرين بالموردة فى ساعة محددة لملء الكوبية

وفى ساعة أخرى تذهبين فى طريقك إلى الحقل

يا من تلبسين القميص النصف كم[1] وذات عيون المها

وشبشبًا يصدر طرقعات كدق المزاهر تتباهين به

تمشين فى خفة ودلال لتكونى سببًا فى جنونى

وهذه صفات نادرة الوجود فى الفتيات عامة من لبس ملابس

---

(1) ملابس النساء فى الشمندورة هى الجرجار من البوال أو رمش العين أو الجورجيت طبقًا للحالة المادية من لون أسود وبفتحة نصف دائرية حول الرقبة وتنسدل عليها الطرحة والجرجار ذات كم طويل وكسر من الأمام والخلف يزيد عدد الكسرات من الأمام وتقل من الخلف يجر على الأرض ولذا سمى بالجرجار فتخفى معالم القدم (الأثر).

نصف كم خارج المنزل والساعة فى المعصم والشباشب عند ملء الكوبية والذهاب للحقل فهذه من ألوان الترف والغنى والرفاهية أما العمل فى الحقل وملء الكوبية من الأشياء المعتادة للفتاة النوبية فقد برع جمال فى ضم هذه إلى تلك.

ويعود جمال باشرى بعد سهرة فنية غنائية رائعة وقد كشف أمره غياب عدد من زملائه معه وسمع بهم ناظر المدرسة إذ أخبره أحد المعلمين المشرفين على القسم الداخلى فاستدعاهم ناظر المدرسة ووجه إليهم اللوم والتوبيخ وحذرهم من الخروج ليلاً مرة أخرى وعليه أذاقهم شيئًا من العقاب ضربًا بالعصى على سبيل التحذير وظل جمال باشرى يكيل اللعنة على الشيخ مرسى على واليوم الذى شيد فيه القسم الداخلى ولولاه لسكن فى بيوت أهالى عنيبة بالمستعمرة نظير أجر حُرّ الحركة ليلاً ونهارًا فقد سمع دور الشيخ مرسى فى إنشاء القسم الداخلى.

الشيخ مرسى على ذلك الشيخ الوقور الدءوب لمصلحة النوبة والنوبيين لينشر التعليم فى أنحاء النوبة ويحمل على عاتقه آلام وآمال الطلاب ليخفف العبء على أولياء الأمور يطالب بوجبة غذائية للطلاب وجبة العشاء ليفتح القسم الداخلى فى مدرسة عنيبة وتوافق جهات الاختصاص على صرف الوجبة بشرط توفير وتدبير مكان لإيواء الطلاب، ويتعهد الشيخ مرسى على بذلك حيث يفد الطلاب من مختلف قرى النوبة بل وقرى وادى حلفا بالسودان وسعى يروج للفكرة ويحشد لها أولياء الأمور والأهالى ويدعو لذلك العمد والمشايخ وأهل الحل والعقد وأهل الرأى والمشورة، ونجح فى أن ينتزع إجماعًا كاملاً وموافقة على الفكرة وسار بنفسه يقود حملة التبرعات وفتح باب التبرع والمشاركة المجتمعية بقروش قليلة تتراوح بين القرشين وثلاثة قروش وقد تصل التبرعات فى حالات نادرة إلى خمسة قروش من الأعيان والقادرين، كما فتح باب التبرعات

العينية بجزوع النخل والشجر الجريد وبخاصة من قرية بلانة وقرى حلفا دبيرة واشكيت وارجين ودبروسة ونقلت بالمراكب الشراعية كما كانت الأيد العاملة أحيانًا بالأجر وأحيانًا تطوعًا بالمجان من القادرين على أعمال البناء والتشييد.

وطاف الشيخ مرسى بنفسه يدق الأبواب يجمع قروش التبرعات كما سبق أن جمع الصبية الذين فى سن الإلزام من أحضان الوالدين والطرقات أينما وجدهم ويذهب بهم إلى المدرسة إجبارًا حتى يكتمل العدد لافتتاح مدرسة حتى أنه إذا شوهد الشيخ مرسى من على بعد كانت الأم تخفى ولدها حتى لا يأخذه الشيخ مرسى إلى المدرسة فلم يكن التعليم قد انتشر بعد وها هو اليوم الشيخ مرسى يجمع التبرعات ليكون القسم الداخلى مأوى لأولئك الطلاب يسكنون بالأجر فى بيوت للأهالى ويتحمل الآباء النفقات للإقامة والإعاشة على حسابهم الخاص.

ولم يهدأ للشيخ مرسى بال حتى تنفيذ القسم الداخلى ومما يحكى عن هذا الشيخ الجليل أنه فى إحدى جولاته بالقرى لجمع التبرعات تأخر به الوقت حتى بعد صلاة العشاء فطرق أحد الأبواب فى بيت رجل مشهود له بسرعة البديهة وحضور الذهن والتعليق الطريف على ما يدور أمامه وكان بينهما الحوار التالى:

- من الطارق فى هذا الوقت المتأخر من الليل؟!! وكان الرجل قد آوى إلى فراشه كعادة النوبيين بعد صلاة العشاء.
- أنا الشيخ مرسى على.
- وماذا يريد الشيخ مرسى؟!! ألم يجعل الله الليل سكنًا! هل لا نخلد للراحة أو إلى أزواجنا وأولادنا من أجل الشيخ مرسى؟!!

فلم يغضب الشيخ مرسى لهذه اللهجة لأنه سعى للمصلحة العامة ويتصف بسعة الصدر والهدوء ولذا رد على الرجل قائلاً:

- إننى أجمع تبرعات لإنشاء القسم الداخلى قم يا رجل وأعطنى ما تتبرع به.

وقام الرجل وفتح الباب وأعطاه القرش وهو متضايق من قيامه من على فراشه فقال له الشيخ مرسى مداعبًا ليذهب عنه الضيق والضجر:

- ماذا فعلت لأولادك ومستقبلهم لتنام هادئ البال؟!!

وأخذ القرش وشكره كل الشكر على تبرعه ومشاركته

وفى فترة وجيزة وزمن قياسى وبجهد جهيد وعزيمة قوية وإرادة صلبة تم الانتهاء من إنشاء وافتتاح القسم الداخلى الذى يتكون من حجرات وعنابر دور أرضى يسع الطلاب من النوبيين بمصر والسودان وتم الاتفاق على أن يتحمل ولى الأمر لكل طالب السرير[1] بمشتملات من فرش وغطاء وغيره وتم التحديد الجغرافى للمقبولين بالقسم الداخلى بأنه حق الالتحاق لكل من تجاوز سكنه ساقية مدنى فتزمر أهل قرية عنيبة من هذا التحديد ومرة أخرى يخرج على الشيخ رجل من أهل عنيبة من أولائك المشهورين بسرعة البديهة والطرفة وسأل الشيخ مرسى عن عدم قبول نجله فقال له الشيخ مرسى:

إن الحكومة حددت ساقية مدنى حدًا فاصلاً للمقبولين فرد علية ذلك الرجل مستنكرًا:

وهل الحكومة تعرف مدنى وساقية مدنى يا شيخ مرسى؟!! فابتسم الشيخ مرسى ضاحكًا.

وفى النهاية ارتضى الجميع القريب والبعيد وشمل القسم الداخلى ووسع الكل من طلاب عنيبة وغيرهم.

جمال محى الدين ما زال يتنقل بين القرى ويحيى الليالى والسهرات

---

(1) السرير فى النوبة يسمى بالعنجريب قوائمه من شجر السنط ومشدود عليه الجريد بشرائح من جلد البقر (جلد الرأس) وتشد القوائم بعضها ببعض بشرائح الجلد دون استخدام أى مسمار.

ولم يتوقف عن ممارسة هوايته المفضلة الغناء والطرب وقد احتال للخروج منذ أن اكتشف أمره وعوقب وظل يضع الوسادة طوليًا ويبسط فوقها الغطاء حتى يخيل للمشرف أو غيره من الزملاء أو المعلمين أنه ما زال نائمًا بينما هو يصدح بحنجرته الذهبية المواويل أسمر اللونة وغيرها من الأغانى بعيدًا فى ليالى السهر والطرب والغناء.

بينما عبده كندنونة نجح الأستاذ همام أيما نجاح فى صقل موهبته ورعايتها حتى قويت ملكة الشعر والإبداع لديه شيئًا فشيئًاحتى ذاع صيته بين الطلاب وأساتذته شاعرًا وأديبا مبدعًا ووصل الخبر إلى أش الله وزملائه بمقهى الشروق بالقاهرة من خلال الرسائل المتبادلة ومن الواردين إلى القاهرة من أبناء النوبة والشمندورة.

وبكل الفخر والاعتزاز يعرض أش الله سيف الدين كتابات وشعر عبده كندنونة فى مقهى الشروق فتشرئب الأعناق فخرًا وعزة بابن النوبة والشمندورة الذى يعبر عن آلامهم وآمالهم ويعقب البعض على أن عبده كندنونة سيكون له شأن عظيم غدًا فقد أذهلهم إعجابًا بأفكاره وأسلوبه البليغ وحبه وتغنيه عن النوبة التى فجعت فى أرضها ونخيلها وطبيعتها الساحرة، فقد ابتليت بالطوفان والفيضان الذى أقلق وما زال يقلق مضجعها فمما كتبه عبده كندنونة معبرًا:

تاهت نجوع الحى والوديان والكثبان فى قمم الجبل

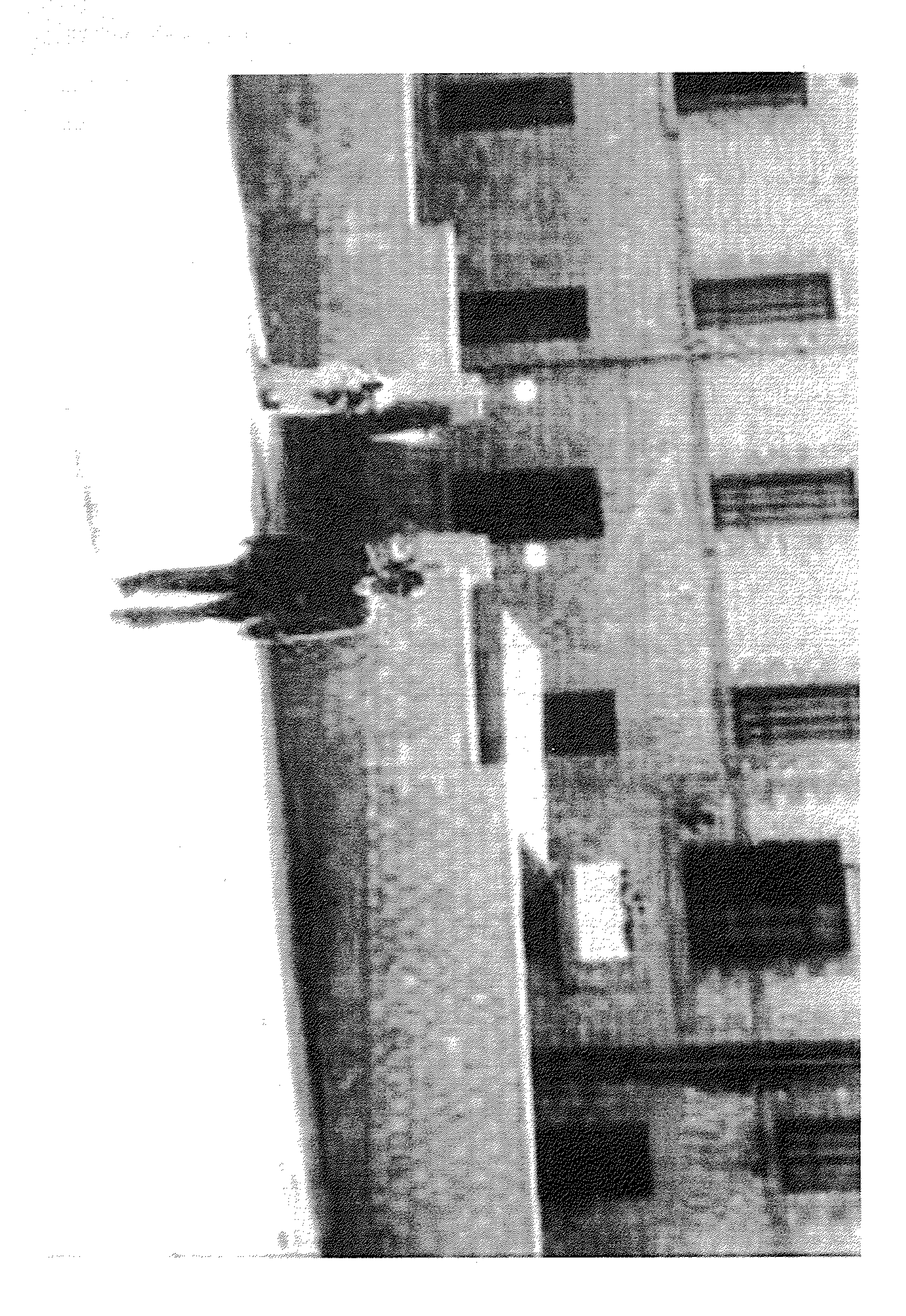
أين الخمائل قد بدت تزدان فى أبهى الحلل

يا قلعة تحت البحيرة انطوت

للنوبة دوما شموعا أوقدت

من نوا مع الفكر قاده خرَّجت

كالنخل بأطيب الثمار أثمرت



فى بولاق أبو العلا

أش الله سيف الدين يعد العدة ليسافر إلى القاهرة فى جوار أبيه فقد أنهى التعليم بمدرسة عنيبة أما مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين فليست أمامهما فرصة للسفر إلى القاهرة والطريق الوحيد الالتحاق بمدرسة المعلمين بأسوان ولذا افترقت الصحبة وانفرط العقد بعد رفقة دامت سنوات لتلك الظروف الاجتماعية والمادية التى تقف عائقًا وعقبة كؤود.

يسكن أش الله سيف الدين فى حى (بولاق أبو العلا) حيث اتخذ والده سكنه شقة بالإيجار وجلب أسرته إليها فانتقلت عائشة خير الله وأولادها إلى بولاق وغادرت الشمندورة لتكون من سكان القاهرة تلك المدينة الباهرة والتحق أش الله بالمدرسة الصناعية فهو أكثر حظًا عن غيره من أبناء الشمندورة وتميز بذكائه وقدرته العالية فى التحصيل كما تميز ببشرته السمراء بين أبناء القاهرة ولذلك لقب (بالفتى الأسمر) وكان دائمًا فى صحبة والده الذى يخدم فى بيوت كبراء وعلية القوم (الخواجا اليكس) ويرى بعين فاحصة ولاقطة يلاحظ كل ما يدور حوله ويمعن التفكير والتفسير لما يراه؛ فوالده الذى يلتف حوله أهل الشمندورة ويتباهون بقدومه بين الأكتوبريين هو نفسه الذى يراه أمامه رهن الإشارة يلبى طلبات الخواجه اليكس وزوجته وأولاده الصغار فيلبى ويستجيب وينفذ الأوامر طواعية فيجزلون له العطاء ويمنحونه هبة علاوة على راتبه الشهرى نظير الطاعة والولاء ويراه يعود فى المساء إليهم بما لذ وطاب من فائض مائدة فيلا الخواجة اليكس

فيجهزون عليه هو وأخواته بشهية مفتوحة ودهشة مما يرونه أمامهم من طيبات الطعام والفاكهة والحلوى التى لم يروا مثلها فى الشمندورة ولم يتذوقوا طعمه من قبل بل إن البعض من هذه الفاكهة لم يستطيعوا أن يفرقوا بين القشرة والنواة والثمرة فيسألون عنها والدهم الذى يهديهم إلى طريقة تناولها وترك ما لا يؤكل منها فهى أصناف وأنواع تختلف عن الأجندينه والبرتمودة وغير السكوتى والأبريمى وبعيد عن الكورية والشيو فيتعجب أش الله وأخواته من أصناف طرية ولينة سهلة وحلوة المذاق طيبة النكهة وليست جافة مثل ثمرة الدوم التى ترهق الأسنان فمنها ما يؤكل لحاؤها ومنها ما يؤكل النوى ومنها ما تزال القشرة وتؤكل الثمرة الداخلية وهكذا.... يحتار أش الله وأخواته فيما يؤكل وفيما يلقى ويهمل معذورين!! لم يسبق لهم التعرف أو رؤية هذه الأصناف المتعددة أطعمة لا حصر لها ولا عدد كميات تكفى عدة أسر وعائلات فى الشمندورة تلقى فى سلة مهملات فيلا الخواجة اليكس ويأتى سيف الدين بكميات أخرى إلى بولاق أبو العلا.

نعيم أى نعيم ورفاهية أى رفاهية لا يقارن المذاق بمذاق الإتر أو الويكة أو العصيدة فالبون شاسع بينهما.

هيهات.... هيهات أما عائشة خير الله تستمتع بالنظر إلى الشوارع من خلف ستائر الشرفات أو النوافذ تنظر إلى السيارات تسير فى حركة دائبة وكأنها تدور فى مضمار كمضمار الأبقار فى ساقية باشرى بالشمندورة.

وعلى جانبى الشارع الأرصفة تكتظ بالمارة وتشعر كأن أهل القاهرة كلهم فى الشارع وليس فى البيوت واحد منهم وتسمع أصوات الباعة الجائلين يدفعون بعربة من الخشب أو يشدها خلفه محملاً بأنواع مختلفة من السلع وينادى عليها بل يتغنى بها علاوة على الحوانيت المفتوحة والمرصوصة على جانبى الطريق والمكتظة بكل ما تحتاجه البيوت وربات البيوت فهذه أفضل بكثير من

دكان الحاج صالحين الذى يحتوى على ألف صنف وصنف بالشمندورة، وما عليها إلا أن تنادى على البائع وتستوقفه وتدلى بدلاية مشدودة بحبل تضع فيها النقود فيلتقطها البائع المتجول ويضع السلعة مكانها فتشد إليها الحبل لتصعد الدلاية بما تريده ففى لحظات تنال المراد.

ولكن سيف الدين يكفى عائشة خير الله كل ما يتطلبه البيت والأولاد فلا حاجة لها للباعة إلا فيما ندر تقليدًا لربات البيوت المجاورين لها.

فلا تسأل عن مركب على كلتومة حل بالشاطئ أم لا ولا تسعى إلى ساقية باشرى فتجد الأرض وحلة ولا تحقق غايتها فى الحصول على أوراق اللوبيا أو البامية ولا حاجة لها إلى متجر الحاج صالحين ليسجل الحساب فى دفتر اليومية ويمر بذاكرتها شريط من ذكريات الشمندورة والحاج صالحين فتضحك منفردة من خلف الستارة كالمجنونة وهى تنظر إلى الماضى من ذكريات أحداث ذلك اليوم العصيب؛ فالحاج صالحين سجل فى صفحة حسابها شاى وسكر فقد لاحظت ذلك وهو يقرأ عليها الحساب كالعادة استعدادًا لاستقبال سيف الدين باشرى مع الأكتوبريين وتصر على أنها لم تشتر من المتجر غير السكر فقط فى ذلك اليوم فقد حصلت على كمية من الشاى الوارد من حلفا لدى أحد تجار البضائع السودانية فى قرية مجاورة وصرحت بذلك عندما أصر الحاج صالحين على موقفه قائلاً: ما فائدة السكر بدون شاى فالسكر دائمًا معه الشاى.

ولم يقتنع الحاج صالحين بكلام عائشة خير الله ولما احتد النقاش بينهما واشتد الحوار تدخل الشيخ عبد الله شيخ الناحية واستطاع أن ينهى الخلاف بينهما بما يرضى الطرفين فهو رجل ذو خبرة وحنكة وممارسة وكثيرًا ما يفض مثل هذه المنازعات ويؤخذ برأيه فى كثير من الأمور ولا تصل المشكلة إلى الجهات الرسمية إلا فيما ندر.

فلما تذكرت عائشة خير الله ذلك اليوم ابتسمت ثم ضحكت ضحكات عالية.

وكثيرًا ما كان سيف الدين يصطحبها إلى منازل زملائه فى زيارات عائلية لأهل الشمندورة أو النوبيين بالقاهرة بوجه عام لتتعرف على زميلاتها من النساء اللاتى يقطن ضواحى وإحياء القاهرة الشعبية مع أزواجهن فى إمبابة والقللى وعابدين وشبرا وغيرها أو إلى الأحياء الراقية؛ فكثيرًا ما كان علية القوم يخصصون سكنًا للعاملين من الخدم وغيرهم مثل قصر الدوبارة والزمالك والدقى....

وتنقلت عائشة خير الله بين أحياء القاهرة ومع كل يوم يمر تزداد معرفة وصحبة ودراية بدروب القاهرة ونسائها من النوبيات أمثالها.

وأما أش الله فقد شغلت باله حياة الترف والنعيم التى يعيشها المخدومين من الأكابر والبشوات والخواجات تلك الطبقة الأرستقراطية ويقارن بينهم وبين حياة أهل الشمندورة والنوبة الذين يكادون يعيشون على صنف واحد من الطعام ولا تزدحم المائدة كما يرى بأصناف وأنواع متعددة من طعام وشراب وشغلته حياة والده وأمثاله من الخدم الذين يعيشون فى قناعة زائفة وسعادة بالغة راضين بما تجود به تلك الفئة عليهم من نعيم الدنيا قروش معدودة لا طموح إلى ترقية مادية أو معنوية أو مستقبل لهذه الخدمة الطويلة سوى مكافأة نهاية الخدمة جنيهات معدودة لا تسمن ولا تغنى من جوع عجز واستكانة لا أمل فى تغير أو تبديل للحال.

ثم يفكر فى ذلك اللقب الذى عرف به بين زملائه (الفتى الأسمر) فأحيانًا يشعر بالتميز الإيجابى وبكل الفخر والاعتزاز بتلك البشرة السمراء ويعتز اعتزاز الكبرياء بعيدًا عن الكبر الممقوت والعجب والغرور يعتز بالانتماء إلى النوبة الغالية والعريقة وحضارتها وتاريخها المجيد ويعتز بآبائه وأجداده طهراقا ومينا وكوش ونباتا وبعنخى ورمسيس ونفرتارى على مر العصور،

وأحيانًا ينتابه شعور بالتميز السلبى وكأنه من طبقة أدنى من تلك الطبقة التى ينتمى إليها الآخرون من أصحاب البشرة البيضاء ويشعر كأن النوبة والنوبيين مختلفون ومن جنس غير الذى ينتمى إليه بقية أبناء مصر الوطن الأم وقضى أش الله فترة بين الشد والجذب لهذه وتلك وشعور العزة والهوان وبين الثورة والهدوء بين المد والجزر بين الفيضان والانحسار؛ كنهر النيل الذى يطغى ويفيض هيجانًا وفيضانًا ثم يهدأ وينحسر ويعود إلى مجراه الطبيعى فى انسياب وسلاسة وظل يفكر ويمحص يحلل ويعلل يلاحظ ويقارن بين ما حوله وفيما حوله واتسعت دائرة معارفه من الأصدقاء والزملاء تدريجيًّا فى المدرسة وخارج المدرسة وبمرور الأيام تعرف على الذين قدموا إلى القاهرة كما قدم هو لاستكمال الدراسة ومنهم عبد العزيز أمين الذى يعمل والده سائقًا فى فيلا الخواجة اليكس ويوسف مبروك الذى يعمل والده لدى قنصل إحدى القنصليات الأجنبية فى القاهرة فقد تكون الظروف المتشابهة بينهم من أهم الأسباب فى التقارب والصداقة وبخاصة كثيرًا ما كانت الزيارات العائلية بينهم، فتوطدت العلاقة بين تلك الأسرة وقد يصطحبهم أش الله إلى أماكن تجمعات النوبيين حيث الجمعيات والهيئات النوبية المنتشرة فى أنحاء القاهرة وانضم إليهم نخبة من أولئك الشباب الذين نزحوا إلى القاهرة بحثًا عن الرزق وفرصة عمل فمنهم من التحق كالعادة للعمل فى القصور والفلل لدى أكابر القوم مثل عكاشة وهبى وسر الختم مدنى، ومنهم من التحق للعمل فى أعمال حرة وحرف مثل جعفر شرف الدين الذى يعمل فى ورشة لميكانيكا السيارات وهذا النوع من الأعمال نادر لشباب النوبة حيث الغالبية تفضل العمل فى بيوت الأكابر لتوفر السكن إعاشة وإقامة وجعفر شرف الدين ترك الشمندورة منذ نعومة أظافره لعدم انتظامه فى الدراسة فاضطر والده إلى اصطحابه إلى القاهرة حيث يعمل فى خدمة الخواجة نيقولا أما

عبده ساسبان ولقب بذلك اللقب لطوله الفارع مع نحافة جسمه يعمل سائقاً لدى أحد البشوات وهو كمال الدين حشمت باشا الذى يتنقل بين القاهرة وأرياف ضواحيها حيث يمتلك مزرعة ورثها عن أبيه يتردد للإشراف عليها.

هذه الرفقة من الفتيان والشباب من النوبيين يلتقون فى عطلة نهاية الأسبوع بمقهى الشروق بحى عابدين يقضون فيها حتى وقت متأخر من الليل بل حتى الساعات الأولى من فجر اليوم التالى؛ وبذلك وجد أش الله عوضًا عن شكرى ومصطفى أبا يزيد وغيرهما من زملاء وصحبة مدرسة الشمندورة وعنيبة.

وقلق سيف الدين باشرى لهذه السهرة ولكن مما خفف الوطء عليه أنه يعرف تلك الرفقة والصحبة التى يقضى معهم أش الله السهرة ومع مرور الأيام زادت الصحبة عددًا وتشعبت موضوعات الحديث والسمر وتوحد الشعور ونما التفكير لديهم والوعى لدى هذه المجموعة ولم لا؟!!

إنهم من طبقة واحدة كادحة ومن حقها أن تستمتع بخيرات مصر فلم يولدوا وآباؤهم عبيدًا لتلك الفئة من الطبقة الأرستقراطية من علية القوم والأكابر وتولد لديهم شعور بالظلم والانتقاص والحقد والبغض.

ويظهر ذلك جليًا عندما سأل أش الله والده فى أكثر من مناسبة:

- من أين للخواجة اليكس وأمثاله بهذه الثروة الطائلة؟

فيجيب سيف الدين قائلاً:

- إن اليكس وأمثاله أجانب عن هذا البلد ولم نعلم عن آبائهم شيئًا وليس لنا أن نسأل.

فيرد أش الله مستنكرًا: يتمتعون بخيرات مصر ونحن محرومون؟ ينعمون ونحن نعانى من الفقر والحاجة؟!!

ويحاول سيف الدين أن يهدئ من ثورته قائلاً: إنهم يجزلون لنا

العطاء من هدايا وهبات وعندما تصاحبنى إلى فيللا الخواجة اليكس لا يحرمونك من عطاء رغم أنك لم تخدمهم مثلى؟!! الم يتعهدالخواجة نيقولا بجعفر شرف الدين فى ورشة الميكانيكا؟!! ألم يجزلوا العطاء لعبده ساسبان وخصصوا له مسكنًا فى بدروم الفيلا عندما جلب زوجته..... فما أكثر أياديهم البيضاء؟!! ويعلق أش الله على كل ما سمع قائلاً: الخير خير بلدنا مصر.... ويأخذون من مصر أكثر مما يعطون.... ولولا مصر ما تنعموا بهذا النعيم وما لبثوا فى سعة ورغد من العيش ويرتفع صوته فى نبرة حماسية (محروسة يا مصر.... محروسة يا مصر)

ويعلق والده قائلاً: مصر خيرها على الجميع وهى كنانة الله فى أرضه؟

عند إذ يحول أش الله مجرى الحديث لعله لم يقتنع بتلك المبررات لوالده ويطرح سؤالاً آخر: وما بال بعض الزملاء فى المدرسة يطلقون عليه لقب (بربرى) سخرية وتهكمًا منه ويشعرونه أنه يختلف عن غيره من المصريين ويكشف أش الله عما يثقل صدره لأبيه سيف الدين فيشرح له ذلك ويعلل بأن السخرية والتهكم نتيجه للغيرة ولا تكون الغيرة غير المحمودة إلا من الأحسن والأفضل غيرة ممزوجة بالحقد لنبوغه بينهم ثم يطمئن سيف الدين ابنه أش الله ويوضح له حقيقة هذا اللقب قائلا: إن كلمة بربرى لا صلة لها ولا أصل لننتمى إليها نحن النوبيين لا تاريخيًا ولا جغرافيًا ولا حضاريًا ومن دواعى الأسف الشديد أن هذه الكلمة لا يسمى بها النوبيون إلا فى مصر أما باقى الأمم فلا يعرفون غير كلمة نوبة والنوبيون وقد أطلقت مصلحة الإحصاء والتعداد هذه الكلمة (بربرى) فى تعداد سنة ١٩١٧ ورأى النوبيون أنه من واجبهم أن يلفتوا النظر إلى استبدالها بكلمة النوبيين ونزل هذا البيان والتوضيح بردًا وسلامًا على صدر أش الله المثقل بالهموم ليجد الحجة الدامغة والدفاع عن نفسه والنوبيين بوجه عام من الانتساب لهذه الكلمة.

ويرى أش الله أن الفرصة سانحة أمامه ليستوضح ما غمض عليه

وبخاصة يعرف أن والده مولع بتاريخ النوبة والنوبيين وغرس فيه هذا الشغف والاهتمام حتى يكون عالمًا بهويته وتاريخه وأصوله النوبية فسأل أش الله والده منتهزًا الفرصة وسعة صدر والده:

لقد سمعت من بعض الزملاء فى المدرسة أن النوبة والنوبيين حديثى العهد بالإسلام وقد اعتنقوها رهبة وعنوة حيث سار إليهم عبد الله بن أبى السرح فى جيش جرار.

فاعتدل سيف الدين فى جلسته يوضح الأمر لابنه أش الله ويخبره بالحقيقة دون زيف وسرد له قصة دخول الإسلام إلى النوبة قائلاً: فى سنة ٦٤١ م قام عمرو بن العاص قائد الخليفة عمر بن الخطاب بغزو مصر ثم فى سنة ٦٥٢م حدث تمرد فى بلاد النوبة فسار إليها عبد الله بن أبى السرح فى جيش حتى وصل إلى دنقلة ودمرت قواته المدينة بما فيها الكنيسة العتيقة بواسطة الصخور التى يقذفها المنجنيق فوافق الملك (كوليدوزو) ملك النوبة على أن يدفع جزية سنوية لعمرو بن العاص (٣٦٥ من العبيد) وتدل المعاهدة اللتى فرضها عمرو بن العاص على العدالة المطلقة والتسامح نحو الديانة المسيحية، ومن بنود هذه المعاهدة عبور الحدود للجانبين بصفة مسافرين وليس لغرض الإقامة ولهم حق الحماية وأن لا يأووا عبيدًا فارين من المسلمين وأن يحترموا ويعتنوا بأمر المسجد القائم فى مدينتهم، ولكن لم تكن هناك فقرة فى المعاهدة تنص على وجوب اعتناق الدين الإسلامى وبمرور الأيام اعتنق أهل النوبة الإسلام باقتناع كامل متأثرين بسلوك وأخلاق المسلمين وليس بحد السيف رهبة ولم يتخلف منهم أحد من الدخول فى الإسلام فأسلموا كافة عامة وانتشر الإسلام بينهم وعم النوبة كلها ولم تجد بينهم غير المسلمين؛ فقد دخلوا الإسلام طواعية دون قهر أو إجبار.

مقهى الشروق

يتكرر اللقاء الأسبوعى بمقهى الشروق ويتطرق الحديث فيه إلى شتى الموضوعات التى تهم النوبيين وتلك الرفقة والأصحاب بوجه خاص؛ فيتحدثون عن تفاوت الطبقات والفوارق الاجتماعية إلى حد كبير وعن الطوفان وعواقبه وطغيان النيل الذى ما زال يطارد النوبيين فلا استقرار اجتماعى ولا نفسى دائمًا يهددهم شبح الغرق كما يتناقشون فيما يكتبه عبده كندنونة فى صحيفة شلفاج.

أش الله سيف الدين يلتقى بمبروك عبد الفضيل ورضوان جمعة فهم أكبر منه سنًّا وأوسع إدراكًا لكل ما يجرى من أحداث فيثيرون فيه عدة تساؤلات يفجرها فى مقهى الشروق فخيرات مصر ينعم بها غيرهم من تلك الفئة التى تأمر وتنهى وما على آبائهم إلا الطاعة والولاء نظير أجر زهيد يتقاضونه فى قناعة من الخواجة نيكولا واليكس والقنصل بيكو وكمال الدين حشمت باشا وغيرهم من أكابر القوم فما المخرج وأين الملاذ والملجأ؟ ليس إلا سلاح العلم؛ فالتعليم هو القادر على أن ينقلهم من طبقة لأخرى أو هو على الأقل السبيل لإيجاد فرصة عمل وباب لكسب الرزق يختلف عن آبائهم ينقلهم من الخدمة فى بيوت الأكابر إلى الوظائف الحكومية الأميرية ، وهكذا غرست هذه التساؤلات وتلك المناقشات والآراء فى نفس أش الله وزملائه وشجعت فيهم وأثارت روح الحماس والرغبة فى التعليم والحصول على مؤهل مناسب؛ ولذلك تحمست تلك الفئة لمشروع القرش وجمعية مساعدة الطلبة النوبيين وانضم الكثير من شباب النوبة إلى اللقاء الأسبوعى فى مقهى الشروق، وتحول اللقاء

إلى لقاء سياسى واجتماعى وأدبى يتدارسون شعر وكتابات عبده كندنونة التى يقرأها عليهم أش الله إذ يناجى الأقدار:

تالله لن ننساك يا نوبة وشمسك لن تغيب

شاءت الأقدار وآمنا بما كان من النصيب

رياه الهمنا بصبر فمن سواك بمستجيب

وعزم رواد مقهى الشروق من تلك النخبة من أبناء النوبة على أن يجوبوا القاهرة وضواحيها التى يسكنها النوبيون والسعى لتعزيز ودعم مشروع القرش ونشر الوعى بأهمية التعليم والهدف من تجميع تلك القروش وإرسالها إلى القائمين بتوزيعه على الطلاب المستهدفين، وقسمت أحياء القاهرة إلى أقسام يتحمل كل منهم مهمة التجميع والتحصيل وأتاح هذا المشروع لتلك النخبة من رواد مقهى الشروق الفرصة لاتساع دائرة معارفهم واللقاء مع جميع النازحين إلى القاهرة من النوبيين وتطوع عبده ساسابان لنقلهم إلى الأحياء البعيدة المتطرفة كلما وجد الفرصة فى فسحة من الوقت بعيدًا عن مخدومه كمال الدين حشمت باشا ، وشملت فكرة مشروع القرش النوبيين فى القاهرة والإسكندرية وبقية المدن الكبرى وتحمسوا للمشروع ومنهم الشباب والشيوخ وقد جمع بين النوبيين فى القاهرة والإسكندرية كثير من مناسبات الأفراح والأحزان؛ فالتكافل الاجتماعى والترابط من السمات المميزة للنوبيين.

ووصل إلى أسماعهم شعر وكتابات عبده كندنونة وتحولت شلفاج إلى نشرة دورية بين النوبيين بالقاهرة والإسكندرية ومن المعجبين بعبده كندنونة من شباب الإسكندرية مرجان دهب الذى يعمل فى خدمة أرملة عجوز من الأرمن الذين استقروا بالإسكندرية وتدعى مدام تريزا تسكن فى فيلا بحى أسبورتينج وتستعين به فى إدارة محل للمخبوزات الشرقية ويقيم فى بدروم الفيلا الذى يحتوى على تسع غرف؛ ولذا وجد الفرصة فى استضافة

الكثير من أبناء الشمندورة الذين يفدون إلى الإسكندرية بحثًا عن فرصة عمل فيساعدهم فى الحصول على عمل مناسب لاتساع دائرة معارفه وتعامله مع عملاء المحل ومعارف مدام تريزا مع أنه قد استأجر شقة خاصة به ويلتقى بالبدروم الكثير من الشباب فى يوم الراحة الأسبوعية، وبذلك تتجمع لديه أخبار الشمندورة من الواردين والمغادرين، ومما كان سببًا فى تلاحمه مع رواد مقهى الشروق تلك الزيارات المتكررة لمدام تريزا لابن شقيقها بالقاهرة حيث يقوم مرجان دهب بتوصيلها إلى القاهرة، فهو السائق الخصوصى لها فلا يترك فرصة يكون فيها بالقاهرة إلا ويلتقى بأش الله وزملائه، ومرجان دهب هو القناة الذى ينقل أخبار النوبيين بين القاهرة والإسكندرية. أما زوجته شربات يرجع أصولها إلى مدينة بنها حيث نزحت أسرتها إلى الإسكندرية ويعمل والدها لدى مدام تريزا وكيلاً عنها فى ضبط حسابات المحل بالإضافة إلى مهارته وكفاءته العالية فى فن صناعة المخبوزات الشرقية سنوات طويلة، ولما كانت شربات على درجة من التعليم تجيد مسك الدفاتر وترافق والدها فى نهاية السنة المالية تساعده فى ضبط الحسابات والمراجعة، ففى تلك الأيام من السنة تكلف مدام تريزا مرجان دهب بأن يقوم بتوصيل شربات ووالدها إلى مقر سكنهم فى حى بحرى بالمنشية وبذلك تعرف مرجان دهب على أسرة شربات وتوطدت العلاقة بينهم من تكرار زياراته لمنزلهم واطمأنت إليه الأسرة وكما سحره جمال شربات ذات البشرة البيضاء والروح المرحة التى اتصفت بها وتقدم للزواج منها ولقى طلبه قبولاً لدى أهل شربات، وانتقل من بدروم الفيلا إلى شقته ومن خلال مرجان دهب تتعرف شربات على معظم نساء وعائلات النوبيين وبخاصة نساء الشمندورة بالإسكندرية فى الأحياء المتعددة الرمل والعصافرة ومحرم بيك والعطارين وكوم الدكة؛ فى تلك المناطق الشعبية التى يسكنها كثير من النوبيين واستطاعت أن تتعلم بعض الكلمات

والعبارات النوبية وبلباقة حديثها وحسن عشرتها تمكنت من أن تأخذ بالألباب وتكسب حب ومودة النوبيين رجالاً ونساءً، كما أنها سحرت مرجان بجمالها الفاتن ولسانها الندى وحديثها الحلو الشيق والمنمق أحيانًا وكما يقول النوبيون فى أمثالهم (الكلام الحلو يخرج الحية من جحرها)، وهكذا بشباك وحيل النساء ودهائهن استطاعت شربات أن تفوز بمرجان وتأسره بوثاق الحب واستطاعت أن تحبسه عن التردد إلى الشمندورة مع الأكتوبريين.

كتابات وأشعار عبده كندنونة وتلك النخبة فى مقهى الشروق بعثت الروح فى مرجان دهب ليرتبط بالشمندورة ويفكر فى قضايا النوبة ويشعر بما يشعر به النوبيون وقد شعر مرجان دهب أن زواجه من شربات قد نقلته من طبقة لأخرى، فمثل مرجان دهب فى الشمندورة لن يتزوج إلا من ذوى البشرة السمراء ذات الشفاه الغليظة والشعر الأكرت والأنف الأفطس ولكنه ها هو الآن قد تزوج فى الإسكندرية من شقراء غضة بضة ذات خصلات مسترسلة تموج كموج البحر فى ليل مظلم داجى ذات قوام متناسق إذا سارت كانت على مهل تهتز أعطافها لبساطة جسمها.

وعلى ذلك فهى على درجة من التعليم بينما لم يتعلم مرجان دهب غير مبادئ القراءة والكتابة والحساب فى كتاب القرية ومدرسة الشمندورة فقد اكتفى بذلك لظروفه المادية والآن فهو فى غاية السعادة والاستقرار الأسرى فرحًا بما وهبه الله من شربات بذكر وأنثى بشير وبشاير فما زال يحتفظ بتلك الأسماء[1] التى يسمى بها بنى جنسه فى الشمندورة ولذلك سمى أولاده بشير وبشاير يستبشر بهما خيرًا وتفاؤلاً.

---

(1) كان السادة يتفاءلون بمواليهم ويطلقون عليهم أسماء تدل على التفاؤل أو توحى بالقيمة العالية أو المنزلة فيسمون بـ(دهب – فضة – مرجان – ياقوت – مبارك – مبروك –خير – فضل؟...... إلخ).

الشلال

مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين فى معلمين أسوان كل طموحهما أن يعودا إلى الشمندورة ويحصلون على لقب أفندى ومعلمين بمدرسة الشمندورة ولم يشعرا بالغربة فى أسوان فهى زاخرة بأهل الشمندورة والنوبة الذين نزحوا إليها باحثين عن فرصة عمل وباب رزق كما نزح إليها البعض عند الفيضان وطغيان النيل وبناء وتعلية الخزان؛ فيلتقون بهم ويتعرفون عليهم من مختلف قرى النوبة فيفخرون بهم إذ يعقدون عليهم الآمال ليحملوا مشاعل العلم والتنوير لأجيال قادمة ولمستقبل زاهر لبلاد النوبة القابعة فى أقصى الجنوب ويحملون على عاتقهم قضايا النوبة وهمومها من تعويضات هزيلة والنيل الذى يتعقبهم بالطوفان ينذرهم بالغرق والضياع واشرأبت الأعناق عندما وجد بين الطلاب الفتيان اثنتان من الفتيات حظيتا بفرصة سانحة لاستكمال التعليم بعيدًا عن الشمندورة رغم النظرة إلى تعليم البنات؛ وهما سعدية بنت الشيخ عبد الله شيخ الناحية والثانية زهرة بنت سعيد وكيل مكتب بريد الشمندورة.

ولم ينس مصطفى أبا يزيد ولا شكرى حسنين خليل أفندى وكلما وجدوا فرصة سألوا عنه أولئك النازحين من الشمندورة إلى أسوان ولكن لم يجدوا إجابة شافية تشفى ما فى صدورهما من اشتياق ولهفة على أخباره ولم يسمعوا بجديد ولقد تغيرت الحياة فى أسوان عن الحياة فى الشمندورة أو عنيبة؛ فقد خرجوا إلى شوارع أسوان يتجولون فى أحيائها وانتهى بهم المطاف إلى مقهى للاستراحة ولأول مرة يسمعوا فيها عن شئ اسمه الكوكاكولا ، فقد امتثل

صبى المقهى أمامهما يسألهما السؤال المعتاد:

- طلبات السادة سخنًا أم باردًا؟

ومن حب الاستطلاع لديهم فقد طلبوا باردًا على اعتقاد أنه مشروب يختلف عن الشاى وحلف البر والحرجل مما اعتادوا عليه فى الشمندورة فسأل الصبى قائلاً:

كوكاكولا؟

فنظر كل منهما للآخر وقد فتح فاه وتسمرت عيناه فى جبهته من الدهشة والتعجب وكأنهما يسمعان عن الكبريت الأصفر فلم ينطقا بكلمة.

فردد الصبى السؤال وأجاب على نفسه كوكاكولا طبعًا!! وانصرف.

بعد فترة من الصمت أفاقا من الدهشة وسأل كل منهما الآخر:

ماذا يقول الصبى كوكاكولا... كوكاكولا... وما هى الكوكاكولا؟!!

وينطق كل منهما كلمة الكوكاكولا بصعوبة بالغة.

وسرعان ما عاد الصبى يحمل زجاجتين من الكوكاكولا وكوبين فى صينية ويضعها أمامهما وينصرف فيقول كل منهما للآخر هذه هى الكوكاكولا ويتساءلان وماذا نفعل بالكوبين الفارغين ويتلفتان حولهما فإذا ببعض من زبائن المقهى يصب محتوى الزجاجة فى الكوب ويضع الزجاجة جانبًا فقام كل منهما يقلد ما يرى ويصب محتوى الزجاجة فى الكوب فإذا بالفقاعات تتصاعد وتصدر هديرًا كموج البحر، فما هى إلا مياه غازية وارتفعت الفقاعات حتى كادت أن تنسكب على المنضدة من الكوب وظل شكرى حسنين ومصطفى أبا يزيد يضحكان مما يرونه أمامهما فهذه هى المرة الأولى التى يروا فيها الكوكاكولا حيث لم يسمعا

عنه من قبل وحمل كل منهما الكوب إلى فمه ليتذوق طعمه وما كادوا يتذوقونه حتى قالا: الله... الله... استحساناً لطعمه فإنه يختلف عما تعودا عليه ويعلق شكرى حسنين قائلاً:

عشنا وشفنا الكوكاكولا ويرد عليه مصطفى أبا يزيد:

واللى يعيش ياما يشوف فيرد شكرى حسنين: واللى ييجى أسوان يشوف أكثر.

ويقترح شكرى حسنين على مصطفى أن يزورا الشلال ليشاهدوا ما سمعوه عن الشلال فمن رأى ليس كمن سمع!! ووافق مصطفى أبا يزيد على الاقتراح وتوجها إلى الشلال حيث هى ملتقى المسافرين من الشمال إلى الجنوب من القاهرة والإسكندرية إلى بلاد النوبة وحلفا والعكس ملتقى السكة الحديد بالباخرة النيلية وليس من سمع كمن رأى.

هذا الملتقى فى الشلال جعل الشلال مركزًا تجاريًا أو سوقًا تجاريًا كبيرًا ومورد رزق لأهل الشلال والمنطقة المجاورة إذ يبيعون للمسافرين ما يحتاجونه من زاد وزوادة من طعام وشراب ومنتجات سودانية واردة من حلفا والمصنوعات النوبية مثل الطواقى من خيوط الحرير والقطن والقماش ومشغولات الخوص والجريد والخيط والخرز؛ من أوانٍ ومراوح يدوية وأقمشة للعمائم والثياب (السكروتة) وغيرها ومصنوعات جلدية وبلاستيكية من أحذية (الشدة والمتين والبلغة) وغيرها من المصنوعات الجلدية المدبوغة ومن الأطعمة مثل البيض والحلاوة الطحينية والخبز والشاى والسكر والأدخنة وما إلى ذلك مما يحتاجه المسافرين المتجهون جنوبًا أو شمالاً وقد يمكث المسافرون أكثر من يوم فى انتظار الباخرة أو القطار للاتجاه جنوبًا أو شمالاً لذلك لا بد أن يتزود المسافر من سوق السلال باحتياجاته فى سفره والانتظار فى العراء يشكل مشكلة فقد كثرت شكاوى المسافرين من النوبيين من حوادث

سرقة أمتعتهم فى الشلال وطالبو بعمل أصحاب الأكشاك على راحة المسافرين وطمأنينتهم كما طالبوا مصلحة السكة الحديد بإعداد مظلات واقية من الشمس.

ولذلك طالب نائب الدر محمد بيك طه صاحب السعادة مدير عموم سكك حديد الحكومة أن يجعل القطار الطوالى يواصل سيره إلى الشلال أيام ذهاب وإياب الوابور النيلى العادى من أنحاء مركز الدر بدلاً من الانتقال من قطار إلى قطار فى الأقصر وردت السكة الحديد على هذا الطلب تأسف لعدم إمكانها إجابة لهذا الطلب غير أنه مراعاة لراحة سكان المركز قد أصدرت تعليماتها بإضافة عربة درجة ثالثة من مركبات القطار رقم ٨٩ للقطار رقم ٩ لنقل الركاب وفى أسوان تفصل من هذا القطار وتضاف على القطار رقم ٨٩ الذى يقوم إلى مصر فى الذهاب موافقاً لمواعيد الباخرة النيلية وفى الإياب عربة درجة ثالثة فى ذيل القطار رقم ٨٨ وفى أسوان تفصل هذه العربة والحاقها بالقطار رقم ١٢ وبهذة الطريقة يتجنب الركاب مشقة ومتاعب الانتقال إلى قطار إلى قطار.

ولأول مرة يرى كل من شكرى حسنين ومصطفى أبا يزيد الذى يسير على السكة الحديد الذى سمعوا عنه كثيرًا ورأوا صورته مرسومًا فى الكتاب.

التقى مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين بالكثير من المسافرين من أهل النوبة والشمندورة إلى القاهرة والنوبة وسمعوا أخبارًا لا تسر ولا تطمئن فالحرب دائرة وتأثرت القاهرة والأقاليم بهذه الحرب كما تأثرت قرى النوبة فى الجنوب فقد تعذر الحصول على القمح والدقيق إذ تنفرد به معسكرات جنود الإنجليز والمعاناة كل المعاناه فى المواد التموينية وفى قرى النوبة أشد وطأة وحدة وتحدث القادمون من الشمندورة والنوبة أن الحصول على المواد التموينية صعب وعسير؛ فقد ينتقلون مسافات ومسافات إلى

كروسكو أو توماس وعافية حيث تصل إليها من السودان بالطريق البرى لدى التجار ومما يذكرونه أنه وردت كميات من الدقيق رديئة وأقل جودة (فاتريت) من الدقيق العادى ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ولا مفر من استخدامه رغم رداءته دون النظر إلى الجودة كما كانت الأزمة فى السكر تجعل النوبيين يستخدمون حبات من التمر بديلاً عن السكر مع كوب الشاى أما الأطعمة بطبيعة الحال فالنوبيون يقتصرون على أنواع معينة فالوجبة الرئيسية من أنواع البقول الجافة بالإضافة إلى أنواع الخضار المحدودة أما بقية الوجبات فهى من اللبن الحليب والرايب والبيض والعصيدة البيضاء والسودانية الخضراء والعسل الأسود.

وفى هذه الأزمة والمعاناة استغنى النوبيون عن الدقيق لأن العثور عليه أصبح أشبه بالمستحيل فلجأ أهل الشمندورة والنوبة إلى أوراق النباتات المختلفة وبخاصة أوراق اللوبيا يقطفونها وتطبخ فى القدور بأن تغلى فى الماء مع رأس بصل وقليل من الملح وتغلى جيدًا وتعالج بالمفراك حتى تشكل وتتحول إلى قوام ثقيل متجانس فيأكلونه بديلاً عن الخبز والخضار معًا وكان هذا الطعام متاحًا لعامة الناس وغالبيتهم.

وتذكروا التنبيه الذى مضى عليه سنوات وفزعوا فقد تنبه على الأهالى من النوبيين فى أيام الحرب العالمية بأن لا ينزعجوا إذا مر فى السماء شئ ضخم ذو صوت عالى وأزيز مدوى فهو ذلك الذى يسمى (بالطائرة) فقد تذكرا ذلك التنبيه الذى كان من سنوات.

وتأثر مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين بهذه الأحداث التى سمعوها فى الشلال وعند العودة إلى زملائهم بمدرسة المعلمين يلتقون بهم ويجلسون معًا يبثون همومهم ويتحدثون عن أحلامهم وآمالهم وآلامهم ومصير النوبة والشمندورة فى أقصى الجنوب ومستقبلهم المرتبط بالنيل والفيضان الذى يتعقبهم سنوات وسنوات فمازالوا فى هجرة وتنقل وترحال ويتساءلون لماذا لم تتح لهم الفرصة

ليلتحقوا بمختلف نوعيات ومعاهد التعليم؟!! أو مجالات الوظائف المتنوعة فليس أمامهم إلا معلمين أسوان والقليل النادر ينتقل إلى القاهرة إذا سمحت ظروفه إلى المدرسة الصناعية؟!!

لماذا لا تكون الفرصة أمامهم متاحة حتى يكونوا مثل طبيب مستشفى عنيبة أو الطبيب المتنقل فى قطعة بحرية على شاطئ النيل؟!! لماذا لا يصبح أحدهم قاضيًا مثل قاضى محكمة عنيبة الذى يجلس على المنصة يسمع له رأى ولا يرد له حكم؟!! ولماذا لا تكون لهم فرصة ليكونوا مثل ضابط الشرطة بمركز عنيبة الذى يتيه بتلك القطع النحاسية الصفراء اللامعة تعلو كتفه فيأمر وينهى ويطاع طوعًا وكراهيةً بإشارة منه؟!!.

ويجدون عزاءهم بإقناع أنفسهم بأنهم أسعد حظًا من أولئك الذين انقطعوا عن مدرسة الشمندورة لظروف اجتماعية واقتصادية مادية أو للخدمة فى الأرض الزراعية فالأرض الزراعية وظروف المجتمع الزراعى تحتاج إلى مساعدة الأبناء للآباء ولذا فقد اكتفى البعض بالدراسة فى مدرسة الشمندورة أو انقطع خلال المرحلة ولم يطمح فى مواصلة التعليم وأحيانًا يكون هو العائل الوحيد للأسرة فيحمل على كاهله هموم أسرته أو غير ذلك من الأسباب والعلل.

وهكذا تناولت تلك النخبة من طلاب الشمندورة والنوبة بمعلمين أسوان تناولت أحوالهم وذويهم بالدراسة والتحليل والتعليل والتمحيص وانتهوا إلى أن العين بصيرة واليد قصيرة كما يقال ويظل الحال إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا.

كندنونة فى القاهرة

انتهى العام الدراسى وأنهى عبده كندنونة تعليمه بمدرسة عنيبة وقد عقد العزم على السفر إلى القاهرة لاستكمال تعليمه واختار كلية الحقوق لأنه شعر من داخله أن هناك كثيرًا من المظلومين وعليه أن يناصر الحق أينما كان.

الظروف المادية التى تحيط بعبده كندنونة هى بعينها تلك الظروف التى تحيط بالغالبية العظمى من أبناء النوبة الفقر ومشكلة الإقامة والإعاشة ونفقات التعليم فى مدينة مثل القاهرة بكل ما فيها ولذا عليه الاعتماد على نفسه؛ ففكر فى أن يلتحق بعمل مناسب يحقق له ما يتمناه نزل عبد كندنونة القاهرة ولأول مرة فى حياته يأتى إلى القاهرة واستقبله زميله وصديق الشمندورة أش الله سيف الدين وتلك النخبة من شباب النوبة وفتيانها الذين يتجمعون فى مقهى الشروق وقدمه أش الله إلى زملائه باللقب الذى عرف به بالقاهرة قبل حضوره إليها (الشاعر الموهوب) الذى يعبر عن آلام وآمال النوبيين فى صحيفة شلفاج ومن خلال أش الله وزملائه تعرف عبده كندنونة والتقى برضوان جمعة الذى يكبره بسنوات وكان اللقاء تلبية لرغبة عبده كندنونة حيث سمع عنه الكثير؛ نوبيًّا متحمسًا لقضايا النوبة والنوبيين ويميل إلى تلك الطبقة الفقيرة المحرومة من شعب مصر واعتبار النوبيين جزءًا من هذا الشعب، تعرض للسجن أكثر من مرة مدافعًا عن رأيه ومتمسكًا بالمبدأ.

وحاول أش الله أن يزيد من عزيمة عبده كندنونة ويحثه على مواصلة التعليم فقدم له مبروك عبد الفضيل ليقتدى به مثالاً لتحمل الصعاب فقد التحق مبروك بالأزهر الشريف الذى يصرف إعانة قدرها ثلاث جنيهات بالإضافة إلى جنيه من مجلس الوزراء ومن الغريب أن أبناء النوبة كانوا فى نظر الأزهر غرباء ويجمعهم مع الطلبة السودانيين رواق يسمى (رواق شمال السودان).

أما مكى مراد ومبروك عبد الفضيل يبديان إعجابهما بكتابات عبده كندنونة وأشعاره التى تنبض بمشاعر وأحاسيس النوبيين ويعرضون عليه أن يستمر فى الكتابة فى المجلات والمطبوعات التى تصدر عن النوبيين مثل (مجلة النوبة ومصباح النوبة والنوبة الحديثة وغيرها) على أن يقدموه ويمهدوا له الطريق لدى تلك المجلات والمطبوعات، وأما عبده ساسبان ففى أشد الشوق إلى رؤية ولقاء عبده كندنونة وقد اقتطع جزءًا من وقته ليلتقى به ويبدى إعجابه ويقدم له يد العون فقد سمع من أش الله برغبة عبده كندنونة فى مواصلة التعليم وأنه لذلك فى حاجة إلى فرصة عمل توفر له حياة كريمة وتعليم أفضل؛ لذا فقد توسط لدى مخدومه كمال الدين حشمت باشا الذى يبحث عن مساعد يعاونه فى ضبط حسابات المزرعة.

وتعرف عبده كندنونة على زملائه من النوبيين حامد خليل ومكى مراد فى كلية الحقوق وأمين عبد الرحيم فى كلية الطب وفتح الله محى الدين فى كلية التجارة وغيرهم وتوطدت العلاقة بينه وبينهم وكثر عدد شباب النوبة فى مقهى الشروق، كما انضم إليهم الكبار ممن يهتمون بأمر النوبة والنوبيين وأقلقهم البوليس الذى تردد على المقهى يلقى القبض على البعض منهم وذلك حيث يفد إلى المقهى النازحين من النوبة والشمندورة يبحثون عن فرصة عمل وباب من الرزق؛ فمن المقهى يتوجهون إلى العمل المؤقت لمدة

أيام إذا كانت هناك وليمة فى أحد بيوت الأكابر فى القصور والفلل عمالة مؤقتة (أكسترا) لحين الفرصة فى عمل دائم فإذا داهم البوليس المقهى ولم يثبت مكان عملهم يقتادون إلى مركز الشرطة للحجز ويلاقوا الإهانة حتى يثبتوا شخصيتهم وهويتهم وبخاصة أنهم لم يكونوا معروفين لدى شيخ الناحية ليضمنهم فنزوحهم إلى القاهرة من وقت قريب ولم يتعرف عليهم شيخ الناحية ومن هنا كانت فكرة تعيين شخصية يعترف بها البوليس ليضمن كل النوبيين ويتعهدهم بالرعاية والتوكيل عنهم لدى البوليس وتم استحسان الفكرة وعين فى مختلف أحياء القاهرة عمدة (شيخ ناحية) من النوبيين.

ووسط هذه الأحداث والوعى وحماس شباب الجامعة والإحساس بالظلم والفساد للشعب المصرى بوجه عام كانت أحداث كوبرى عباس الشهيرة ومظاهرات طلبة الجامعة ومن الطلبة النوبيين من زج بهم فى هذه الأحداث وتعرض للسجن والاعتقال وقد أشفق البعض من ذوى الخبرة والبصيرة على تلك الفئة من الشباب النوبى الذى يتعلم فى الجامعة وحذرهم من أن ينزلقوا فى جماعات تحوم حولها الشبهات وطلبوا منهم أن يبتعدوا عما لا لزوم له من التعرض للشر حيث يمكنهم أن يؤدوا واجبهم وهم بعيدون عن كل خطر وشر وأن يكون شغلهم الشاغل الجد والاجتهاد والاهتمام بالتعليم وأن يكون هدفهم الحصول على مؤهلات علمية تبعدهم عن تلك الأعمال المعتادة للنوبيين من خدمة فى بيوت الأكابر وعلية القوم ويساعدهم على الالتحاق بوظائف حكومية أفضل مكانة ومنزلة وتحق لهم حياة كريمة ووضع اجتماعى مناسب؛ فالنوبة فى حاجة إلى شباب واع يحمل على عاتقه آمال وآلام النوبة ويأخذون بيدها إلى سلم الرقى والتقدم.

وتسمع تلك الفئة من شباب الجامعة ورواد مقهى الشروق

بالأستاذ سليمان عجيب[1] عميد الشباب النوبى وقد سمع بشعر عبده كندنونة فسليمان عجيب يقرض الشعر ومتمكن فيه ومن الذين يحبون الشباب المثقف الواعى ودعا إلى تجمع نوبى فهو أول من نادى بتجميع النوبيين وأنشأ فى سنة ١٩٣٦ دار الشباب النوبى متمسكًا بالمبدأ والهدف وقد عرض عليه أن ينضم إلى حزب الكتلة على وعد بأن يرشح وزيرًا عند أول حكومة ائتلافية يشارك فيها حزب الكتلة فقال لمن عرض عليه ذلك: (لتعلم يا باشا أنه لو بقى عضو واحد فى حزب الوفد سيكون هو سليمان عجيب) ومما أعجب سليمان عجيب من شعر عبده كندنونة ما تغنى به فى حب مصر

وطنى لو خيرت بينك وبين روحى يا وطنى

لاخترتك دون تردد وقلت أنت يا وطنى

مهد الحضارة اسلمى كنانة الله أنت يا وطنى

فداؤك أبى وأمى وما استأثرت يا وطنى

ولما زاد الإحساس بالقهر الطبقى وكراهية الاستعمار حيث يعربد الجنود الإنجليز فى شوارع القاهرة وما النوبيون إلا جزء لا يتجزأ من الشعب المصرى بوجه عام يوجه الجيش ضرباته إلى الوطنيين ومختلف التنظيمات ويلقى القبض على الكثير ومن بينهم حامد خليل ومكى مراد ورضوان جمعة ومبروك عبد الفضيل والاتهام المعهود وهو الاتصال أو الانضمام لتنظيمات أو جماعات غير مرغوب فيها.

وتوقف عبده كندنونة فى هذه الفترة فقد نصحه البعض بأن يتريث حتى تمر العاصفة ويهدأ ذلك الموج العالى بسلام ربما تكون

---

(1) هو سليمان حسن عجيب من قرية الديوان ونزح إلى قرية بلانة مع من نزحوا لظروف طغيان المياه عند تعلية الخزان.

كتاباته سببًا فى إلقاء القبض عليه أو يفصل من الدراسة بالكلية ولا يتمكن من مواصلة التعليم فى الجامعة كما حدث للبعض من الزملاء ويفقد الأمل فسمع النصيحة ولكن البوليس تتبع خطواتة وألقى القبض عليه وأودع السجن.



الوباء

الشمندورة فى هلع وفزع والطوارئ معلنة فى كل بيت فيسمع صباحًا أن فلان مريض ودرجة حرارته عالية وفى المساء يسمع الخبر فى بيت آخر وفى اليوم التالى فى بيت ثالث ثم رابع وخامس وهكذا مرضى بالجملة وأعراض متشابهة ولا أحد يعرف الحقيقة.

شكرى حسنين يصله مكتوب أن أباه مريض وفى خطر ويواسيه مصطفى أبا يزيد بأن يصبر ويتجالد ويخفف عنه بأن المرض ابتلاء يجب الصبر عليه ولعلها شدة وتزول ويتبع المكتوب بآخر فإن عمته أصيبت بنفس المرض كما يصل إلى مصطفى أبايزيد أن خاله يعانى من ارتفاع فى درجة الحرارة وأنهكت قواه من شدة القىء فهو بين الحياة والموت يصل الخبر بما شابه ذلك إلى مختلف الطلاب بمعلمين أسوان؛ نفس الأعراض ونفس المرض فمنهم الكبير المسن والطفل الصغير والرضيع والشاب اليافع، وهكذا أصاب الهلع والفزع طلاب المعلمين كما أصاب الشمندورة وقرى النوبة وتتوالى البرقيات توفى فلان.... توفيت فلانة فالحالة وباء أصاب الشمندورة والنوبة وشر أحيط بها.

وقد سافر البعض منهم إلى قرى النوبة تاركًا أسوان ليطمئن على الأهل بالشمندورة وقرى النوبة ومن بين الذين أصيبوا بهذا الوباء اللعين بكرى باشرى فقد ارتفعت درجة حرارته واستمر فى القىء وإسهال شديد أنهك قواه وأضعف جسمه وأشار ذوو الخبرة والمعرفة بالعلاج باستخدام الأوصاف البلدية بأن يوضع مخلوط الحناء والخل على كل جسمه وفروة رأسه وجبهته، ثم يوصى آخر

بأن يؤتى بالليمون ويشق نصفين ويدلك بها جسمه وفروة رأسه وجبهته مع شراب حلف البر والحرجل أو الزنجبيل مغليًا ولكن لا نتيجة ولا جدوى أو فائدة مرجوة ويطير قلب أمه من بين جنبيها خوفًا من الخطر على ابنها وعثمان باشرى يسمع بحالات متشابهة نقلت إلى معزل عنيبة ومنهم من تحسنت حالته وفعلاً نقل بكرى إلى معزل الحميات بعنيبة وتم حجزه بها عدة أيام وصرف له العلاج اللازم من أقراص وكبسولات وحقن فى العضل والوريد وشراب علاج مكثف وأعلنت حالة الطوارئ بمستشفى عنيبة، الحالات متكررة بل كل ساعة وتستقبل أعداد كبيرة حتى امتلأت المستشفى عن آخرها وبلغ الإشغال الحد الأقصى وأعداد كبيرة تتوافد من مختلف الأماكن والجهات من أنحاء قرى النوبة تفوق طاقة المستشفى والخروج من المستشفى باعداد كبيرة أيضًا لمن وافته المنية ولفظ بأنفاسه الأخيرة من شيوخ وأطفال، والبعض يتبع تعليمات خبراء الوصفات البلدية بأن يلطخ جسم المريض بطين أسود من طمى قاع النيل ليخفض من درجة الحرارة ولترطيب الجسم وتزال طبقة الطين وتستبدل بأخرى عدة مرات، وعرفت الشمندورة الحقيقية فما هى إلا وباء انتشر وليس له كاشفة إلا رحمة الله تعالى وقضى بكرى فى المستشفى (المعزل) أيامًا وكتبت له النجاة وخرج منها معافى من المرض وشفى بإذن الله وتحذره والدته نبرة من التعرض لأشعة الشمس والبعد عن البحيرات المتجمعة على شاطئ النيل؛ فقد كان كثيرًا ما يخوض فيها لممارسة هوايته المفضلة صيد السمك كما تعود منذ طفولته وصباه.

وامتلأت المقابر بأعداد من الكبار والمسنين والأطفال الصغار الذين لم يتحملوا أعراض هذا الوباء وشدته، ولم ينج إلا القليل النادر وأبيدت أجيال كاملة وانتشر الخبر من خلال مستشفى عنيبة بالتحاليل الطبية والكشف والمتابعة أن الحالة وباء وعلى الأهالى أن

يأخذوا حذرهم من عدوى المرض ولكن لم يمنع الحذر من القدر.

وانتشـر الخـبر وتعـدى قـرى النوبـة ووصـل إلى القـاهرة والإسكندرية حيث توالت برقيات النعى والتعزية وانتقلت نوبة الهلع والفزع إلى أبناء النوبة بهاتين المدينتين حتى أنه كان ينصب للعزاء أكثر من حالة فى اليوم الواحد وأتى هذا الوباء اللعين على البقية الباقية من الأمل وعمت الكآبة والحزن قرى النوبة وبرحمة من الله تعالى تمر هذه النكبة فمات من مات وشفى من شفى ومرت بالشمندورة وقرى النوبة أوقات عصيبة وشديدة ثم تنفرج الكربة بعون الله واعتبرت النوبة هذا الوباء بلاء من الله تعالى ابتليت به ونصبت القدور وأوقدت المواقد تغلى السليقة المعروفة عند النوبيين بـ(الكرامة) وهى مجموعة من حبوب (قمح أو ذرة وكشرنقيق والفول والأرز) تغلى مجتمعة ويضاف إليها قليل من الملح ثم تفرغ فى أطباق ويأكلونه كبارًا وصغارًا على قارعة الطريق وبعد الأكل يرفعون أكف الضراعة والابتهال إلى الله تعالى مقرونة بدعوات مضمونها أن يحفظ الله البلاد والعباد من كل سوء ويرفع البلاء وتعم الرحمة ويختمون الدعوات بقولهم (كرامة سلامة)؛ أى أن هذه الأكلة تقدم قربانًا حمدًا لله تعالى والسلامة من السوء.

مرت هذه النكبة وتذكر النوبيون وباء الملاريا الذى حل بالبلاد منذ سنوات قليلة وبخاصة قرية أبو سمبل حيث مستنقعات (حماية) التى كانت موطنًا لتوالد وتكاثر البعوض المسبب للمرض، وقد أودى بحياة الكثيرين من الأطفال والشيوخ وكالعادة لم يتنبه النوبيون لهذا المرض اللعين واعتقد الكثير أنها حمى عادية أو حالة طارئة وانكبوا على الليمون يشربونه مغليًا وباردًا ويوصون بأن يفصد المريض فى عضلة الساقين (بطن الساق) اعتقادًا أن الأعراض أعراض دم فاسد فيتخلصون منه بذلك على أنه العلاج الناجع ولكن لا جدوى ولا شفاء بل انتقل المرض من بيت

لبيت كالنار فى الهشيم وعمَّ القرى وكانت طامة كبرى تفتك بالنوبيين وراح الكثير ضحية للمرض والجهل ونشطت وحدات مكافحة الملاريا لحصار المرض ومكافحته.

"لك الله يا شمندورة..... لكم الله يا أهل النوبة..... دهمكم الفيضان.... وفجعكم الطوفان..... وفاجأتكم المجاعة وندرة المواد التموينية..... وسقاكم الويل وباء الملاريا والكوليرا وقضى على الشبيبة والشيوخ..

رحماك ربى... رحماك ربى... أنت ولى المستضعفين".



المنكوب الفصيح

زنوبة باشرى تتمتع بذكاء شديد وقدرة عالية فى التحصيل الدراسى ولكنها لم تسلم من سوط العادات والتقاليد وجورها الصارم فلم تستكمل دراستها ويحكم عليها والدها عثمان باشرى كغيرها من الفتيات بأن تكون قعيدة البيت تنتظر فارس أحلامها ولكن بكرى بعد أن أنهى مرحلة التعليم والدراسة بمدرسة الشمندورة يستكمل دراسته ويلتحق بمدرسة عنيبة فى حى فاروق أو الفاروقية وينضم إلى رفاقه الذين سبقوه إليها أمثال عبده كندنونة وجمال باشرى وغيرهم من أبناء النوبة والشمندورة أما بشير محى الدين باشرى فأنه سعيد الحظ فقد أرسل عمه سيف الدين فى طلبه بالقاهرة ولعله يريد بذلك أن يخفف عن محى الدين باشرى عبء النفقات ويخفف عن كاهله فقد كبر فى السن ومع ذلك ما زال يمارس أعمال الحقل والزراعة.

ويلتحق بشير بإحدى مدارس القاهرة فى حى بولاق وبذلك يرد سيف الدين بعضًا من المعروف والجميل لأخيه الأكبر محى الدين الذى تحمل مسئولية محى الدين وعثمان سنوات فله كثيرًا من الأيادى البيضاء على أخوته ذكورًا وأناثًا.

بكرى يطلع على صحيفة شلفاج فتشده موضوعاتها فيقرأ منها أعدادًا فيكبر فى عينيه عبده كندنونة ويشعر أنه تغير عما كان تلميذًا فى مدرسة الشمندورة حيث كان تائهًا لا شأن له ولا وزن ينزل على رأى بكرى دائمًا وكثيرًا ما صحبه فى طريق العودة من المدرسة وأدى به إلى متاهات ومقالب، فقد كان عبده كندنونة تلميذًا

مجتهدًا مشغولاً ومؤديًا للواجبات المنزلية التى يكلف بها من قبل المعلمين بمدرسة الشمندورة واليوم عبده كندنونة كما يراه بكرى قد تغير فهو صاحب الاسم اللامع ورئيس تحرير صحيفة شلفاج وصاحب الرأى والمشورة فيما ينشر أو لا ينشر أو يؤجل وصاحب المكانة والمنزلة الرفيعة لدى الأستاذ همام مدرس اللغة العربية والمشرف على الجماعة الأدبية التى تصدر صحيفة شلفاج الدورية.

ويعود بكرى إلى ابن عمه جمال باشرى الذى يغريه بالخروج ليلاً لإحياء ليالى المرح والطرب فى ليالى العرس والزفاف فيوافقه وينضم إليه وإلى مجموعته ولكن ما زال عقله مشدودًا إلى صحيفة شلفاج وموضوعاتها وما ينشر فيها من أشعار ومقالات لعبده كندنونة وزملائه وينجذب بكرى إلى شلفاج ومجموعة شلفاج أكثر من انجذابه إلى جمال باشرى ورفاق الطرب والغناء، وسرعان ما انصهر فى جماعة شلفاج وتولى مسئولية الكتابة فى عمود بصفة دورية تحت عنوان {الطوفان} متوازيًا ومتواكبًا مع شعر عبده كندنونة ويتحدث عن أثر الطوفان وبناء الخزان وتعليته على النوبيين بوجه عام والشمندورة بوجه خاص، كما تحدث عن تعقب منسوب المياه ارتفاعًا للنوبيين إلى المرتفعات وقمم الجبال ولقى العمود قبولاً وجمهورًا من القراء المتابعين ولا سيما عندما وصلت مقالاته إلى مقهى الشروق بحى عابدين الذين سألوا عن كاتب عمود الطوفان؛ فقد كان يذيل العمود بتوقيع {المنكوب الفصيح} كاسم مستعار وأقبل على دروسه بقلب مفتوح وعقل راجح وأذن واعية يستوعب العلوم وينكب على كتبه ويتفوق على زملائه فقد تغير بكرى قلبًا وقالبًا شكلاً ومضمونًا عمّا كان فى مدرسة الشمندورة صبيًّا لاهيًا عابثًا شقيًا فلكل وقت أذان وللهداية ميعاد، فالحياة فى مدرسة عنيبة وموضوعات شلفاج ومرور الأيام شكلت من بكرى إنسان يتحمل المسئولية نحو نفسه وأهله وذويه

وألقى بعيدًا بحياة الهرج والمرج والصبا بألاعيبها ومشاكساتها.

وفى وقت قصير تحول بكرى إلى طالب متميز محبوب بين الطلاب ومقرب لدى مدرسيه يتمتع بشخصية قيادية ولعل ذلك من آثار الطفولة والصبا فى مدرسة الشمندورة حيث كان يمثل زعيمًا لزملائه يقودهم حيث يريد.

وتصل الأخبار أخبار بكرى وتحوله إلى والده عثمان باشرى بالشمندورة فيسعد بذلك سعادة بالغة ويحمد الله تعالى ويعلق متذكرًا صباه قائلاً: كم من المرات عاقبه عقابًا شديدًا؟!! وكم من المرات أوصى به خليل أفندى ليهوى بعصاته الغليظة جزاءً وفاقًا لأعماله الصبيانية؟!! فأن بكرى اليوم فى مدرسة عنيبة يختلف عن بكرى تلميذًا فى مدرسة الشمندورة.

ينقل بكرى نبض وفكر أهل الشمندورة ويعبر عمّا يكن فى صدور النوبيين فهو المرآة التى تعكس قضية الطوفان، فقد أضاف الكثير لصحيفة شلفاج وخطا بها خطوات ثابتة جادة ومن عدد لآخر يزداد قراء صحيفة شلفاج وعمود الطوفان وينتظرون الجديد دائمًا فقد أعجبوا بما يكتب المنكوب الفصيح:

كل يواسى نفسه يحتار من أمر عجيب

طير الكوارتى يرسل الأنات يبحث عن طبيب

وتراقصت سعف النخيل حزينة تودع من قريب

وبمرور الأيام كثر السؤال والتساؤل عن حقيقة {المنكوب الفصيح} صاحب عمود الطوفان الذى يصرخ من الألم والمعاناة والأسى من آثار الطوفان ولكن لا إجابة عن السؤال والتساؤل حتى صدر الأمر بالموافقة على نقل الأستاذ همام إلى القاهرة بناءً على طلبه فى أوج هذه التطورات وتنظم إدارة المدرسة وطلابها وبخاصة الجماعة الأدبية وأسرة تحرير صحيفة شلفاج حفلاً تكريمًا ووفاءً لما

بذله الأستاذ همام من جهود ودوره الكبير فى مدرسة عنيبة، وكان من بين المتحدثين بكرى باشرى نيابة عن أسرة تحرير صحيفة شلفاج وفى نهاية كلمته شرح بكرى وكشف الغموض وأزاح الستار واضعًا الحل للغز الذى احتار فيه الجميع يتساءلون ويفصح عن شخصية {المنكوب الفصيح}، وينسب الفضل فى نبوغه ونجاحه فى عمود الطوفان إلى تشجيع الأستاذ همام ويصرح أنه تردد فى الكتابة فى البداية ولكن الأستاذ همام ألح عليه ليكتب فى صحيفة شلفاج لما استكشف فيه النبوغ والقدرة والكفاءة ولما تخوف من الفشل أشار عليه أن يكتب تحت اسم مستعار حتى يكسب ثقة القراء وتثبت أقدامه ليرفع عنه الحرج فى حالة إخفاقه واختار له هذا الاسم المستعار {المنكوب الفصيح}، ووجه بكرى باشرى الشكر الجزيل للأستاذ همام الذى يغادر عنيبة بعد أن أبلى بها بلاءً حسنًا ورسخت أقدام شلفاج وتناقلت أخبارها بين أهل النوبة وصفق الحاضرون لبكرى تصفيقًا حادًا فى نهاية كلمته.

وتحدث الأستاذ همام وأشار لأهل النوبة عمومًا وطلاب مدرسة عنيبة وإدارة المدرسة بصفة خاصة وبين أنه تمنى أن يقضى عمره كله بين أهل النوبة لولا الظروف التى اضطرته إلى طلب نقله إلى القاهرة بسبب والده المسن الذى فى حاجة إلى رعايته وبقائه إلى جواره بعد إصابته بمرض الشيخوخة، وختم الأستاذ همام كلمته وسط التصفق الحاد وخانته عبرات تساقطت وتعثرت الكلمات فى حلقه فسرعان ما اختصر التوديع على وعد اللقاء بالنوبيين وأهل الشمندورة بالقاهرة إذا سنحت له الفرصة وأوصى بجماعة شلفاج وأسرة التحرير خيرًا.

ولما وصل الخبر بحقيقة {المنكوب الفصيح} وهو بكرى عثمان باشرى كاتب عمود الطوفان، فلما وصل الخبر إلى مقهى الشروق انقسم الجمع بين مصدق وغير مصدق حتى أثبتت الأيام صدق ما

سمعوا وتغيرت النظرة إلى بكرى إلى نظرة إعجاب وتقدير وإكبار؛ فقد قضى مرحلة الصبا بكل ما فيها من لهو وعبث والآن تجاوز تلك المرحلة إلى المسئولية نحو أهله وذويه يعبر عنهم وينقل مشاعرهم ويتكلم بلسانهم بكل جرأة وصدق.

ويؤكد أش الله سيف الدين أنه كان يتوقع لبكرى هذا التحول وهذة المكانة لأن حياة الصبا لا بد لها من نهاية وقد كانت تبدو فى بكرى الشخصية القيادية المبكرة.

أما سيف الدين باشرى فإن إخمص قدميه تكاد تطأ الثريا لما يسمع من مدح وثناء على ابن أخيه بكرى الذى نال مكانة متماثلة ومتوازنة مع عبده كندنونة وغيره من النابغين واحتل مكانة فى نفوس أهل الشمندورة والنوبة فى القاهرة والإسكندرية ومدرسة معلمين أسوان وفرح إعجابًا مما كتبه بكرى من شعر عن الطوفان وأثره:

ضاعت سواقى تنتحب وانتهت قصص الأديب

وناحت على الأيك الحمائم ترتجف فالأمر رهيب



تنجور

تمر الأزمة وتتزاح الغمامة ويفرج عن تلك الفئة من الوطنيين والمناهضين فيعودوا إلى العمل الوطنى بشئ من التنظيم وتوحيد الصفوف مبتدعين ضروبا بأساليب من فنون العمل السرى والجماهيرى المغطى عداءً للاستعمار والظلم وحبًّا ودفاعًا عن الفقراء ضد اضطهاد الأغنياء المستغلين.

وقد سمع طلاب المعلمين من النوبيين فى أسوان بخبر الإفراج عن تلك النخبة فملأهم شعور بالفرحة والسرور فميناء الشلال ملتقى المسافرين من وإلى النوبة والشمندورة على ظهر الباخرة (البوسطة والأكسبريس) مع الاختلاف بينهما؛ فالبوسطة هى الدرجة العادية وترسو أمام كل القرى النوبية شرق وغرب النيل وهى فى طريقها من الشلال إلى وادى حلفا والعكس، أما الأكسبريس هى الدرجة الفاخرة ولا ترسو من الشلال إلى حلفا ولا ترسو فى طريقها فى منطقة النوبة إلا فى ميناء عنيبة وأحيانًا فى أبو سمبل إذا كان بالباخرة فوج من السياح الزائرين لمعبدى أبو سمبل.

شكرى حسنين ومصطفى أبا يزيد كالعادة من آن لآخر يذهبون إلى ميناء الشلال للإطمئنان على أحوال النوبة فى شمال البلاد وجنوبها من أفواه الزاهبين والعائدين ويلتقون فى هذه المرة بعم موسى شاهين الذى يصول ويجول غاضبًا يلعن البوسطة التى ترسو على الميناء فيسارعان إليه ويسألانه عن سبب غضبه وتذمره جيئةً وذهابًا، ويعرفان السبب فقد سرق بعض متاعه رغم حرصه

لتكرار السرقة من غيره أكثر من مرة ولكن لا بد للقدر أن ينفذ.

شكرى حسنين ومصطفى أبا يزيد يهدئان من ثورته ويستفسر شكرى حسنين عن محتويات الطرد المفقود أو المسروق فإذا هى ملابس جديدة لأولاده الصغار وزوجته بالشمندورة ويعرض عليه مصطفى أبا يزيد بشراء غيرها من مدينة أسوان وقد يعوضه الله بخير منها وتطوع مصطفى للقيام بهذه المهمة والعودة سريعًا فشكره عم موسى شاهين شكرًا جزيلاً وتطرق الحديث بين عم موسى شاهين وشكرى ومصطفى حول السفر ومشقته ومتاعبه وبخاصة على الباخرة تانجور التى مرت عليها سنوات وسنوات، وطلب السيد نائب الدائرة بتحديثها. وبينما هم فى حوار وحديث يمر عليهم إبراهيم صالح وهو أحد أعيان الشمندورة فيسألونه عن أهل الشمندورة وأخبارهم فيطمئنهم ويثلج صدورهم بأخبار طيبة بعيدة عن الوباء الذى حل وأحاط بالنوبة وانكشف بعون الله ومشيئته فيسألونه عن سبب تواجده بالشلال فيقول لهم: إنه جاء ليستقبل والده المسن العائد من القاهرة بعد غيبة طويلة فى القاهرة سنوات وسنوات، وأبدى كل من مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين تقديم أى مساعدة له فشكرهما وأخبرهما بأنه تم شحن الأمتعة بالباخرة تانجور وقد حجز لنفسه ووالده فى الأكسبريس فهو أسرع ومريح نوعًا ما من تنجور وسينتظر الأمتعة ويستقبلها بميناء عنيبة.

ولكن الحقيقة فى عدم ركوبه وسفره بالباخرة تانجور غير ذلك والحقيقة كما أُسْرَّ بها همسًا فى أذن موسى شاهين أنه بعد أن عقد العزم على السفر بالباخرة تانجور وشحن بها الأمتعة واستقر بها هو ووالده، فقد أخذته سنة من النوم ورأى فيما يرى النائم رجلاً فى شكل وشبه {مرقص وهو من أحد النازحين إلى الشمندورة} ولكنه يختلف عنه فى ملابسه فإنه فى ملابس بيضاء

أنيقة وحذره من السفر على الباخرة تانجور وأنبأه بسوء العاقبة الوخيمة وأشار عليه أن ينزل فورًا ويترك الباخرة وينجو هو ومن معه فقام من نومه فزعًا مذعورًا وبمساعدة أحد البحارة سودانى الجنسية استطاع أن ينزل هو ووالده من الباخرة وتوجه لتغيير التذكرة ليستقل الأكسبريس ويصر السيد وكيل حكومة السودان والمسئول عن الأكسبريس وحجز التذاكر يصر على أن تذاكر إبراهيم صالح ووالده على البوسطة تانجور ويحاول إبراهيم صالح إقناعه بتغيير وتبديل التذاكر من البوسطة تانجور إلى الأكسبريس ولكن هيهات...... هيهات للسيد الوكيل أن يقتنع، وبينما هم فى خلاف وحوار حاد يراه السيد مأمور مركز شرطة عنيبة وهو يعرف إبراهيم معرفة جيدة فهو من أعيان الشمندورة فقد كان السيد المأمور متوجهًا من القاهرة إلى عنيبة فيهمس فى أذن إبراهيم صالح ويُسِرُّ إليه بأن يتوجه إلى الأكسبريس فى كابينة رقم ١٤ وسيجد مكانًا له ولوالده وفعلاً توجه إبراهيم صالح إلى الكابينة ووجد بها مكانًا له ولوالده واستقر بها.

وتتحرك تانجور ثم بعدها يقلع الأكسبريس ويلحق الأكسبريس بالباخرة تانجور فى قرية المالكى ويتعداها متوجهًا إلى حلفا مارًّا بميناء عنيبة ويصل إبراهيم صالح إلى عنيبة مع والده بسلامة اللّه ويعتقد إبراهيم صالح تمام الاعتقاد أن الذى رآه فى منامه وحذره من السفر من الباخرة تانجور إنه الشهيد (مارى جرجس) ولذا أطاعه وعمل بالتحذير وأطاعه فيما طلبه منه ويسأله شقيقه عن الأمتعه؛ فيقول إنه سيستلمها من ميناء عنيبة ولم يعلم إبراهيم صالح ما حدث للباخرة تانجور وما أحيط بها.

فقد واصلت الباخرة تانجور رحلتها بعد أن تعداها الأكسبريس فى قرية المالكى وجاوزها حيث سارت تانجور من المالكى إلى أبو حنضل ثم الديوان والدر وتنقاله ثم إلى توماس وعافية، وساءت

الظروف المناخية والملاحية فالموسم من العام وقت الفيضان وارتفاع الأمواج وفى هذه الأيام من السنة لا يسافر النوبيون إلا مضطرين على الباخرة تانجور العتيقة، ففى توماس وعافية ارتفعت الأمواج وتلاطمت وأخذت تانجور تموج يمينًا ويسارًا فاتخذ القبطان قراره بأن يخفف العبء على القاطرة فتخفف من بعض الصنادل المقطورة وتركها عند توماس وعافية وأبحر بالباقى حتى أبريم ليعود إلى توماس وعافية وتلك الصنادل يقطرها مرة أخرى إلى أبريم، والمسافة بين توماس وعافية تقريبًا ١٢ كم وقبل أن يعود القبطان إلى توماس وعافية من أبريم كان قدر الله أسرع فقد فقدت تانجور توازنها لأسباب أرادها الله ويعرفها بحكمته وصارت إلى قاع النيل وغرقت وكانت الكارثة المؤلمة والفجيعة التى تقطعت لها نياط القلب، ولم تقدر النجاة إلا للقليل من الركاب الذين كتب الله لهم الحياة أما الغالبية العظمى فقد راحت ضحية، وعم الأسى والحزن كل قرى النوبة وحلفا وبخاصة تلك القرى التى ينتمى إليها الضحايا. ونصب للعزاء وتفجرت المشاعر والأحاسيس وذرفت الأعين الدموع وكتب بكرى إلى إحدى الإصدارات النوبية يقول:

"أما زلت يا نوبة فى فزع وألم يقلق مضجعكِ طغيان النيل وهيجانه؟!!.... ماذا جنينا أيها النيل لتبتلع ذوينا وأهلنا؟!!...... رضينا بإغراق الأرض والزرع والنخيل والضرع ألم يكفيك هذا لتفجعنا فى أحبابنا وأعزائنا؟!!........ لقد طمست البيوت ومحوت القبور وأجداث الآباء والأجداد؟!!.... ما زلت تبحث عن ضحايا؟!!.. أيها النيل الحنون والصديق الودود لِمَ تغيرت وتبدلت من نعمة إلى نقمة؟!!.... كفاك أيها النيل كن رحيمًا بأبناء النوبة والشمندورة عطوفًا بهم........ ماذا أغضبك وأزعجك لتثور وتغرق تانجور، مهلاً أيها القدر. رحماك ربى....... تغمد ضحايا تنجور بمغفرتك وأدخلهم واسع جنتك.... والهمنا الصبر والسلوان..... إنّا لله وإنّا إليه راجعون".

وأما عبده كندنونة فقد تحركت عبقريته وهاجت مشاعره وتحولت أبياتًا يقول فيها:

أيها النيل الحنون فجعتنى

آمنت مكرك ياصديق فخنتنى

أبحرت يا تنجور ثم خدعتنى

وقربت من توماس حتى قبرتنى

من غير نطق للشهادة صرعتنى

لا من مغيث أو مجيب ينجِّنى

فأنا الشهيد يا إلهى بلطفك عمنى

بسحائب الرحمن واجعل جنانك مسكنى



طموح

تحركت مظاهرات من جامعة فؤاد الأول ضد الملك وكان المطلوب مظاهرة أزهرية مضادة لتأييد جلالة الملك من جامعة الأزهر وليتصدر علماء الأزهر فى مقدمة صفوف الطلاب ولكن لا صفوف ولا مظاهرات مضادة من جامعة الأزهر، ولم يدم الحال ساكنًا طويلاً ولكن سرعان ما خرج طلاب الأزهر يعلنون العداء للاستعمار والملك والرجعية ويخرجون فى مظاهرة كبيرة ويتم رفض التظاهر ويلقى بالقبض على مجموعة من الطلاب، ومن بينهم مبروك عبد الفضيل بتهمة التحريض والانتماء إلى تنظيم غير مرغوب فيه.

بلغ سوء الوضع السياسى فى مصر أقصى درجات الفساد إذ كانت البلاد ترزح تحت ذل وبطش الاحتلال البريطانى ودكتاتورية الملك وفساد الأحزاب والصراع من أجل الوصول إلى مقاعد الحكم وبرز على مسرح السياسية جماعة الإخوان المسلمين والجماعات اليسارية.

كما أدت حرب فلسطين إلى إثارة السخط والغضب فى نفوس الشباب بوجه عام فقد أدركوا مقدار الجرم الذى ارتكبه النظام الحاكم متمثلاً فى الملك عندما أرسل جيش مصر ودفع به إلى الحرب دون تدريب سابق واستعداد تام وكانت الهزيمة الشائنة التى أدت إلى خلق رابطة فكرية مشتركة بين عدد كبير من الضباط الوطنيين والشباب من اتجاهات سياسية مختلفة والهدف الأسمى هو تحرير الوطن وتؤثر هذه الاحداث فى شاعرية بكرى وعبقريته فتتولد عنده أبيات شعرية تلقائية تناقلتها النخبة من الشباب والكبار معجبين بها ويقول بكرى فى مطلع هذه الأبيات:

مصر الكنانة أنت حبى ودنيتى

أحمى حماك وافتديكِ بمهجتى

نيلك سقانى ومن سمارك بشرتى

وقد سبق أن ارتفع صوت نائب النوبة يطالب بحق النوبيين فى التجنيد الإجبارى؛ فهم جزء من شعب مصر ومتساوون جميعًا فى الحقوق والواجبات وتأكيدًا لولائهم وصدق انتمائهم لمصر حيث كانوا يعفون من الخدمة الإجبارية فى الجيش المصرى واستجابت الحكومة لهذا الطلب وصدرت الأوامر والتعليمات إلى جهات الاختصاص بتجنيد كل من بلغ ووصل للسن القانونى للتجنيد ثم كانت المطالبة بإعفاء من بلغ الثلاثين من عمره ويكتفى بتجنيد الشباب من هو بلغ السن القانونى للتجنيد حتى الثلاثين وعدم التطبيق للقانون بأثر رجعى وبذلك تم تسريح كبار السن من التجنيد فتوافق أشعار بكرى تلك الوطنية والمطالبة بالتجنيد للنوبيين.

بكرى على شوق شديد ليلتقى بزملائه بالقاهرة أش الله وعبده كندنونة توأمه فى صحيفة شلفاج وببقية النخبة من الشباب النوبى ومنهم من سمع بأسمائهم لامعة فى سماء الوطنية وتشاء الأقدار أن تتاح الفرصة سانحة فقد أعلنت نتيجة الامتحان فى نهاية العام ونجح بكرى بدرجة متفوقة ودرجات عالية بين زملائه وتقبل آل باشرى التهانى، فقد أصبح بكرى مستحقًا للقب بكرى أفندى أما والده عثمان باشرى فقد كان فى غاية الفرحة والسعادة ولكن بكرى يطمح ويطمع فى أكبر من لقب بكرى أفندى، الذى يتمناه والده ولذا فإن بكرى تولدت لديه الرغبة فى السفر إلى القاهرة ليلتحق بالجامعة ويكون فى زمرة أولئك النخبة من الطلاب النوبيين الذين التحقوا بالجامعة بكلياتها المختلفة ويشجعه على ذلك أش الله سيف الدين الذى فرح لنجاحه فرحًا شديدًا.

كما عرف جعفر شرف الدين وعبد العزيز أمين وغيرهم برغبة

بكرى ووعدوه بمساعدته فى الحصول على فرصة عمل لينفق على نفسه إقامةً وإعاشةً وتعليمًا.

وأصرَّ بكرى استجابةً لرغبة فى داخله واستجابةً لنداء أولئك الزملاء، أصرَّ على السفر إلى القاهرة ليلتحق بكلية الحقوق.

ويرى والده أن يكتفى بهذه المرحلة من التعليم ويفوز بلقب أفندى ويظل فى جواره بالشمندورة موظفًا فى مصلحة حكومية من دواوين مركز عنيبة كاتبًا، ويعينه على تكاليف الحياة وأعمال الزراعة، ولكن أمام إصرار بكرى يوافق عثمان باشرى على سفره إلى القاهرة ويرسل إلى شقيقه سيف الدين الذى أبدى استعداده لاستقبال بكرى بالقاهرة فقد وجد سيف الدين الشرف كل الشرف والتيه بابن أخيه طالبًا فى الجامعة وتنبأ له بشأن عظيم بعد أن انتهى أش الله من الدراسة وتخرج فى مدرسة بولاق الصناعية ونال الشهادة ونجح بتفوق على زملائه وينتظر فرصة العمل فى إحدى دواوين الحكومة.

يحلم عثمان باشرى بابنه يشار إليه بالبنان من بين القلة القليلة من طلبة الجامعة النوبيين بعد أن كان رافضًا لرغبة بكرى ويتوافد إلى بكرى كثير من أهل الشمندورة يودعونه ويحملون إليه رسائل مكتوبة وأخرى شفوية إلى ذويهم بالقاهرة.

أم بكرى ترفع الأكف تدعو لابنها بالتوفيق وتشرئب برأسها فخرًا واعتزازًا بابنها الذى سيصبح قاهريًّا وطالبًا بالجامعة، وقد انشغلت بإعداد الزاد (الفَصِلّ كم يسميها النوبيون) زاخرة بما لذ وطاب من المحمر والمشمر والخماريد؛ فالسفر طويل بحرًا وبرًا حتى القاهرة بالباخرة والقطار ومن بين المودعين امرأة عجوز طاعنة فى السن تأتى تقودها ابنتها وتتوسل بضريح الشيخ شاندى بأن يبحث عن ابنها الذى رحل إلى القاهرة وتزوج بشقراء وانقطعت أخباره ويبلغه بحالتها الصحية المتدهورة وتوصيه بأن يطلب منه أن يأتى إلى

الشمندورة ويزورها وتملأ عينيها منه قبل أن توافيها المنية ويأتيها الأجل أو حتى يرسل بمكتوب تمسح به عينيها اللتين ابيضتا بكاءً عليه، ويشد بكرى على يديها متأثرًا يخفى مشاعره ويدعوها إلى أن تتجالد وتصبر على أمل اللقاء به ويؤكد لها أن الحى مصيره أن يعود ويرجع إلى لقاء.

ويودع أهل الشمندورة بكرى ويتمنون له التوفيق وأطيب الأمنيات فخورين بابن الشمندورة طالبًا فى جامعة القاهرة.

ولم ولن ينسى بكرى التلاميذ الصغار بمدرسة الشمندورة فيشجعهم ويبث فيهم روح الحماس ليرتقوا درجات سلم التعليم والرقى إلى أعلى الدرجات وليغيروا الشمندورة باجتهادهم ويساهموا فى نهضة النوبة والشمندورة ويحملون على عاتقهم مشاعل العلم والنور، ويؤكد لهم أنه لا أمل فى مستقبل مشرق باسم إلا بالعلم ويذكرهم بمن تعلموا فى مدرسة الشمندورة ثم بمدرسة عنيبة وينادون بلقب أفندى كما ذكر لهم أسماء لامعة ونماذج ممن التحقوا بالجامعة المصرية {جامعة فؤاد} ويودعهم بكرى ويعدهم بلقاء فى الجامعة ويذكر لهم أن حياة اللهو والصبا التى عاشها فى الشمندورة لم تدم معه طويلاً، وأنه وضع نصب عينيه مستقبله ومستقبل الشمندورة والنوبة أمانة فى عنقه إخلاصًا للنوبة ومصر وأن طريق العلم طويل ملئ بالمصاعب والمتاعب والمسئوليات وأنه بكل الإصرار والعزيمة ماضٍ لاستكمال الطريق، ويعيد على أسماعهم تحفيزًا المثل النوبى القائل: "جندج جاجى فنتج كمون" وتعنى بالعربية من يخاف الشوك لا يجنى ولا يأكل البلح فلا بد من تحمل الصعاب والمشاق لكى تنال المنى والمراد وهكذا............ تحمل بكرى دوره القيادى والمسئولية تجاه النوبة والشمندورة ولا يغادرها إلا بعد أن بث روح الحماس والمثابرة فى نفوس الصغار وزرع الأمل فى نفوس الكبار لتحقيق الأمانى والآمال.

وتهمس أم بكرى فى أذن ابنها وهى تودعه تحذره بأن لا تستهويه بنات بحرى الشقراوات ذوات العيون الزرقاء فيبتسم بكرى ثم يرفع صوته يضحك مقهقهًا ويعدها بأنه لن يغادر الشمندورة إلا من أجل الشمندورة، ويؤكد لها أنه جعل هذه النصيحة حلقًا فى أذنه ويضعها نصب عينيه وأنه سيعود إلى الشمندورة إن شاء الله شعلة يضئ لها الطريق ويودعه والده حتى نهاية حدود الشمندورة ويطلب منه بكرى أن يدعو له دائمًا وهو نفس الطلب الذى طلبه من والدته لأنه يعلم أهمية وقيمة بركة دعاء الوالدين، وغادر بكرى الشمندورة وهى حبيبة إلى قلبه وودع أهل الشمندورة بأبيات عفوية خرجت من القلب إلى القلب:

بلدى أنت وإن بعدت ففي الفؤاد أنت مقيمة

ملكت نفسى ومهجتى وإن رحلت فأنت قريبة

فلا يزعجك طوفان طغى فلتعيشى كريمة

وتناقلت تلك النخبة من النوبيين فى مقهى الشروق بعابدين خبر رحيل بكرى من الشمندورة إلى القاهرة كما وصل الخبر إلى أهل الشمندورة بالإسكندرية وسمع مرجان دهب بالخبر ففرح فرحًا شديدًا حيث هو من المعجبين بتوأم شلفاج عبده كندنونة وبكرى، فأشار على أش الله سيف الدين بأن يتوجه بكرى إلى الإسكندرية بدلاً من القاهرة فقد وجد له فرصة عمل فى ميناء الإسكندرية لتعينه على نفقات التعليم وأن يلتحق بجامعة فاروق بالإسكندرية بدلاً من جامعة فؤاد بالقاهرة.

وبلغ أش الله سيف الدين بكرى بما اقترحه مرجان دهب وعلى بكرى المفاضلة بين القاهرة والإسكندرية فالجميع يرحبون به أينما يذهب.

الأفندى

يتسلم أش الله سيف الدين العمل بإحدى دواوين الحكومة (وزارة الأشغال).

وأثمر مشروع القرش النوبى خيرًا فقد أنهى كل من شكرى حسنين ومصطفى أبا يزيد تعليمه بمعلمين أسوان وعاد إلى الشمندورة كما عاد زملاؤهما إلى قرى النوبة معلمين وتفرقوا كل حسب موقعه وقريته، وتعين كل من شكرى ومصطفى فى مدرسة الشمندورة معلمين ولعلهما عوضًا لخليل أفندى الذى رحل بلا عودة.

أما جمال باشرى فقد أنهى دراسته بمدرسة عنيبة واكتفى بهذه المرحلة لهذه الظروف المحيطة به من اجتماعية ومادية حيث والده محى الدين باشرى فى حاجة إلى مساعدته فلم يعد يقوى على أعمال الحقل والزراعة فالتحق جمال باشرى بوظيفة كاتب بمستشفى عنيبة وحاز على لقب أفندى مثل شكرى ومصطفى وشعر محى الدين بالفخر والاعتزاز بابنه كاتبًا فى الحكومة والأمل فى أخيه بشير الذى يدرس بالقاهرة فى رعاية عمه سيف الدين باشرى بالقاهرة.

عاد جمال باشرى بذاكرته إلى مرحلة الصبا بالشمندورة فقد استأثرت وتغلبت على مشاعره وعقله وقلبه زنوبة بنت عمه عثمان باشرى وشقيقة بكرى فقد رآها أمامه نموذجًا للجمال الفاتن فقد كبرت وازدادت بسطةً وقوامًا ويصدر من عينيها بريق يسطع فى قلبه نورًا وأملاً ورأى نهدين بارزين يكادا أن يقفزا من صدرها وقد ضفرت شعرها الأسود الكثيف جدائلاً تنساب تحت الطرحة

الشفون ويصل إلى خصرها الذى يدور متوازيًا يسقط عليها الجرجار إلى أسفل قدميها يجرجر من الخلف فيرسم خطوطًا خفيفة على الرمال الصفراء الذهبية فالجرجار مرفوع من الأمام طويل من الخلف الذى يجرجر فيكشف عن الخلخال الذى يطوق كعبيها الغليظين فيعكس لون الخلخال الفضى على سمار بشرتها ألوانًا هلالية كالطيف.

ويتذكر أيام الصبا فى مدرسة الشمندورة حيث كان يتوسط بينها وبين بكرى الشقى إذا وشت بوشاية لدى والدها عثمان باشرى بإحدى أفعاله الصبيانية.

ويتذكر أيام الجزيرة فى وسط النيل حيث يقضون معظم الوقت فى ملاحظة الأغنام فى المراعى المفتوحة ويلعبون ألعابًا بنين وبنات مثل لعبة (الناف نافية) وتعنى الاستغماية وتختفى خلف الأشجار والنخيل وكم من المرات يجرى خلف زنوبة ونعمة للإمساك بهما فالإمساك بالفتيات أسهل من الفتيان؛ فالفتيات الصغيرات لا يملكن المهارة فى المراوغة والسرعة.

ويتذكر ما كان يحدث فى طريق العودة من شجار وخلاف أى الطرق يسلكون طريق النجع الآمن بالبيوت أم الشاطئ أم طريق كثبان الرمال؟؟

مرت هذه الذكريات بذاكرة جمال باشرى فوقف عندها كثيرًا يتأمل.

فقد لازمت زنوبة البيت ولم تستكمل تعليمها كالعادة عند فتيات الشمندورة وبقيت فى البيت درة مكنونة فى رعاية والديها فلما راودته تلك الذكريات أثارت حفيظته ففكر فى خطة ليراها وهى فى طريقها بالموردة لملء الكوبية النحاسية، أو وهى فى طريقها إلى ساقية باشرى وعندما يتعذر هذا أو ذاك يذهب بحجة الاطمئنان وزيارة زوجة عمه ويسأل عن بكرى فتكون زنوبة فى استقباله تقوم بإعداد

وتقديم واجب الضيافة من طبق الفيشار والتمر والشاى بالحليب.

وظل جمال باشرى على هذه الحال أيامًا وليالى يفكر ويفكر ويتذكر ويعيد شريط الذكريات فى الأيام الخوالى وينظر إلى زنوبة التى تتراءى أمامه، ينظر إليها بعينين فاحصتين وتنظر إليه وتتخاطب لغة العيون.

ويلتقى جمال باشرى بزنوبة وأحس أنها تشعر بنفس الشعور والمشاعر الفياضة نحوه وغالبًا ما تمدح فيه أمام والدتها فتسمع وبحس المرأة تفهم نبرة ما بينهما فتبتسم مستبشرة خيرًا وتقول جمال اليوم جمال أفندى.

وانتهز جمال الفرصة عندما دار الحديث بينه وبين والدته عن خليل أفندى ورقية التى تزوجت من حسب الله جاه الرسول وتطرق الحديث عن زنوبة بنت عمه فعرض على والدته أن تمهد له الطريق ليطلب يد زنوبة فرحبت بالفكرة وباركت الخطوة.

ويعود محى الدين باشرى كعادته بعد صلاة العشاء فى مسجد القرية وتجلس الأسرة لتناول العشاء وفى نهاية الجلسة ينصرف جمال ليعد العدة لسهرة عرس وحضور ليلة زفاف يحييها فى القرية المجاورة وتجد والدة جمال (هجلة) الفرصة سانحة إذ يبدأ محى الدين الحوار وقد شعر بما يقدم عليه جمال من سهر ويسأل:

- إلى متى هذا السهر والغناء حتى الصباح.
- جمال رجل الآن يا محى الدين جمال أفندى وما عليك أن تمنعه من السهر.
- إلى متى هذه اللامبالاة بالحياة ومتطلباتها؟
- فترة محددة يا أبو جمال وعندما يجد زوجة تملأ حياته وتشغله سيمتنع عن ذلك ويجلس بجوار زوجته.
- إنه لا يفكر فى زواج يشغله أو بيت يضمه، كل ما يشغله هو شلة الأنس.

- لا يا أبو جمال إنه اليوم كلمنى عن عروسة.

- عروسة؟!!..وقد اعتدل فى جلسته من هذه العروسة؟!!..

- زنوبة بنت عمه ذوق وأدب وجمال وشطارة حسب ونسب.

- وماذا قلت له؟!!

- قلت له لا بد من رأى أبيك... فما رأيك؟!!

- إننى كنت فى نفس الحوار مع أخى عثمان منذ أيام.

- على بركة الله وربنا يتمم على خير..... هل أقول مبروك؟!!

- على بركة الله وربنا يتمم على خير وعليك باللازم من التمهيد.

حالاً يا أبو جمال ما تطلع الشمس إلا وتجدنى فى بيت عثمان باشرى (وقد تهلل وجهها فرحًا وتكاد تقفز من مكانها) قضت أم جمال الليل تستعجل قدوم الصباح تنتظر عودة جمال لتزف له البشرى ولكن جمال لم ولن يعود إلا قبيل الفجر ولما أحست به خرجت لتخبره بالحوار الذى دار بينها وبين محى الدين باشرى فانكب جمال يعانقها فرحًا ويدعو لها بطول العمر وهى تدعو له بحياة زوجية سعيدة وبالتوفيق ولا تنسى فى دعواتها بشير الذى يدرس بالقاهرة.

وفى الصباح يحيى جمال والده بابتسامة تدل على الشكر والعرفان، وتمنى لولده كل الخير لموافقته على زواجه من بنت عمه زنوبة ووقوفه بجانبه يبارك الخطوة.

وبعد حوار قصير عن الخطوات الأولى للتمهيد والإعلان انصرف جمال باشرى إلى المستشفى بعد أن قبل يد والده يمضى بكل همة ونشاط وحيوية وكأنه لم يسهر ليلة البارحة.

أما أم جمال باشرى {هجلة} فقد شقت طريقها إلى زنوبة وأمها تبلغهما الخبر السعيد وتأتى بالموافقة...

الأجَلّ(1)

بعد أن تقدم محى الدين باشرى والد جمال بطلبه وموافقة عثمان باشرى والد العروس كانت المراسم الأولى للزفاف وبناء أسرة جديدة ويستدعى شيخ القرية وإمام المسجد وتكون المشورة واستشارته ليختار ليلة مباركة للزفاف؛ وغالبًا ما يستعين شيخ القرية وإمام المسجد بالنجوم لتحديد الليلة المناسبة والمفضلة ويقترح عدة ليالى ويترك حرية اختيار ليلة من بينها ويشترط كما جرت العادة عقد قران وزفاف واحد فقط فى الليلة خوفًا من سوء العاقبة {المشاهرة} وتعطى فرصة الاختيار للعروس ووالدتها ولعل فى هذه المشورة وترك الاختيار للعروس ووالدتها تكريمًا للمرأة وغالبًا ترجع هذه المشورة إلى أمور وأسباب نسائية فقد يكون هناك مانع شرعى لإتمام الزفاف فى ليلة بذاتها ولا تبيح العروس بذلك المانع إلا لوالدتها التى تعبر عن رأيها نيابة عن العروس فى اختيار الليلة والموافقة عليها.

وبعد الاتفاق بين أسرة العروسين يعلن ذلك اليوم المتفق عليه فى حفلة ومجمع لأهل القرية يحضرها لفيف من أهل الشمندورة وإمام المسجد والمأذون ويذهبون فى جمع لأهل العروس يتقدمهم العريس وأهله ويستقبلون أحسن استقبال فى منزل العروس وتقدم لهم واجب الضيافة من فيشار وتمر وشربات ويصطف الجمع جالسين على

---

(1) لعله مأخوذ من الأجَلَ فالدعوة لموعد محدد مكانًا وزمانًا من صاحب الدعوة ثم حرفت فى التشكيل.

فرش {برش} فى صفين متوازيين ويعلن أن هذا الجمع السعيد لتحديد ليلة الزفاف ويشير شيخ المسجد إلى عدة ليالى وغالبًا هى الليالى البيض {القمرية} التى يسطع فيها القمر بدرًا مكتملاً ولاختيار ليلة معينة من تلك الليالى (وتوافق فى الغالب يوم الاثنين أو الخميس) للموافقة عليها يتم ترشيح أحد الرجال المقربين للعروس ووالدتها ليذهب ويعود بالرأى فى الموافقة ويكون الاختيار والتحديد معروفًا لدى الأسرتين، ولكن يبقى الإعلان على الجمع المحتشد ويكون الاختيار لليلة محددة بموافقة الأسرتين ويدعو الحاضرون الله ﷻ أن يتمم الزفاف على خير ويتقبل أهل العروسين التهانى وتقرأ الفاتحة وبذلك يكون الإعلان عن ليلة الزفاف بصفة نهائية يعرفها الجميع من أهل الشمندورة، وتتبع الخطوات تباعًا لإتمام الفرح والزفاف ومع هذا الإعلان فى الجلسة والجمع المحتشد تختار أسرة العريس إحدى الموالى للأسرة للقيام بمهمة الدعوة ليوم {النلو} اليوم الأبيض وليلة الزفاف وتختار أسرة العروس أيضًا إحدى الموالى لتقوم بنفس الدعوة من جهة أهل العروس وبذلك تصل الدعوة إلى المدعوين موجهة من آل العروسين للزفاف، والنلو ويوم النلو يختلف توقيته عند كل من العروسين حتى تكون هناك فرصة لآل الشمندورة الحضور والمجاملة للعروسين وتستدعى أم جمال فضيلة مرجان لتقوم بمهمة الدعوة لأهل الشمندورة والقرى المجاورة ولخروجها للدعوة مراسم.

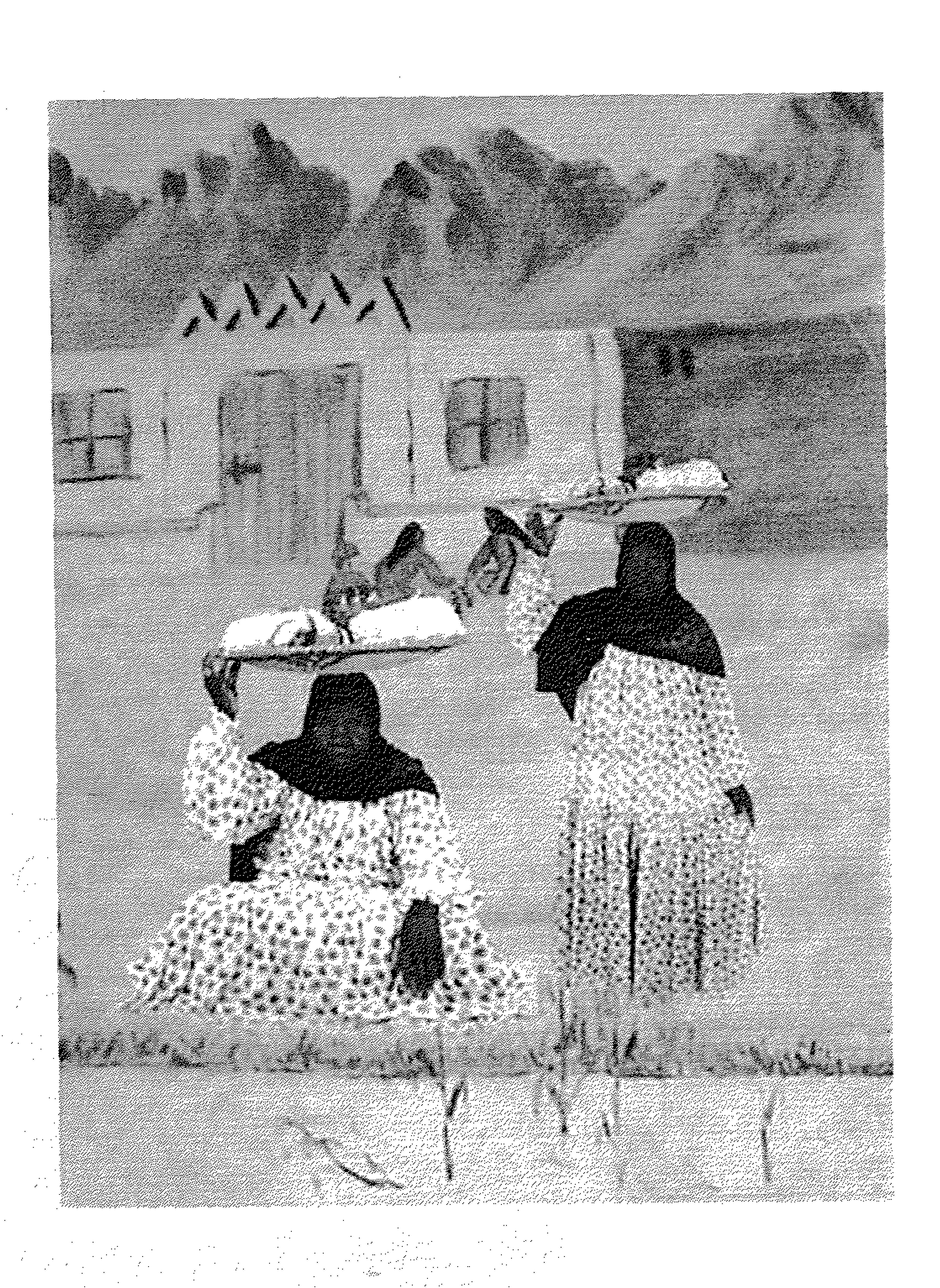
فقد استدعت أم جمال {هجلة} فضيلة مرجان وأعد العريس جمال لفضيلة مرجان جرجارًا وطرحة من الجورجيت الفاخر وزجاجتين من العطر الخالص إحداهما (مسك اللوندة) والأخرى (صندلية) جلبت من وادى حلفا ويضع فى يدها قروشًا تصدر صوتًا ورنينًا ينبض له قلب فضيلة مرجان فتفرح بذلك فرحًا شديدًا وتدعو له بالخير والسعادة، ويداعبها جمال باشرى بكلمات تشرح

صـدرها فـترد المداعبـة بكلمـات رقيقـة وبشـئ مـن المـزاح المبـاح ويشترك النساء والفتيات من آل باشرى فى الحوار وتصدر قفشات طريفة تملأ المكان دعابة ومرح وتبتسم فضيلة مرجان ويصدر من حنجرتها القوية زغرودة تتجاوب معها النساء وترد عليها بمجموعة من الزغاريد فيجتمع كل أهل الحى من فتيات وفتيان وصغار وكبار وتضع النساء والفتيات كل منهن قرشًا أو قرشين فى يد فضيلة مرجان مجاملة لأم العريس.

فتعطرهن فضيلة من الزجاجتين اللتين فى الأجل وتتسابق النساء فى ذلك وبعد أن تجمع كمية كبيرة من هذه القروش تخرج لتبدأ الدعوة بأسم أم العريس واضعة الأجل على {شور كبير} طبق كبير من الخوص تضع فضيلة مرجان خط سير لنفسها يوميًا وبرنامجًا زمنيًا يبدأ من ذلك اليوم لتغطى الشمندورة بأحيائها والقرى المجاورة فى أيام تسبق يوم النلو وليلة الزفاف بوقت كاف ليعلم الجميع ويلبى بالحضور ولفضيلة مرجان ما يمكن أن نسميه بالحافز المادى فكلما تدق على باب لتبلغ بالدعوة يباركون الخطوة ويهبونها كمية من الحبوب والغلال أو السكر أو قرش أو قرشين فتصنف كل نوعية من الحبوب والغلال أو السكر على جانب من الطبق حول الأجل وسرعان ما يمتلىء فتفرغه فى بيتها وتعود الكرة فكلما مرت على بيوت أكثر وعددًا أكثر زادت من تلك الحبوب والغلال والسكر والقروش فتتشجع وتطوف هنا وهناك للدعوة وتجميع الحافز أو الهبة.

وما حدث فى منزل العريس جمال يحدث فى منزل العروس زنوبة حيث توجه إلى المدعوين دعوتان من أهل العريس والعروس بمعرفة سيدة أخرى من الموالى بنفس المراسم التى تمت فى منزل العريس جمال باشرى حيث الاحتفال ببداية خروج السيدة من الموالى للدعوة وتكون الدعوة نيابة عن أهل العروس كما كانت

الدعوة من فضيلة مرجان باسم آل العريس ونيابة عنهم، أما الأهل بالقاهرة والإسكندرية والمدن الأخرى فتكتب لهم الرسائل وترسل بالبريد أو مع واحد من المتوجهين إليها من الشمندورة إلى تلك المدن وأول تلك الرسائل التى بعث بها محى الدين باشرى وعثمان إلى سيف الدين باشرى وزوجته وأولاده.



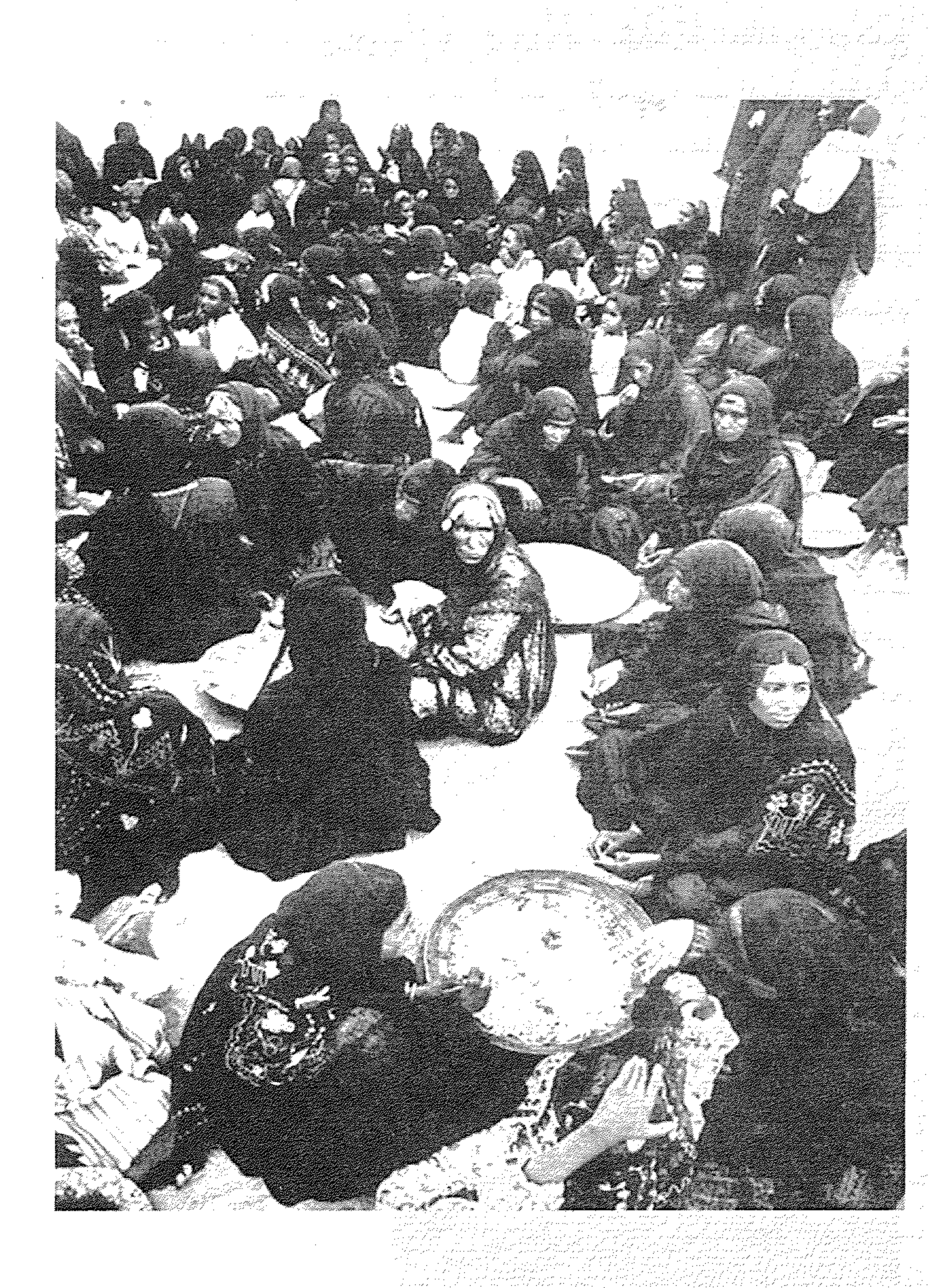
النلو (اليوم الأبيض)

تحدد يوم النلو للعريس جمال باشرى ويوم النلو للعروسة زنوبة وكانت الدعوة لليومين مع دعوة الفرح وباتفاق آل العروسين كان التحديد لتتاح الفرصة لأهل الشمندورة وللمدعوين للشاركة والمجاملة للعروسين ولكن المراسم وفاعليات ذلك اليوم يوم النلو متشابهة عند العروسين.

فمنذ الصباح الباكر والنساء يتوافدن جماعات وفرادى لمنزل العريس جمال باشرى وتستقبلهم هجلة أم جمال باشرى بالترحاب وتقدم إليهن الفيشار والتمر والشربات، ثم يؤتى بالغلال وتصب أمامهن وتجلس النساء والفتيات كل مجموعة أمامها كوم من الغلال وأطباق الخوص ومختلف الأوانى وتقوم النساء بغمرها فى الماء وغسيلها حتى تذوب قطع الطين الصغيرة المختلطة بالحبوب وتطفو الشوائب على السطح فيلتقطونها وتغسل مرات ومرات حتى تبدو نظيفة من الشوائب وتنشر فى الشمس على مساحات واسعة فى فناء البيت وتعرض لأشعة الشمس حتى تجف الحبوب تمامًا، ثم توزع فى أطباق الخوص على النساء والفتيات فتأخذ كل مجموعة كمية من الغلال لتنقيتها من الشوائب التى ما زالت عالقة بالغلال مثل الحصوات الصغيرة وغيرها من المواد التى لا تذوب فى الماء وبعد تنقيتها تمامًا يأتى دور الصبية وتعبأ الغلال فى أكياس ويحملونها على ظهر الدواب إلى طاحونة الشمندورة ويجد الصبية المتعة فى الذهاب والعودة بهذه الأكياس إلى الطاحونة يحملونها على ظهر الدواب ويعتبر ذلك نزهة لهؤلاء الصبية؛ فكل يظهر مهارته وبراعته

فى قيادة الدواب والإسراع بها والعودة بهذه الغلال طحينًا ودقيقًا أبيضًا فتوضع فى أوانى مختلفة وتغريل ويأتى النساء والفتيات ذوات الخبرة فى صنع الشعرية بطريقة يدوية باستخدام الكفين بوضع العجين قطعة طولية تستند على إصبع الإبهام وتفرك باستخدام الكفين بطريقة فنية معينة فينساب العجين خيطًا رفيعًا طويلاً فينثر على سيقان السيسبان وأفرع وأغصان الأشجار وأعواد الجريد التى وضعت خصيصًا لتنشر عليها تلك الخيوط من العجين متباعدة وتعرض لشمس الظهيرة حتى تجف تمامًا وتحول إلى شعرية تخزن لحين استخدامها حيث من العادة أن تستخدم فى يوم الصباحية؛ وهو الصباح التالى لليلة الزفاف وبقية أيام الأسبوع وتقدم إفطارًا شهيًا فى منزل العروسين مع أكواب الشاى بالحليب وتقدم هذه الأكلة {الشعرية} بعدة طرق ساخنة عليها اللبن الحليب والسكر والسمن البلدى أو العسل الأسود، ويقدم طعامًا شهيًا لأهل الشمندورة والضيوف من القرى المجاورة طوال أيام الأسبوع وفى نهاية اليوم مساءً يبدأ الفتيان والفتيات إحياء ليالى الطرب والغناء والرقص، حتى يحين موعد الزفاف وتكون الليلة الكبيرة سهرة يحلو فيها السهر فى ليلة غنائية راقصة حتى وقت متأخر من الليل أو حتى السحر.





العمارة والأثاث

محى الدين باشرى يعد العدة لإنشاء بيت جمال الخاص واختار موقعًا من البيت الكبير على جانب من فناء البيت الكبير ليعيش فيه جمال مع عروسه زنوبة كغيره من الشباب فمنزل الابن يقتطع من المنزل الكبير لوالده وأحيانًا يبنى منفصلاً عن بيت والده، فاختار محى الدين باشرى مكانًا من الفناء الواسع وبخاصة فأنه قد طعن فى السن وأصبح شيخًا يحتاج إلى ابنه بجواره فقد كان قرار محى الدين بإنشاء بيت جمال فى ركن من فناء البيت الكبير.

تجمع الشباب يساعدون جمال فى إنشاء عشه الجديد فى أيام قليلة تم الإنجاز الكبير؛ فمنهم من يقوم بنقل الحجر الرملى على ظهر الدواب ومنهم من يقوم بإعداد مونة البناء من الطمى المنتشر ومنهم من يقوم بالبناء ممن لديهم المهارة والمعرفة فى فن البناء فقد تحدد المكان وحفر الأساس فى زمن وجيز وأريقت الدماء فقد أمر محى الدين باشرى بذبح كبش سمين أقرن فى بداية العمل تفاؤلاً وتكريمًا لأولئك الشباب الذين يتطوعون للعمل حبًا فى جمال باشرى وشمرت السواعد مروءة وشهامة ومجاملة لجمال باشرى وما هى إلا أيام قليلة حتى ارتفع البناء وظهرت تقسيماته وفتح بابه للنيل المبارك وجاء موعد الفتيات ليشاركن فى طلاء الجدران بعد أن انتهى الشباب من البناء وتغطية الأسقف بالجريد وجذوع النخل والشجر وتم تركيب الأبواب والنوافذ فى واجهة البيت وأعدت مونة الطلاء من التربة الطينية الصفراء والطفل وفى غمرة من الفرح والغناء اجتمعت الفتيات؛ كل مجموعة تختص بجانب من جدران

البيت ويتنافسن فى الجودة والاتقان والسرعة فى الأداء تنافسًا بروح المودة والمرح وفى أصوات تشدو بأعذب الأغانى واستخدم ذوو المهارة والكفاءة ألوانًا مزخرفة من الجير لطلاء الواجهة التى تطل على النيل والحجرات والفناء وأصبح بيت جمال تحفة رائعة تنطق بالجمال وكتبت على الواجهة عبارات منها {يا داخل هذا الدار صلى على النبى المختار - حارس الله من عين الحسود - الله أكبر جل جلاله} وغير ذلك من العبارات اعتقادًا أنها تحرس سكانها وتحميها من حسد كل حاسد أو حاقد، أما فوق الباب أو المدخل الرئيسى للبيت لصقت أطباق من الخزف الصينى مزخرفة الألوان ومختلفة الأحجام على شكل صليب أو هرمى أو خط منكسر زخرفة وزينة وعلى الجدران والحوائط للحجرات بالداخل دقت أوتاد علقت عليها أعداد من الحصير الخوص {برش} ذات أحجام كبيرة أو صغيرة تستخدم سجادة صلاة {صلان برش} تأخذ على شكل مصلية بمقدمة زائدة من ناحية القبلة وفى مقدمة المنزل صالة وتسمى بالنوبية {الدهليز} وهى بمثابة حجرة المعيشة ثم حجرة الضيوف وتسمى المندرة ذات نوافذ أو شبابيك ثم إلى الداخل حجرات النوم والمطبخ وتسمى بالنوبية {ديون - شاه} أى حجرة الدوكة ثم فى ناحية بأقصى الفناء حجرة للطيور بينما حظيرة الماشية والأغنام خارج البيت، وعلى مسافة منها أما الطيور والدواجن داخل البيت للاستعانة بها فى استضافة الضيف ومن بين هذه الحجرات إلى الداخل الفرندا أمام الحجرات مغطاة بالجريد وتسمى بالنوبية {توركديه} ويتدلى من السقف شعاليق عليها أوانى من الزنك أو الخزف بغطاء محكم ويسمى بالنوبية (كوب - تجر) ليحتفظ بالمأكولات على هذه الشعاليق فى الهواء الطلق عوضًا عن الثلاجة الحديثة والشعاليق خيوط مصنوعة من الخوص أو مغزولة من شعر وصوف الأغنام تحفظ الطعام وما بداخل هذه الأوانى بعيدة عن التلف والفساد {العفن} وبعيدة عن الزواحف والحشرات.

أما الملابس تعلق على عصا غليظة تتدلى من السقف معلقة على ارتفاع مناسب مشدودة من طرفيها بحبل وهى البديل عن دولاب الملابس وفى وسط الفناء مصطبة تستخدم سريرًا فهى مرتفعة عن الأرض حتى يكون من ينام فوقها من الكبار أو الصغار فى مأمن من العقارب والحشرات الضارة والزواحف وتسمى هذه المصطبة بالنوبية (الجوبية) وهى تختلف عن مصطبة الجلوس التى فى واجهة البيت وعلى جانب من الفناء بعض الأدوات والأثاث المنزلى الذى لا يستغنى عنه أى بيت نوبى وهى:

١ - {الجوسية} أو الشونة مخازن للغلال ذات شكل أسطوانى على ارتفاع الرجل تقريبًا لها غطاء وعند القاعده فتحة بمثابة الحنفية لتلقى منه ما بداخله عند الاحتياج بعد التخزين من حبوب وغلال وتمر والقاعدة أوسع قطرًا من الفوهة.

٢ - (السمج)[1] وهى ذات شكل أسطوانى على ارتفاع نصف متر تقريبًا وقطر تقريبًا متر ويستخدم لتخزين أجود أنواع التمر التى تقدم من العروسين إلى المهنئين وتكون داخل حجرة العروسين فى الديوانى والحاصل وفى منزل الزوجية الجديد فى متناول وقريبًا من العروسين.

٣ - (الجوجة) وهى تستخدم فى تربية الكتاكيت الصغيرة حتى تنمو وتكبر وتنقل إلى حظيرة الدواجن

هذه القطع من الأثاث النوبى مصنوعة من الطين المخمر والمعطن {حمأ مسنون}.

٤ - (الرحاية) وتسمى بالنوبية {الجاو} وتستخدم للطحن أو الدش وفى مدخل البيت فى الدهليز فى مكان يتلقف الهواء والنسيم

---

(1) السمج مصنوع من الطين المخمر مضافًا إليه قطع وكسر الزير وغيره من الأوانى الفخارية {الشقف} ليزيده قوة ومتانة وتختلف عن الجوسية فهى أصغر حجمًا وأقل ارتفاعًا.

العليل وضعت المزيرة وعليها الأزيار.

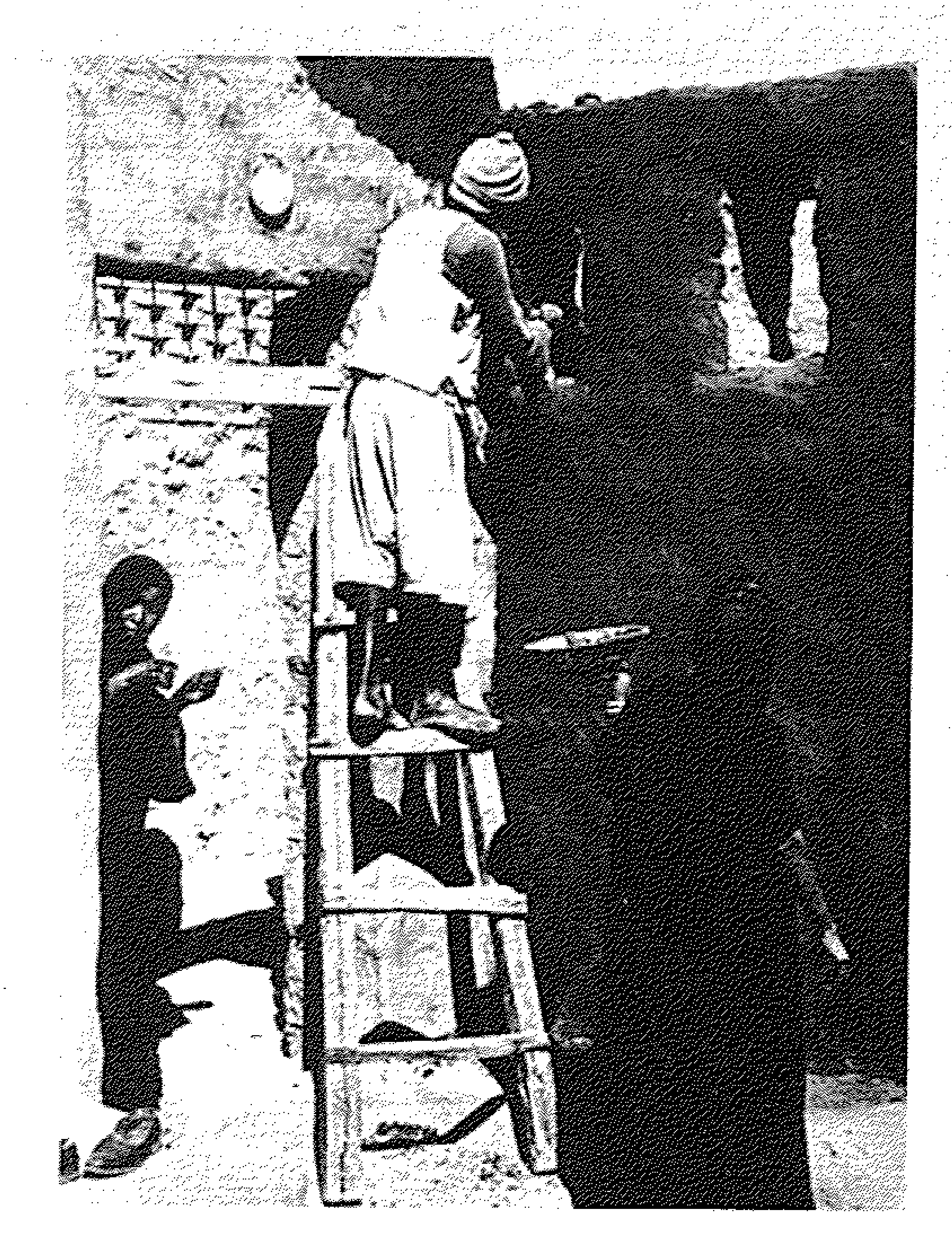
وفى الخارج على جانبى الباب أنشئت مصطبتان لاستقبال الضيف السريع والجلوس عليها فى الصباح الباكر للاستمتاع بنسيم البحر صباحًا أو فى المساء حيث يقدم شاى المساء والسهرة، وفى شهر رمضان يكون تناول الطعام الإفطار فيكسب صاحب البيت ثواب إفطار عابر سبيل أو مسكين من باب كرم الضيافة وأما الباب الخلفى للبيت فيستخدم للطوارئ أو للنساء.

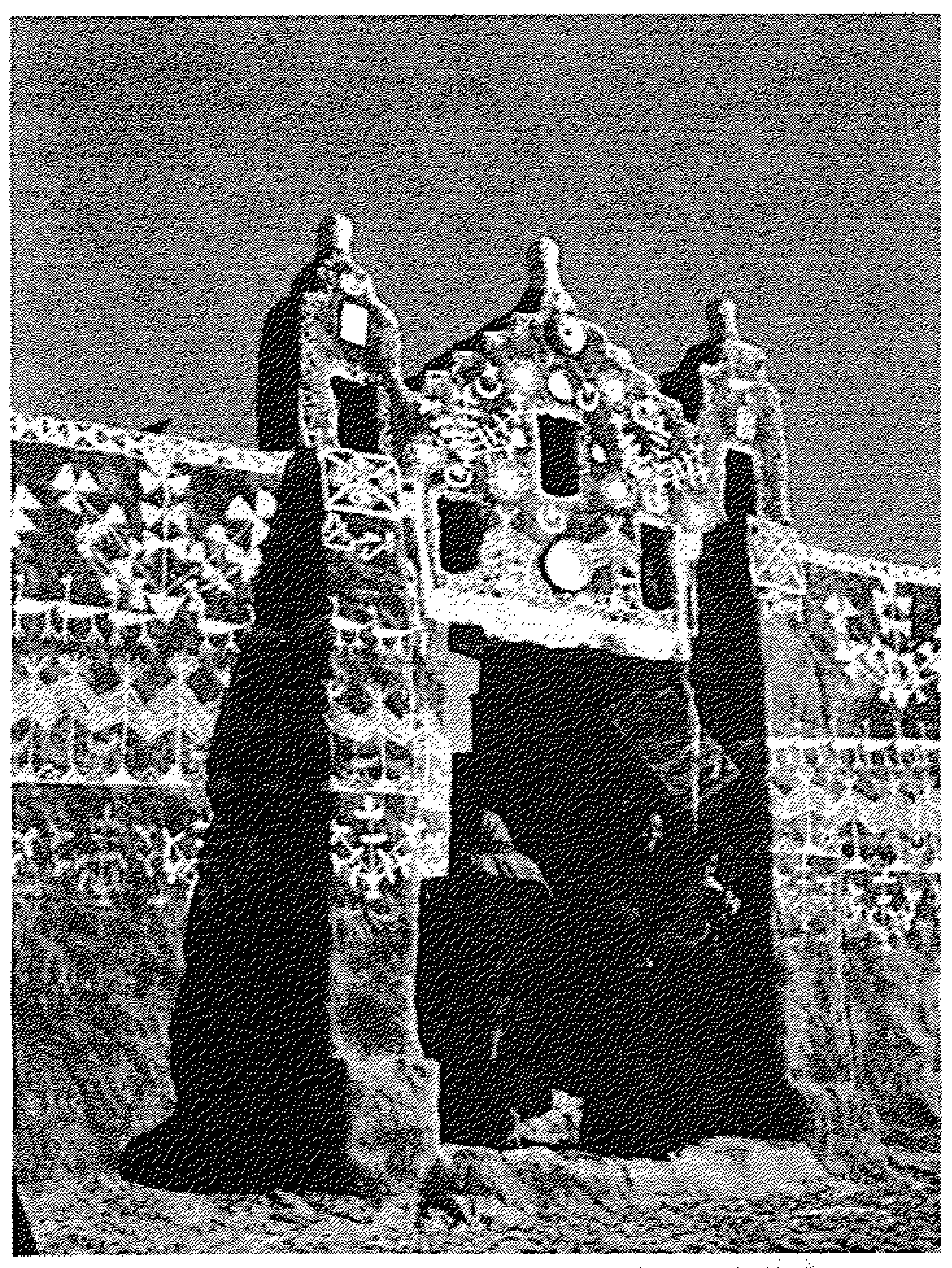
أما الجدار أو السور الخارجى للبيت فقد صفت عليه قوالب من الطوب اللبن مزخرفة الألوان على هيئة خط منكسر وذلك مأخوذ من البيئة المحيطة من السلاسل الجبلية فيضيف على الشكل العام نوعًا من الجمال، وعلى عتبة الدار علق حذاء ليلفت الرائى عن جمال البيت فلا يصيبه حاسد أو حاقد بعين فيؤذيه فيكون البيت ومن فى البيت فى مأمن من الحسد أو الضرر أو الأذى وأحيانًا تستبدل بحيوان برى أو بحرى محنط دليلاً على فروسية صاحب البيت أو شجاعته ومهارته فى الصيد.

أما الباب الخارجى أو البوابة الرئيسية للبيت من ضلفة واحدة ويغلق بمزلاج من الخشب يسمى {الدجل} بضم وتشديد الدال وهذا المزلاج له فتحات تختلف فى كل دجل عن الآخر فى المسافة بينهما وحجم الفتحة إذ يسقط على هذه الفتحات أسطوانات خشبية صغيرة فى حجم الأنامل الدقيقة أو قطر القلم وبطول يتراوح ما بين ثلاثه إلى أربعة سم وعند الإغلاق يبيت المزلاج مارًا بتلك الأسطوانات داخل كتف الباب فى فتحة مساوية لها وعند الفتح تعالج هذه الأسطوانات بساق خشبية على شكل حرف لام بزاوية منفرجة نوعًا ما ومثبت فى نهايتها من الناحية الأخرى غير المقبض الذى يمسك به فمثبت عليه زوائد خشبية فى طول الأسطوانة أو مسامير من حديد بعدد الأسطوانات الساقطة على فتحات المزلاج

وتمنع المزلاج من الحركة إلى خارج الفتحة، ولفتح الباب ترفع هذه الأسطوانات بالساق الخشبية والزوائد المثبتة بطرفها ويسحب المزلاج من الفتحة التى بات فى عمقها فيفتح الباب، وتختلف تلك الفتحات فى عددها وحجمها طبقًا لعدد الأسطوانات الساقطة عليها ويتراوح عدد هذه الأسطوانات من واحد إلى اثنين وثلاثة ونادرًا إلى أربعة فهذه الساق الخشبية هى المفتاح ولعل هذه الفكرة التى ذهب إليها النوبيون تشبه فكرة الأقفال الحديثة ومما يذكر أن الدجل هذا يشبه فى شكله ورسمه الصليب.

كما تم بناء وتشييد بيت الزوجية لجمال بالمشاركة والتعاون من شباب وفتيات الحى بالشمندورة فقد تم نفس الشئ فى تشييد وبناء الديوانى والحاصل فى منزل عثمان باشرى والد العروسة زنوبة فالحاصل والديوانى حجرتان متداخلتان يفصل بينهما باب بحيث يغلق عن الحاصل وفى نفس الوقت باب خارجى للحجرتين، حجرتان يفصل بينهما جدار فاصل به فتحة فى حجم ومساحة الباب وعند فتح باب الديوانى {الخارجى} تسد تلك الفتحة عندما يستند إليه الباب وبالعكس تمامًا عندما يغلق الباب الخارجى تفتح تلك الفتحة التى بين الحجرتين الديوانى يستقبل فيه العريس أصدقاءه ومهنئيه. والحاصل تستقبل فيه العروس زميلاتها، ويقدمان للضيوف أجود أنواع البلح من الرطب أو التمر طبقًا للموسم من {السِّمَج} دون الخروج إلى الجوسية الذى فى الفناء وتفرش كلتا الحجرتين بالحصير من الخوص (البرش) وعليها متكئات مساند ووسائد وتعلق بجدرانها فى الحاصل والديوانى المقتنيات النوبية من أطباق الخوص والأبراش والشعاليق والمراوح اليدوية المصنوعة من الجريد ومغطاة بخيوط من الحرير ولها مقبض من ساق الجريد تستخدم للتهوية عند تحريكها فى اليد يمينًا وشمالاً بطريقة يدوية وتستخدم كمنشة طاردة للذباب.





الحلى

أرسل محى الدين باشرى برسائل إلى القاهرة والإسكندرية، يدعو لحضور ليلة زفاف والمشاركة فى الفرحة، وأول من أرسل إليه هو سيف الدين باشرى وزملاء جمال من صحبة مدرسة الشمندورة، وأرسل جمال إلى عمه بتحويشة (ما جمعه من مال) ليأتى له بمصاغ وحلى العروس من الصاغة بالموسكى، ويشمل (الجكد) وهى ست قطع مستديرة تتوسطها قطعة أكبر نسبيًّا ومرسوم عليها بالحفر أشعة الشمس وتعلق على الرقبة متدلية على الصدر و(الصافة) وهى تسع قطع صغيرة مربعة الشكل يمر بها خيطين متوازيين من الزوايا الأربعة وتدور حول الرقبة.

أما (قرص الرحمن) فهى ست قطع دائرية تتوسطها قطعة على شكل مثلث تتدلى على الجبهة وتحلى بها الرأس والجبهة وللأذن حليتها الخاصة ففى أعلى الأذن وأسفله قطع على شكل قوس تسمى (بالتميم والأخرى بالبرتاوى) ولكن حول كعبى القدمين خلخال من الفضة الخالصة ولحلى الصدر تعلق قطعة دائرية أكبر حجمًا من الجكد تتدلى من الصدر إلى فوق البطن وتسمى (بالفرج الله) وهذه القطعة الأخيرة (فرج الله) أهدتها محروسة باشرى لجمال؛ فهى مما قد احتفظت به من أيام عرسها وفاءً لزوجها مع قطعة أخرى تسمى بـ(الشاشاو) وهى قطعة على شكل نصف دائرية تتدلى منها قطع صغيرة دائرية تزخرفها وتصدر صوتًا مع حركة المشى تصدر صوتًا يتلاءم مع اسمها {شاو شاو} وهى حلى أيضًا تتدلى من العنق إلى الصدر والبطن ويتعهد سيف الدين باشرى

بجزء من تكاليف هذه المصاغ هدية منه لجمال باشرى ومجاملة لمحى الدين باشرى.

فلم يبخل محى الدين على ولده جمال فقد باع قطعة من الأبقار التى يرعاها وشارك معه جمال فى رعايتها فقد باعها ليوفى بالثمن المطلوب لشراء المصاغ وأصر محى الدين باشرى على أن تضاف خواتم لتزين أصابع زنوبة بتلك الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة كما أراد أن يضيف على المصاغ غوايش يزين معصمها.

أما عائشة خير الله زوجة سيف الدين باشرى توجهت إلى محل {عطور وروايح العروس النوبية} لتجلب أفخر العطور والتركيبات المشهورة ذات الروائح النفاذة لتجمع أنواعًا من البخور والمسك والصندل، منها ما هى هدايا لنساء الشمندورة المقربين إليها ومنها ما هى خصيصًا للعروسين.

كما أنها ذهبت إلى الموسكى لتشترى أقمشة فاخرة من الجورجيت والشفون والبوال ورمش العين للنساء والفتيات جرجارًا وطرح وعادت بطرد شامل لهذه الاحتياجات استعدادًا للسفر إلى الشمندورة لحضور زفاف جمال باشرى وزنوبة ، ولم تنس عائشة خير الله الأكسسوار الحريمى والكماليات من حجر الكحل والبرتود وخلطة عطور تعطير العريس فى ليلة زفافه {الفوكريه} وهى من مراسم ليلة الزفاف.

أما أش الله فقد كان يود أن يحضر ليلة زفاف جمال ولكن ظروف عمله لم تسمح له بالسفر فأرسل يهنئ ويعتذر مع أنه أرسل لجمال أفخر أنواع القماش من {التوتل} ليتخذ منه عمامة على رأسه وأرسل لابنة عمه العروس زنوبة أرسل إليها السردحان كما أهدى إلى جمال أفخر أنواع الساعات من {الجوفيال} لتدور حول معصمه ويتيه بها فى ليلة زفافه.

أما عبده كندنونة وبقية الزملاء بمقهى الشروق بالقاهرة والإسكندرية فقد شاركوا الفرحة جمال وآل باشرى ومنهم من وجد الفرصة للسفر ومنهم من لم تمكنه الظروف المحيطة به من السفر، ولكن لم تمنعه من المشاركة فى الفرحة والسرور فأرسلوا مجتمعين مبلغًا من المال مجاملة فى مجموعها توفى بشئ من عبء تكاليف الفرح والزفاف متمنين لجمال وعروسه حياة زوجية سعيدة.

أما بكرى عندما وصله المكتوب بزفاف جمال استطاع أن يجد فرصة فى الحضور والمشاركة وأعد العدة للسفر وجهز طردًا من تلك الأقمشة الفاخرة وعدد ٢ {كلوب} تشبه ذلك الكلوب الموجود طرف الشيخ عبد الله وعمدة الشمندورة، وشد بكرى الرحال إلى الشمندورة مارًا بالقاهرة حيث اصطحب عددًا من زملائه فى تلك الرحلة الشاقة إلى الشمندورة فالصحبة تهون من أهوال ومتاعب السفر ومشقته.

آل باشرى فى الشمندورة ينتظرون قدوم سيف الدين وزوجته من القاهرة كما ينتظرون قدوم بكرى من الإسكندرية، كما ينتظرون بقية الأهل والأحباب من القاهرة والإسكندرية.

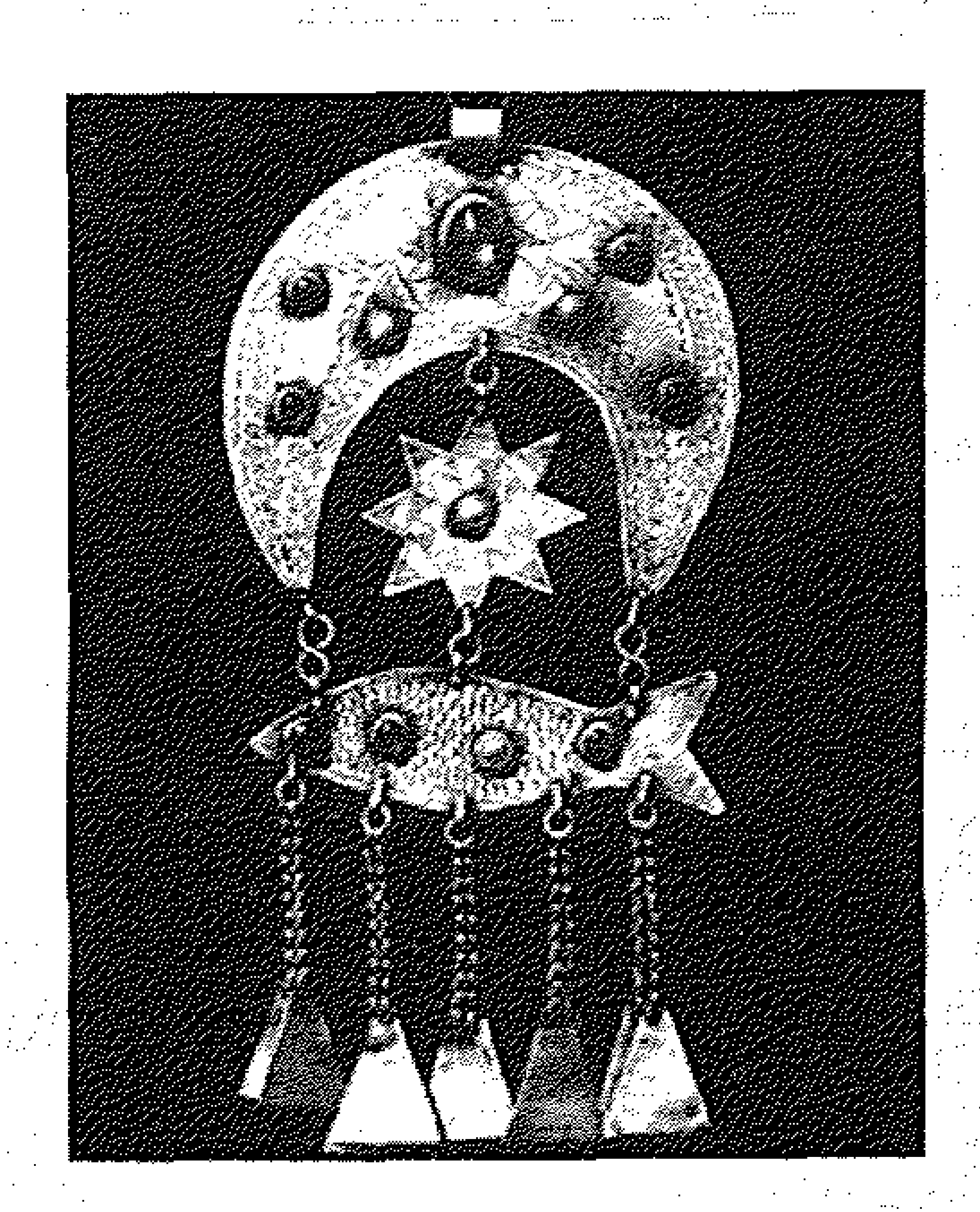
محروسة باشرى فى غاية السعادة والفرح بزواج ابن أخيها من بنت أخيها فهى عمة العروسين وتذهب مع أم جمال وبعض النسوة من ذوات الخبرة والمعرفة فى هذه الأمور فقد ذهبن فى موكب إلى متجر الحاج صالحين للإعداد واختيار جهاز العروسة وهو ما يسمى بالنوبية {الأبا[1]} ومع جهاز العروس لن تحرم أم العروس من هدايا مماثلة للعروسة من جرجار وطرحة وحذاء وغيره بالإضافة إلى ذلك هدايا للفتيات والفتيان من أبناء عائلة آل باشرى والمقربين من

---

(1) لعل هذه الكلمة محرفة من كلمة الباءة ومأخوذة منها وقد تكون لها علاقة بالحديث النبوى الشريف " من استطاع منكم الباءة فليتزوج........" فهى تعنى الاحتياجات والمطالب وما شابه ذلك.

الأحباب، وقد يكون ذلك نوعًا من الفخر والاعتزاز أن تتشابه الملابس فى حلقات الرقص، وهذا مما يسعد العريس حين يرى تلك المجموعة المتماثلة والمتشابهة فى ملابسها تحيى الليلة وتظهر بوضوح للجميع وسط دائرة الرقص والغناء بكل سعادة وسرور، كما تم تجهيز الصندوق الخشبى المزخرف بأشكال مختلفة حفرًا على الخشب ذات ألوان مختلفه ومزينة بمختلف الأصداف تبدو جميلة المنظر من قطع وجهاز العريس جمال كالعادة المتبعة؛ حيث لا بد أن يجهز العريس بصندوق خشبى كبير بأكثر من حزام حديد فى الوسط وعلى الطرفين يمينًا وشمالاً ويحكم الغلق بالقفل أبعاده تقريبا {٢ م ١ م ٧٠سم} ذو مقبضين من الجانبين ليسهل حمله بديلاً عن الشنطة كعادة أهل الشمندورة وقد كانت من لوازم الأكتوبريين يحملونها معهم إلى الشمندورة يضعون فيها حاجياتهم من الهدايا والهبات لذويهم الأهل والجيران والأصحاب عند سفرهم إلى الشمندورة فى شهر أكتوبر وبخاصة فى المرة الأولى إلى الشمندورة.

ويعد أهل الشمندورة الأيام ويستعجلون الساعات انتظارًا لليلة زفاف جمال باشرى الذى شارك جميع أهل الشمندورة بل والقرى المجاورة فى ليالى أفراحهم وأحياها بالغناء والطرب ومواويل أسمر اللونة التى اشتهر بها.





الشمندورة نغنى ونرقص

اليوم يصل الأكسبريس إلى ميناء عنيبة تقل آل باشرى سيف الدين وأسرته ونخبة من الزملاء الذين يحضرون ليلة زفاف جمال، ويستعد كل من محى الدين وعثمان وآل العروسين لاستقبال القادمين ويعد الصبية الرحال من الدواب لنقل القادمين وأمتعتهم ومنذ الصباح الباكر يتوجه الجميع لاستقبال القادمين وترسو الباخرة على الميناء وتنصب السلالم والسقالات والكل أعينه ناظرة ناحية الباخرة وارتفعت الأصوات كل ينادى على بغيته ويزدحم الميناء بالمودعين والمستقبلين للقادمين والمغادرين ويعج الميناء زحامًا وضجيجًا وهذه فرصة لبعض من أهل عنيبة فى البيع والشراء تجارة لمستلزمات المسافرين وكذلك الحمالين للأمتعة على الدواب، وقد رست المراكب الشراعية عن كثب على استعداد لنقل الركاب ويبدو سيف الدين باشرى وأسرته يلوحون بأيديهم بينما نخبة من زملاء جمال يحملون الأمتعة إلى خارج الباخرة وأسرع المستقبلون لسيف الدين باشرى يشيرون له ومن معه بالنزول ويحملون عنهم الأمتعه ويحمدون الله على سلامة وصولهم.

وتبدأ الرحلة إلى الشمندورة التى غابوا عنها والتى تأهبت عن بكرة أبيها لزفاف جمال باشرى وازدحمت القرية بالمحبين والحاضرين لليلة زفاف جمال من القاهرة والإسكندرية وقد اقترب يوم الزفاف وبدأت ليالى المرح والطرب والغناء كل ليلة يجتمع الأصحاب والأحباب من زملاء جمال ليقضوا السهرة مع جمال يمتعهم ويطربهم بمواويله وصوته الندى ويسعدوه بالمشاركة

والمجاملة وتدق المزاهر وتعزف أعذب الألحان على أوتار العود والطنبور تهز الوجدان وتسعد القلوب وآن الأوان لترد الشمندورة الجميل لجمال باشرى.

أما فى الصباح فالكل يساهم بما يستطيع ويشارك بما يقدر عليه فشباب الموالى لآل باشرى أمثال سعدون ودهب وفضل الله وبخيت وغيرهم يجمعون جذوع الشجر من الحطب ويشقونها ويقطعونها إلى قطع صغيرة ويعدونها وقودًا لأغراض الطهى.

أما أبناء العمومة لجمال يتولون تجهيز وإعداد وتخزين ما يلزم أيام الفرح من خضار وذبائح ومستلزمات البقالة.

أما بقية شباب الشمندورة يعدون مضيفة آل باشرى للاستضافة واستقبال من يفد للحضور من القرى المجاورة بحرًا بالمراكب وبرًّا بالدواب.

أما الفتيات مشغولات بإعداد الجرجار والطرح من الشفون والجورجيت الخالص وباقى مستلزمات دائرة الرقص ومنهن من تعهدن بتجهيز الديوانى والحاصل فى منزل العروس بالأثاث والفرش وزخرفة الجدران وتعليق المقتنيات من أطباق الخوص وبرش وشعاليق ومراوح وهذه المقتنيات تعد من أساسيات جهاز العروس فى يوم زفافها.

كما تحدد يوم الفصيل {التفصيل وحياكة ملابس العريس} وفى هذا اليوم ينتظر الزملاء الهدايا من العريس قطع من القماش يهادى بها زملائه وشباب العائلة.

ولا يخلو الجهاز من سجادة صلاة من الخوص بالإضافة إلى الإبريق والطشت ويعد الموقد داخل الديوانى والحاصل (الدورق) لإعداد الشاى أو الوجبات الخفيفة وهى عبارة عن صينية دائرية من الطين المخمر ذات ثلاث أثافى يوضع فوقها القدر أو البراد والدورق وتختلف عن الموقد الاصلى فى {ديون شاه} وتسمى بالنوبية {الدورق}.

أما الأرض تعد بفراش الحصير من الخوص {البرش} وعليها المساند والوسائد وتعبأ الحجرتان ببخور الصندل وتعطر بمسك {اللواندة} وتعد بعض الأشكال الزخرفية من الكرتون المغلف بالبلاستك الملون على أشكال العرائس أو رسوم الشمس والأشكال الفرعونية من اللوتس ومفتاح الحياة وغيرها وتعلق على الجدران وكأنها ورق حائط فى العصر الحديث، وتتدلى الشعاليق من السقف وعليها الأوانى الخزفية والفخارية {الكوب - تجر}.

أما فريق الكشافة بقرية الشمندورة تعد العدة والتدريب للاستعراض فى طابور العرض بملابس الكشافة تدق الطبول وتعلو بالهتافات والصيحات المدوية ومنها {نحن كشافة الشمندورة - نحن شباب النوبة} ومنها هتافات تحية للعروسين وآل باشرى.

وأما مصطفى أبا يزيد فقد استعد بهدية لجمال باشرى وهى عبارة عن سوط من الجلد المطاط الخالص يصل طوله إلى مترين تقريبًا ويتلوى فى يد حامله كأنه ثعبان حى ويصدر فى الهواء طرقعات إذا حرك بشدة وقد تشرب من الزيت المعتق جعل له بريق ولمعان ذات لون أسود يميل إلى البنى بصفرة لامعة وفى آخره مقبض تتدلى منه شرائح ملونة من الجلد، وكان قد حصل عليه من سوق الشلال واردًا من حلفا وهى من الأنواع المتميزة النادرة، أما شكرى حسنين فقد كان من حسن حظ جمال أن مقاس قدمه هو نفس مقاس قدم شكرى حسنين الذى احتفظ لنفسه بحذاء أحمر من الجلد الطبيعى أيضًا وارد حلفا فقد اشتراه من سوق الشلال يوم أن اشترى مصطفى أبا يزيد الكورباج فقد استعد ليهديه لجمال العريس فلم يبخل به فقد تنازل عنه لجمال باشرى ليلبسه فى ليلة زفافه ويطرقع بالسوط {الكورباج} على رءوس المهنئين من شباب الشمندورة وقرى النوبة.

بينما زهرة سعيد وسعدية الشيخ فكل منهما لم تنس زنوبة فقد

أهدوا إليها مجموعة من العطور السودانية من الخمرة والدلكة السودانية والمحلب فهى من مستلزمات ليلة الحنة والزفاف للعروس كما أهدوا إليها مكحلة متميزة على شكل ديك ذى عرف أحمر طويل كلما حرك المرود فيه يصدر صوتًا مثل صوت الديك وأتى به خصيصًا من سوق الشلال مع كمية من حجر الكحل الخالص المصقول من الأنواع الجيدة؛ ليسحق ويجهز للاكتحال فتكسب العين والحاجب جمالاً فوق جمال وهذه الهدايا كلها أحضرت من الشلال واردًا من وادى حلفا.

وهكذا بدت الشمندورة كخلية نحل تعمل نهارًا بكل همة ونشاط فى سعادة وسرور وفى المساء يكون السهر والطرب والغناء والرقص وكثيرًا من الأحيان يكون الإلحاح على جمال العريس بأن يطربهم ويمتعهم بصوته الندى وعزفه على أوتار العود أو الطنبور على أنغام دقات المزاهر ويطلبون من جمال ويلحون فى الطلب أن يتغنى بمواويل معينة قد برع فى التغريد بها كبلبل يصدح على غصن ميال وكان مما يتغنى به:

الليل ياسمرة يا سمار الليل ياسمرة

وواسافروجوكو أيج جندمين وواسافروجوكو

أيليه فجورلى دولجدنج أيليه فجورلى

إر كرسلا مومى إدج اوكرسلامه ييجومى

أى سامحوس إكا حنمين أيجا آذيوكوجا

الليلة يا سمرة يا سمار الليلة يا سمرة

فهذه الكلمات غزل عفيف وتغنى بجمال المحبوبة التى تشبه فى سمارها سمار الليل ويعاتبها على سفرها دون أن تودعه فيقول لها إنه مهما كان منها من خطأ فلن ينسى حبها ويدعوها أن تودعه وتسلم عليه مودعة يدًا بيد ويصرح أن بقلبه الطيب المسامح لم يكن قاسى

القلب نحو محبوبته بل مسامحًا يعفو عما بدر منها من إيذاء بالبعد والجفاء.

فيعقب ذلك الغناء آهات وتهليل من المستمعين بهذه المعانى وذلك الصوت الجميل واللحن المطرب الراقص ومن أغانى الأفراح أيضًا كان يصدح جمال بأغانى معينة تطلب منه أن يؤديها لحسن أدائه ومنها الله لون يا لون

الله لون يا لون..........لونة يا للونا

تكسى يا ملاكى...........ايو

تود اريسكل كاجى.....ايو

عروستنجل كاجى...... ايو

على الحجاز طوالى

الله لون يا لون...........لونه يا للونا

بطه ويك آناريه...........ايو

إن جبال آناريه.......... ايو

جى فين آناريه............ ايو

أداجورين سان............ ايو

بطه لاوايونا

الله لون يا لون......... لونه يا للونا

وفى هذه المقاطع تكون الأغنية مشتركة بين المطرب المغنى جمال والكورس {المجموعة} ويحدث نوع من الانسجام والاتساق بينهم بين الغناء والرد والجواب بمقطع متحد فكلما ذكر مقطع يكون الرد والجواب من الكورس بكلمة {ايو} بمعنى نعم وفى هذا المقطع يتغنى جمال بقدرة الخالق الله ﷻ وبجمال اللون والخلقة.

ويخاطب سائق التاكسى الملاكى حيث كان التاكسى شيئًا

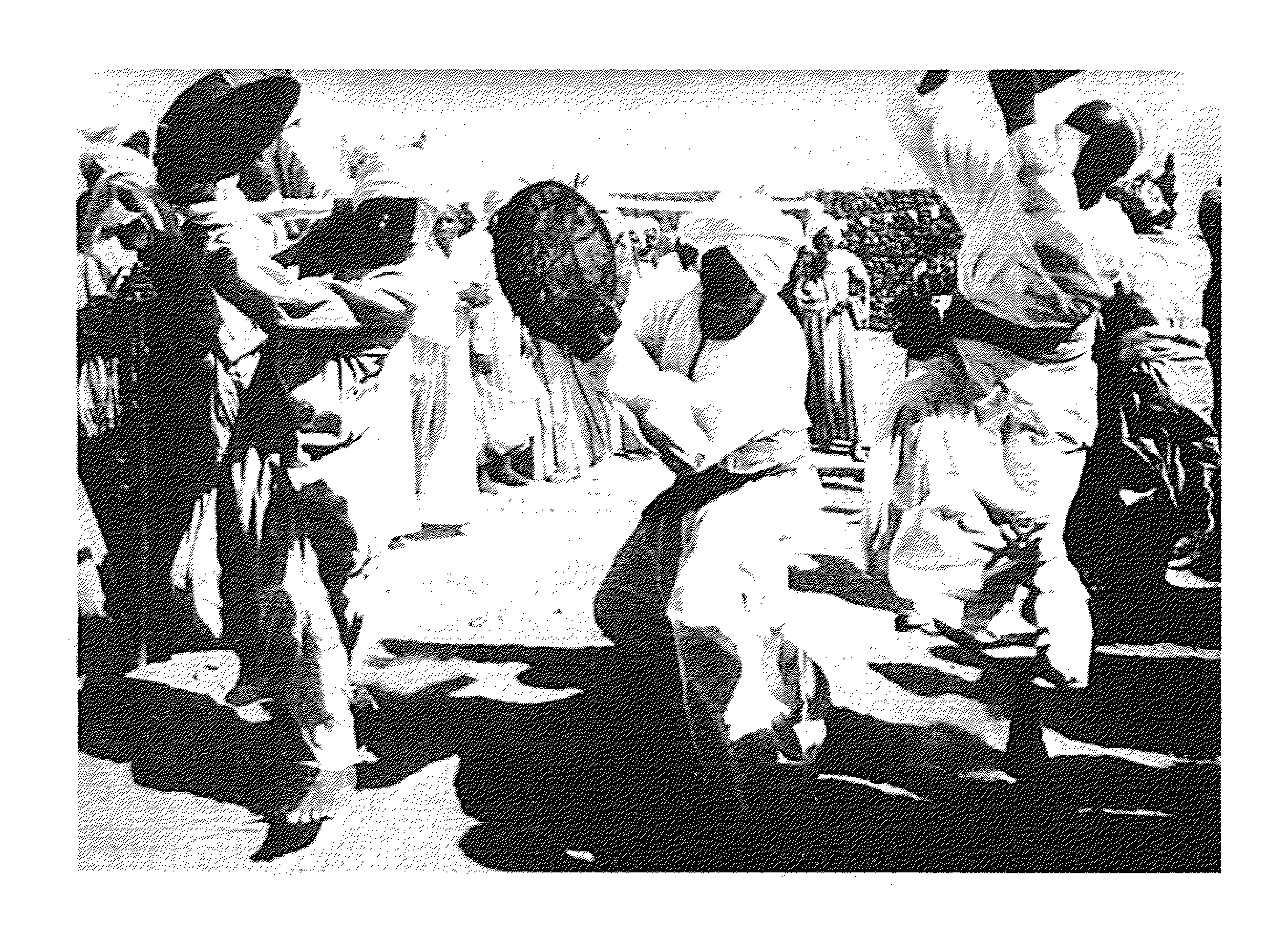
نادرًا وشاذًا أو أهل النوبة يسمعون به فقط ولا وجود له فى الواقع فى بلاد النوبة فيسمعون به من الواردين من القاهرة والإسكندرية كالأكتوبريين، فالتاكسى الملاكى وراكبه له قيمه كبيرة وشأن عظيم ولذا يتساءل من الذى يستقل التاكسى الملاكى؟

فهل تحمل العروسين أيها التاكسى؟ فإذا كان كذلك فعليك التوجه بهما مباشرة إلى الأراضى الحجازية {مع أن الوسيلة للسفر إلى الأراضى الحجازية ليست هى التاكسى} أما المقطع الثانى يتحدث عن جمال الفتاة النوبية والمحبوبة فيشبهها بالبط الذى يمشى على مهل ويتهادى من بسطة جسمه وزيادة وزنه فى البر الآخر، وهذا نموذج للجمال فى الفتاة النوبية وقد أعجب الفتى بها وأبحر إليها يعبر إلى الشط الثانى ولكن يا حسرة عليه فقد طار البط قبل أن يصل الفتى للشاطئ الآخر فيتعجب ويتحسر لذلك فقد فاتته فرصة اللحاق بها.

وهكذا تمر الليالى تباعًا سريعة سعيدة مملوءة بالمرح والسرور بين الغناء والطرب والسهر وبكرى شقيق العروس يحضر تلك السهرات الفنية الغنائية ولم يبعد ليلة عن ملازمة جمال باشرى وفاءً للصداقة وصلة الرحم بينهما ولعله يتذكر أيام مدرسة الشمندورة فى عهد الصبا ويحكى ويروى ما كان يحدث فى تلك الأيام من لهو وعبث وأعمال صبيانية شقية ويتذكر عبده كندنونة الذى تغير مسار حياته، ويتذكر أيضًا الأيام الأولى فى مدرسة عنيبة حينما التحق بها حيث كان يلازم جمال وشلة الأنس والطرب وكثيرًا ما كانا يعبران النيل إلى قرى أخرى لقضاء ليالى السهر والطرب والغناء بمناسبة فرح أو زفاف.

وقبيل ليلة الزفاف الفتيات فى منزل العريس والعروس قد نصبن أعدادًا من الدوكة الحديدية فوق الأثافى ويتناوبون عليها ويتبادلن الجلوس أمام الدوكة لإعداد الخبيز {الخمريد} اللازم لأيام الفرح

وقد تنصب فى بيوت الجيران للعريس والعروس إذا ضاق المكان فى بيت محى الدين باشرى أو عثمان باشرى، وتعد هذه المشاركة من الفتيات مجاملة لآل العروسين وقد يستغرق الخبيز ساعات وساعات ولكن لا يشعرن بالملل أو التعب؛ فهن فى مرح ومداعبة وغناء لا يشعرن بطول الوقت وقد تظهر كل فتاة براعتها وقدرتها وكفاءتها فى الخبيز فى دقة ومهارة واتقان وسرعة، ويكون هذا فى تنافس شريف ممزوج بالمرح والسرور.



العريس والنيل

أصدر محى الدين باشرى أوامره وتعليماته إلى الشباب بأن تذبح الذبائح لاستقبال الضيوف الوافدين من مختلف القرى المحيطة وبكرى فى زمرة من زملائه ينظمون وينسقون فهنا يبيت الضيوف ليلتهم وهناك تربط وتقيد الدواب التى تحملهم، وحسن جريتى ومن معه من موالى آل باشرى يجهزون الخشب من الحطب وقودًا وتعد القدور النحاسية الكبيرة، وأما جمال باشرى فقد أعد مجموعة من العطور النفاذة والثياب البيضاء والعمامة والطاقية والشال الذى يلتف حول عنقه واستعد لمغيب الشمس وفى جنبات الفناء وأمام البيت تدور أطباق الخوص بها الفيشار تعلوها التمرات وتطوف أكواب الشربات، فلم يغادر الفيشار والشربات المكان كلما فرغت عادت وامتلأت فى استقبال الوافدين من الشمندورة والقرى المجاورة فهكذا.... يتردد ويطوف بها الصبية من البنين والبنات ويجتمع شباب الحى حول جمال العريس يمازحونه ويداعبونه بكلمات المجاملة والتهنئة فيرد عليهم الدعابة بدعابة بكل مرح وسرور ويحيطون به فى سعادة بالغة وعند المساء عندما يجن الليل ويحل الظلام يوقد {الكلوب} ذلك المصباح الذى يشع نورًا ويسطع برتينة معلقة فى وسطه ويشتعل فى البداية بالكحول حتى تتوهج وتضئ وتبعث بنورها صافيًا، وأمام المنزل بسطت الأبراش أما فى داخل البيت يجلس العريس جمال على برش مبسوط أمام عمته محروسة التى وضعت أمامها إناء به مخلوط الحناء بالعطور والصندل والمسك وأنواع أخرى من الإضافات التى تزيد وتكسب

الحناء حمرة تميل إلى السواد حمرة داكنة وتحنى جمال فى يديه ورجليه وتمسح بيدها على جبهته التى تحمل بها الحناء وتضع جزءًا من هذه الحناء على جبهته وتقربه من أنفه حتى يشم تلك الرائحة الذكية التى تنبعث من الحناء فيستنشقها مستمتعًا بها، وفى أثناء ذلك يحيط به النساء والفتيات والأهل والأحباب والشباب المقربون لجمال، ويردد ذلك الجمع المحتشد ما تتغنى به تلك المرأة العجوز {عمته محروسة باشرى} ومطلع ما تتغنى به أو المذهب {جلييه - سابيه} أى بمعنى اعمل واسع جاهدًا ثم بعد ذلك تتغنى بما معناه اعمل واسع جاهدًا أيها العريس لتكسب من حلال وتأكل من حلال وتكفى أهلك من حلال وتنعم بالحلال واغتن بالحلال عن الحرام، اسعى أيها العريس من أجل زوجتك وأهلك وأولادك حفظك الله ورعاك أن آبائك وأعمامك يباركون لك تقبل الهدايا والهبات والتهانى من أهلك أعمامك أخوالك ذويك.

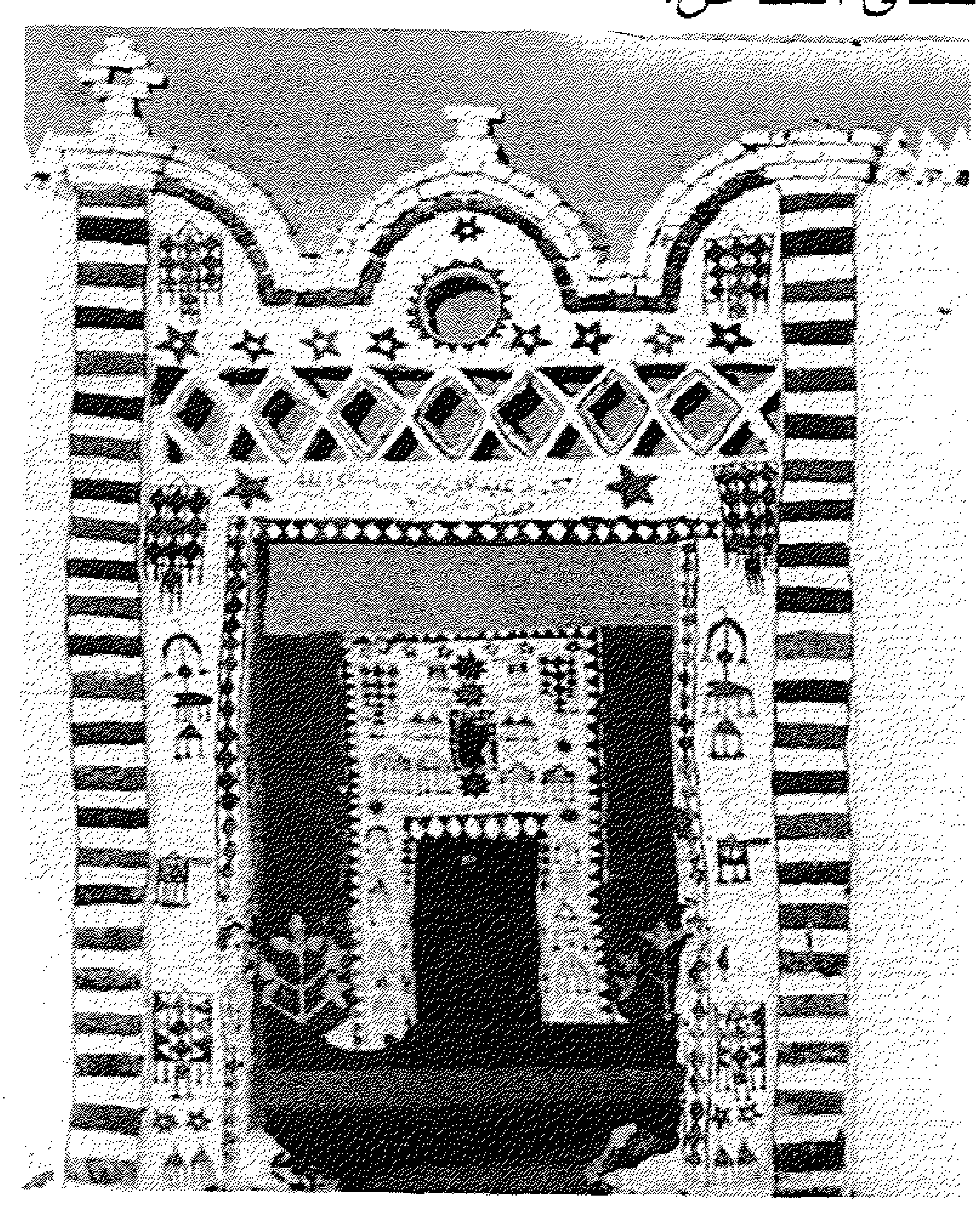
وهذه الأغنية خصيصًا لهذه المناسبة حيث يتغنى بها الكبار من النساء ويرددها خلفهن الجمع المحتشد فى الاحتفال بتعطير العريس {يسمى بالنوبية الفوكريه} أو عند ذبح الذبيحة احتفالا بليلة الحناء أو الزفاف وفى مناسبة التعطير يفتح دفتر يسجل فيه احد الزملاء المقربين للعريس النقود وتسمى بالنوبية (الكريه) يهبونه قروشا معدودة من قرشين إلى ثلاثة وتصل إلى خمسة قروش من آل العريس وذويه أو من المقربين إليه وتعد هذه القروش مجاملة ترد فى المناسبات اما الاقارب من العائلة فيهبون للعريس اشياء عينية مثل جزء أو سهم من الساقية كالربع أو النصف أو الثلث أو غرس شجرة ليمون أو فسيلة من فسائل النخل أو نخلة مثمرة أو بعض قراريط من الأرض الزراعية أو بقرة أو غير ذلك من العينيات والممتلكات الخاصة عند اهل الشمندورة.

وبعد الحناء يقوم العريس من هذا الموقف إلى النيل فى رفقة من أحبابه وأصدقائه من الشباب ويحمل أحد المقربين إليه صرةً به ملابس العريس الجديدة التى لم تلبس بعد ملابس داخلية وخارجية وعمامة وطاقية وكوفية وشال كوفية يتلفح بها ويتوجه العريس فى هذا الجمع من الشباب إلى النيل العظيم المبارك وهناك يقف على الشاطئ يخلع كل ما عليه من ثياب فهى جديدة قد لبسها فى هذه الليلة ولكنها تلطخت بالحناء ولذا يتنافس الزملاء والأصدقاء من الشباب أيهم يفوز بتلك الملابس التى خلعها العريس جمال؟ فإذا أزال عنها الحناء عادت جديدة فيتنافس عليها الزملاء حبًّا ومودة للعريس جمال.

ويقفز العريس جمال إلى النيل يظهر براعته ومهارته فيصل إلى الأعماق بعيدًا عن الشاطئ وسط الضجيج والتهليل من زملائه الذين يتبعوه وينزلون فى ماء النيل ويقضون وقتًا ممتعًا يسبحون فى النيل وفى منافسة يتصايحون ويمرحون ثم يخرج بعدها العريس ويتجه إلى ناحية ذلك الصديق الذى يحمل صرة الملابس ويكون على أهبة الاستعداد فيناوله الملابس فيلبسها العريس فى سرعة بينما يدور المزاح والمداعبة بينه وبين زملائه وبعد أن ينتهى من ارتداء ملابسه ويعمم بالعمامة فوق غطاء الرأس {الطاقية} ويلف حول عنقة الكوفية أو الشال تتدلى من كتفيه على صدره وظهره ويلبس حذاءه ويمسك جمال بيمينه ذلك السوط ويقدم الشكر الجزيل والعرفان لأولئك الزملاء الذين قدموا له الحذاء والسوط هدية من سوق الشلال.

ويتجه الجمع إلى منزل العريس عودة ثانية ويتوجه جمال العريس إلى والدته هجلة التى تنتظر عودته بفارغ الصبر فتهنئه وتبارك له وتدعو له بالخير والعمر والسعادة الزوجية ويعود إلى التعطير بعد الاستحمام والسباحة فى النيل فتعطره بالمسك والصندل التى

اختزنتها لمثل هذه المناسبة ويشد على ذراعه الأيسر سكينًا صغيرًا حادًا دليلاً على الفروسية والشجاعة وبخاصة أمام عروسه عندما يخلع عنه الجلباب فترى ذلك منه فتشعر بشجاعته، وأما على الذراع الأيمن فيشد عليه {تميمة} تكون أحيانًا مكسوة بقماش أو غالبًا مكسوة بالجلد فيشدها فى ذراعه الأيمن لتمنع عنه الشر ولا يصاب بسوء أو بعين الحسود والحقود وتفسد كيد الكائدين وعندما يؤذن لصلاة العشاء فيصلى الجمع المحتشد صلاة العشاء ويصطفون على الأرض على الفرش من الحصير المعدة للجلوس {البرش} فى صفين متوازيين وتوضع أمامهم الصوانى مغطاة بأطباق الخوص الكبيرة {وتسمى بالنوبية الشُّور} ويجلس الجميع فى مجموعات صغيرة حول هذه الصوانى فى عدد يتراوح ما بين ثلاث أفراد إلى أربعة وتزاح الأغطية عن الطعام ويتناولون طعام العشاء بكل شهية وإقبال وبعد تناول طعام العشاء تطوف عليهم أكواب الشاى الساخن.



فى منزل العروس

أما العروس فقد تعهدت بها أترابها من الفتيات وبعض من النساء ذوات الخبرة والممارسة فى تجميل العروس وتطييبها بالخمرة[1] والدلكة، كما تستخدم بعض المواد لترطيب البشرة حتى تبدو العروس زنوبة غضة بضة ذات روائح نفاذة وجسمها كقطعة من الملبن السورى وتكتسب بشرتها لونًا خمريًّا يميل إلى السمرة تعكس بريق الحلى التى تتزين بها من شعر رأسها حتى الخلخال فى كعبى قدميها مارة تلك الزينة والحلى بالأذن والأنف والجبهة والرقبة والصدر والرسغين والمعصم برسومات وأشكال مختلفة بالحناء وقطع الحلى حتى تبدو العروس فى مجملها لوحة فنية رائعة تشهد لسبحان الخلاق وتشارك فضيلة مرجان فى صنع هذا الجمال البارع وإبراز تلك الصورة الجميلة للعروس وتضع اللمسات الأخيرة مع زميلتها وقرينتها من الموالى والإماء صاحبة الأجل فى الدعوة من جانب العروس وهى وصيفة العروس طوال أيام العرس حتى نهاية السبوع، وتنقل للعروس خبرتها ودرايتها فى الأمور النسائية الخاصة للعروس خلال الأسبوع الأول من الحياة الزوجية للعروسين.

وعند المساء تجلس أم العروس وبجوارها أقرب الناس إليها ويجلس واحد من صبية تلاميذ المدرسة يسجل فى الدفتر النقوط وتسمى بالنوبية {الكرية} وهى عبارة عن قروش معدودة مجاملةً لأم العروس تردها لمن يجاملها فى المناسبات السعيدة مستقبلاً ولذلك

(1) مجموعة من العطور والمواد الأخرى الذكية الرائحة تخلط بنسب معينة وتعتق

تسجل بالقلم فى الدفتر وتجمع هذه النقود وتسلم مع الدفتر إلى أم العروس هذا كما حدث فى منزل العريس مع هجلة أم جمال.

أما فى خارج البيت وأمام ساحة بيت عثمان باشرى والد العروس فقد اصطف الحاضرون بعد صلاة العشاء لتناول العشاء كما تناول المدعوون فى بيت العريس، وبكرى يتنقل كالفراشة بين الجمع المحتشد هنا وهناك ينظم ويرتب ويشرف على المطبخ مكان الطهى حتى تعد الصوانى وتجهز وترص بجوار بعضها حتى يتجمع الناس ويحين وقت تناول العشاء ويأمر بخروج الفتيان يحملون هذه الصوانى وتوضع أمام الجالسين ويقوم الصبية بمهمة الخدمة والسقاية للضيوف ويكلف آخرين بتجهيز أكواب الشاى الساخن بعد تناول الطعام مباشرةً وهكذا يتنقل بكرى مشغولاً بتوفير كل سبل الراحة والخدمة لتلك الجموع المحتشدة التى جاءت زرافات وفرادى لمجاملة آل باشرى وعثمان باشرى، فهو يجلس بين الضيوف مع أقرانه من الرجال والشيوخ يتقبل التهانى وأحيانًا يقف مستقبلاً للوافدين ويتنقل بعينيه يمينًا وشمالاً يتفقد ما حوله، وبكرى يكفى والده عثمان باشرى مهمة الإشراف والمتابعة لراحة الضيوف ملبيًا لكل طلباتهم، أما سيف الدين يتنقل بين بيت شقيقيه عثمان ومحى الدين باشرى سعيدًا يتقبل التهانى ويعطر المهنئين بعطر نفاذ ويهب الفتيان والفتيات هدايا قاهرية يتسابق الجميع للفوز بها وفى آخر الليل كان الكل قد تناول طعام العشاء وشرب الشاى الساخن واستعد الشباب من الفتيان والفتيات لقضاء سهرة فنية بين الطرب والرقص والغناء.

وتحرك الموكب يتقدمهم العريس جمال يحمل السوط الحلفاوى يمينه يرفعه عاليًا ويهبط به يلوح به فى الهواء فيتلوى ويصدر طرقعة بل طرقعات ويحرك يده اليسرى ليظهر الساعة الجوفيال المهداة إليه وعلى جانبيه زملاؤه وأحباؤه المقربون إليه يداعبونه ويمازحونه

وتصدر عنهم قفشات فيضحكون، وأما نعمة ابنة عمه سيف الدين باشرى مع إحدى الفتيات من آل باشرى تسيران خلفه يمشون فى تيه وفخر تتراقصان وتحملان المبخرة تتصاعد منها روائح ذكية تصل إلى كل الأنوف فى الموكب مع الدخان المتصاعد وفتاة ثالثة تحمل الحنة صينية كبيرة على أطرافها أوقدت الشموع وغرست فى خلطة الحناء وتتمايل بها فرحة مسرورة لأنها فازت بحمل حنة العريس ويتناوب فى حمل هذه الصينية فى منافسه وتسابق كثير من فتيات آل باشرى لتنال الشرف فى حملها وبخاصة فهى حنة جمال باشرى الذى يلقب بالأفندى ومصطفى أبا يزيد فى غاية السعادة فإنه يحمل شنطة ملابس العريس وأغراضه الخاصة وهى شنطة من الحديد على شكل متوازى مستطيلات من صنع {مأش الله تبد[1]} حداد الشمندورة.

وشكرى حسنين يحمل {الأبا} جهاز العروس من ملابس، ومحروسة باشرى تحمل على رأسها فرش العريس {البرش الأبيض من الخوص ومشتملاته من فرش وغطاء ووسادة} الفرش بداخل البرش ملفوفًا مطويًا على شكل أسطوانى ويربط بحبل من طرفيه، ويسير الموكب من الرجال والنساء والفتيات والفتيان والصبية بنين وبنات يتوسطهم المغنون يرفعون أصواتهم فإذا بالحناجر تصدر أصواتًا تبعث الطرب وبينهم ضاربى الدفوف يدقون المزاهر وكلما تغنى المطربون بأغنية رددت الجموع المحتشدة المذهب وسط الزغاريد التى ترتفع بها حناجر النساء والفتيات من آن إلى آخر ويصل الركب والموكب السعيد إلى مشارف نجع وحى

---

(1) مأش الله من الأسماء النوبية المشهورة فى النوبة وهى محرفة عن ما شاء الله تنطق مخففة عن الألف والهمزة وكلمة تبد تعنى الصائغ أو الحداد وهنا بمعنى حداد، ومما يقوم به تصنيع وصيانة العدد الزراعية مثل {الفأس والمنجل والقدوم والبلطة والجاروف والزحافة و... إلخ.

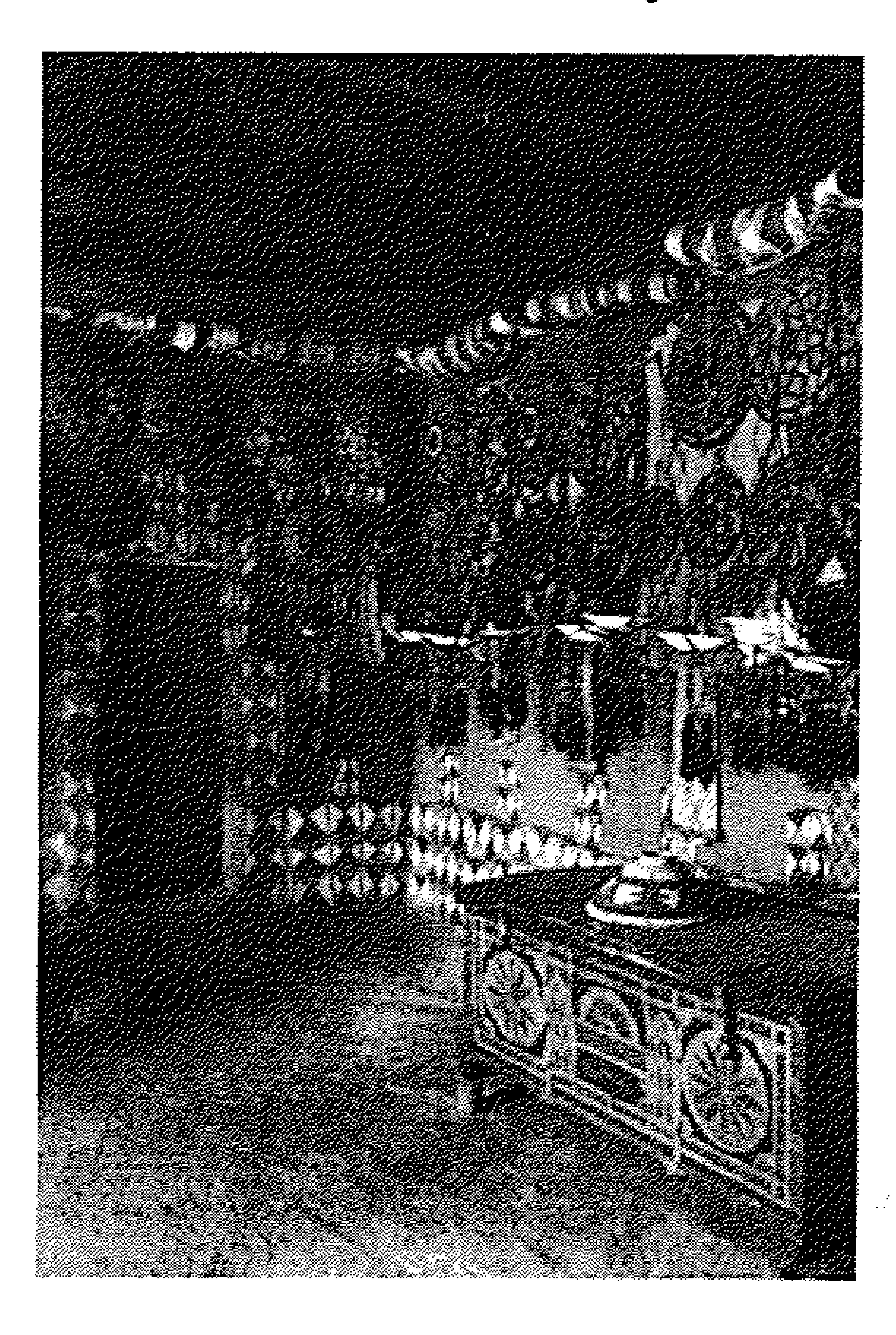
العروس وتفاجأ مقدمة الموكب وهو دائمًا من الشباب بمجموعة تخرج من وراء تل مرتفع تهاجم تلك المجموعة من الفتيان على مقدمة الموكب فى صراع ونزال مصطنع يظهر فيه شباب الحى أنهم الحصن المنيع المدافع عن العروس وبسرعة شديدة ينفض ذلك النزال والصراع ويشارك الخفير النظامى الذى يحمل البندقية العهدة معلقة على كتفه الأيسر ويمسك بيده اليسرى {الكلوب} الذى يضئ الطريق شعلة أمام الموكب ويمسك بيده اليمنى عصا طويلة {خيزران} يحركها للتنبيه والتحذير والتلويح فهو ضابط الأمن والنظام فى الموكب.

وينضم ذلك الفريق المدافع لحصن العروس الذى كان خلف التل المرتفع ينضم ويندمج فى موكب العريس ويسير الجميع فى غناء ورقص ومرح وضجيج إلى بيت العروس فيستقبله موكب مماثل للعروس ولكن بدون العروس فالعروس ما زالت فى بيت والدها فيخرج ذلك الموكب يحمل صينية الحنة متشابهة بصينية حنة العريس تحملها إحدى الزميلات والصديقات المقربة للعروس، وكذلك يكون حملها بالتناوب بين تلك الزميلات وتقابل نظيرتها فى موكب العريس وترقصان معًا وحولهما الجموع تغنى وتصفق والعروسة مصونة مكرمة فى حجرتها بين الخاصة من زميلاتها.

يتجه الرجال إلى المجلس وهو المكان المعد للجلوس لكتابة العقد ويجلس الجميع بعد التحية وحسن الاستقبال والترحاب من جانب الحاضرين فى منزل العروس، ويظل الشباب من الفتيان والفتيات فترة من الزمن يرقصون فرحين بالعريس جمال وليلة زفافه، ثم يتوقف الدق على المزاهر كما يتوقف الغناء والرقص ويجلس الجميع ينتظرون بداية العقد وينادى المأذون على العريس جمال فيجلسه أمامه وعلى جانبى المأذون محى الدين وعثمان وسيف الدين الذى حضر من القاهرة ليكون له الشرف أن يكون

وكيلاً عن العريس أما وكيل العروس فهو خالها الذى يحضر المجلس ويلقى أمام المسجد شيخ القرية كلمة يبين فيها الحكمة من الزواج ومشروعيته بعيدًا عن الحرام والسفاح، ثم يبدأ المأذون فى إلقاء خطبته عن الزواج آية من آيات الله ويحث الشباب على التمسك بسنة الرسول ﷺ، ثم ينادى قائلاً: يا طالب يا مطلوب ويتلو الصيغة الشرعية لعقد القران ويرددها خلفه كل من الطالب والمطلوب ثم يأخذ التوقيعات على العقد ويعلن زواج جمال محى الدين باشرى من زنوبة عثمان باشرى ويدعو لهما بالتوفيق والخير والبركة ويتمنى لهما حياة زوجية سعيدة دائمة وفى هذا المجلس يكتب العقد ويقوم الكل لتهنئة آل العروسين.

أما صينية الحنة للعريس والعروس يحتفظ بهما فى مكان أمين محكم حتى آخر الليل بعيدًا عن أيدى العبث والفساد وكيد الكائدين وفى مأمن من إخوان الشياطين الذين يستعينون بالسحر والشعوذة من أعمال الشيطان، فهناك كثير من المعتقدات الموروثة والأساطير حول صينية الحنة والعبث بها للإضرار بالعروسين مثل ما يسمى بالربط أو عدم الخلفة أو عدم التوفيق فى الحياة الزوجية السعيدة أو غير ذلك من السوء والشر كيدًا بالعروسين!!!



ويقدم فريق الكشافة طابور الاستعراض والتحية يحملون الأعلام ويدقون على الطبول بين الزغاريد والتهليل والتصفيق.

وسط الدائرة (الأراجيد)

اصطف الفتيان فى نصف دائرة وفى صفوف متتالية على شكل نصف الدائرة وتشكل النساء صفوفًا متتالية مكملة لنصف الدائرة الثانى فتكون الدائرة مكتملة فى الاستدارة نصفها من الرجال والفتيان والنصف الآخر من النساء والفتيات، وفى المنتصف مجموعة المطربين والمغنين يحملون المزاهر يدقون عليها أما الخفير النظامى الذى يحمل الكلوب فى إحدى يديه والعصى فى يده الأخرى يشير بها عندما يتخطى واحد النظام الذى يضعه وبخاصة صغار الصبية من البنين والبنات فيطوف حول الدائرة ينظم ويتابع ويراقب ويقطع محيط الدائرة جيئةً وذهابًا والكل منفذ لأوامره ومطيع لتعليماته؛ فهو مسئول الأمن وممثل الحكومة وأحيانًا يضع الكولوب جانبًا وسط الدائرة حينما تروق له كلمات وألحان فيتراقص ويغنى رافعًا العصا إلى أعلى ويتمايل الرجال والفتيان يمنة ويسارًا كما تتمايل النساء أيضًا فى سعادة ونشوة يرددون المذهب الذى يتغنى به المغنى وسط الدائرة وتنزل إلى وسط الدائرة نساء وفتيات بالتناوب ومن بينهن محروسة باشرى فهى امرأة عجوز ولكنها متدربة ومتمرسة للرقص فتموج جيئة وذهابًا كأنها الإوز تسبح فى ماء بحيرة تجوب وتطوف محيط الدائرة وأما عائشة خير الله فلا تقل عنها فرحة وخبرة تتراقص متوازية لها وتشد على يدى هجلة أم جمال باشرى وترغمها أن تنزل إلى وسط الدائرة وتحاكيهما وترفع ذراعيها إلى أعلى ممسكة بذراعها ويتراقصان مرفوعى الذراعين ومتشابكى أصابع الكفين وتصلا إلى جمال

باشرى الذى يقف بين الشباب يرقص معهم فتشده عائشة خير الله إلى وسط الدائرة فيصدر من الشباب هتافات وتهليل ترحيبًا به وتحية له وترتفع الزغاريد من النساء والفتيات تحيى العريس ثم تخلى وسط الدائرة وتخلو وتكون الفرصة سانحة للفتيات كل اثنتين على حدة وبالتناوب متتاليات كل مع من ترى خطوتها وطولها مناسب لها فتؤديان معًا فاصلاً من الرقص على أنغام الدفوف والغناء تمشى على أطراف أصابع القدمين وتتقدم بصدرها مبسوطة وتميل برأسها إلى ناحية ثم لأخرى ممسكة طرف الجرجار بأناملها وتمشى بخطوات سريعة راقصة مع اهتزاز جسمها وتقابلها فتاة أخرى من الجانب الآخر للدائرة ويظل التنافس والتجاوب والتناظر بينهما حتى تخرجان من وسط الدائرة وتحل مكانهما أخريات وهكذا..........

وتتوالى وتتابع الفتيات والنساء يتنافسن أيهن أجمل وأحسن حركة وتراقصًا من الأخرى فى تنافس شريف وابتكار لفنون الرقص النوبى {الأراجيد} ، ومن الرقصات {الشّرّيه} المشى رقصًا فى سرعة كالسيّه من الطيور البرية ، ومنها {الفرّيه} أحيانا تكون مراوغة ومحاورة بين فتى وفتاة فى قفز سريع متتالى على أصابع القدمين مأخوذة من حركة نوع من أنواع السمك النيلى يسمى بالنوبية فرّى يسبح وكأنه يقفز ومنها {الجيّه} ومعناها بالنوبية الطفو يتراقصن كالمراكب التى تطفو فى إنسياب وهذه الرقصات غير الرقصات التى تكون فى محيط الدائرة واقفين يتمايلن يمينًا ويسارًا مع حركة القدمين ولكل إيقاع رقصة.

ويتغنى المغنون بأغان مختلفة ويتنقلون من لحن إلى لحن ومن أغنية إلى أخرى فيختلف الإيقاع وتختلف معه حركات واهتزازات وخطوات الراقصات والراقصين وتتمايل الأجساد طربًا لكل أغنية مما يتغنى بها المغنون وتتنوع من البطيئة إلى المتوسطة ثم إلى السريعة فى إيقاعات مختلفة.

وكالعادة فى كل ليلة يكون الإلحاح على جمال باشرى أن يغنى ويمسك بالدف فيعتذر لأن الليلة ليلة زفافه، ولكن عندما أصر الجميع لسماع صوته لم يجد بدًا من النزول على رغبة الجميع فأمسك بالمزهر يدق عليها نقرًا بأنامله ويصدح كما عودهم بأعذب الألحان وأجمل الأغانى ومما تغنى به:

لا إله إلا الله غالى يا محمد يا رسول الله

سمره ورويك ألج تنجسونى جون ويرا

ويكا تاجكى ملل هوييىنا

لا إله إلا الله غالى يا محمد يا رسول الله

الله جادرالله مانجن جو نجرلجنا

انجو ملا يكى مناواسمر اللونا

لا إله إلا الله غالى يا محمد يا رسول الله

سمره نارالغرام جسمن وليودينا

أيجل شهيد كر ديكا واسمر اللونا

لا إله إلا الله غالى يا محمد يا رسول الله

سمره مانجن عشرقروش لنا واسمر اللونا

كونجن جدى بسكويت لنا واسمر اللونا

لا إله إلا الله غالى يا محمد يا رسول الله

وتعنى كلمات الأغنية التى تغنى بها جمال؛ فالمقطع الأول ترجمته أن تلك الفتيات جميلات قد تشابهن فى شكلهن الجميل كما تشابهت أسمائهن حتى أنه إذا نادى على واحدة منهن يقصدها بعينها رد الجميع لتشابه الأسماء.

وفى المقطع الثانى يتغنى بقدرة الله تعالى فى خلقه لهذا الجمال الفتان حيث لا تستطيع العين أن تستقر فى النظر إليهن فجمالهن

يأخذ بالألباب كما يأخذ بالعين ذلك البريق الساطع لجمالهن فهن يشبهن الملائكة فى جمالهن أى يتصفن بجمال ملائكى.

وفى المقطع الثالث يقول إن محبوبته قد أشعلت فيه نار الغرام حتى أنه سيموت شهيدًا فى حبها.

وفى المقطع الرابع فيه التشبيه البليغ والوصف الرائع لمحبوبته حيث يصف عينيها بقطعة النقود الفضية ذات العشرة قروش أما وجهها فيشبهه بجمال قطعة البسكويت نقلاً للجمال المعنوى إلى جمال محسوس تذوقًا ففى هذا التشبيه نرى قيمة قطعة النقود ذات العشرة قروش وأهميتها شكلاً وقيمة مادية وكما نرى البسكويت شئ محبب ومفضل فقد كان نادرًا ويعوض عنه بالمخبوزات النوبية من {قراقيش}.

وبين كل مقطع وآخر يردد المذهب ويتبعه بآهات استحسانًا فالمذهب بين كل مقطع هو الشهادة بأن لا إله إلا الله ومحمد رسول الله.

ومما يذكر فيما يتبع فى حلقة الرقص أن من بين المغنين واحد جهورى الصوت يخصص دائمًا لينادى {الدايما}، ومعنى ذلك أن ينادى فى مرأى ومسمع الجميع قائلاً: (دايما فلان الفلانى دايما).

وفى هذا النداء دعاء بدوام الصحة والعافية والعمر المديد لصاحب الاسم وذلك إذا وضع فى يده قرش صاغ واحد أو نصف قرش، وتعد هذه أيضًا مجاملة للعريس ونقوطًا وتجمع هذه القروش فى نهاية السهرة وحلقة الرقص وتقسم بين المغنين جميعًا بالتساوى لأن المغنين والمطربين يحضرون مجاملة بدون اتفاق على سعر معين أو مبلغ مسبق أجرًا لإحياء الليلة.

وكان البعض منهم من باب المداعبة والمزاح يظهر قروشًا ليقتسموها ويخفى بعضها ليضعها فى جيبه لحسابه الخاص ولا

تدخل فى حساب المبلغ المقتسم، وفى ليلة من ليالى الفرح أحس أحد المطربين بذلك فحمل خيطًا طويلاً تحت طيات ثيابه وهو يغنى فى وسط الدائرة وكلما يسمع نداء {دايما فلان الفلانى دايما} يعقد فى الخيط عقدة خلسة دون أن يراه أحد وهكذا حتى آخر الليل ونهاية حلقة الرقص، وعندما جلسوا للمحاسبة واقتسام حصيلة الليلة من المبلغ ووجد أن المبلغ الذى سيقسم ويوزع غير المبلغ المتوقع تحصيله فقال موجهًا كلامه إلى ذلك الرجل الذى ينادى بـ(الدايما) انتظر............ انتظر..... مهلاً. الحساب غير ذلك!!

الرقم الحقيقى للمبلغ حصيلة الليلة مسجلة ومحصاة فى هذا الخيط وأخذ يعد ويحصى عدد العقد التى عقدها فى الخيط ووجد أن هناك فارقًا كبيرًا بين عدد العقد وعدد القروش المحصلة حتى واجه بذلك الرجل الذى ينادى بـ(الدايما)؛ فاعترف الرجل وضحك مجموعة المغنين لهذه الفكرة وهذه العقد والخيط الذى ضبط الحساب وأقلع الرجل بعد تلك الليلة عن إخفاء الحقيقة للمبلغ المحصل نتيجة الدايما.

وعاد بكرى لما كان عليه فى أيام الصبا والشباب وأمسك بالدف يدق ويتغنى بأجمل الأغانى إشباعًا لهوايته ومجاملا لابن عمه جمال العريس وفرحًا بزواج شقيقته وتغنى بأغانى من الرتم السريع والإيقاع السريع تحية للعريس جمال:

المارى مارنتو........ يا صالوى النبى

وواإسجونرجى............ وو‌ايويونرجيه

وو‌ايويونرجيه............ يا صالوى النبى

صلجَّ إرُن دوجا........... يا صالوى النبى

عرفات لجومنجا.......... يا صالوى النبى

كعبج إدلوج دوما......... يا صالوى النبى

ومعنى هذه الأغنية التى تغنى بها بكرى أنه يصلى ويسلم على ابن ماريا أو مريم وهو عيسى المسيح عليه السلام ولعل هذه العبارة من بقايا المسيحية فى النوبة التى تظهر فى تراثهم ثم يثنى على العريس الذى يتبعه فى الزفة كل من أمه وأخواته وخالاته، يدعين له بأن يكتب الله لهم أداء فريضة الحج والوقوف بعرفات وأن يقدر الله له استلام الحجر الأسود بيده وتقبيله ويرى البعض أن المقصود بـ(مارينتو) ابن ماريا هو إبراهيم (بن الرسول محمد ﷺ) حيث تحول النوبيون من المسيحية إلى الإسلام.

كما كان يغنى أيضًا:

على النبى........صلينا

صلينا............. وتولينا

صلى كون.....كسبانا

فطركون........خسرانا

وفى هذه الأغنية السريعة الرتم تعنى كلماتها مترجمة إلى العربية لقد ازدادت الليلة بركة وخيرًا بالصلاة على النبى واعتمدنا على الله ببركة رسولنا ﷺ ومن صلى على النبى فهو قد كسب وفاز فى آخرته ودنياه، وأما من أفطر فى نهار رمضان فهو الخاسر لدينه ودنياه وهذه من الأغانى الدينية فى التراث النوبى.

وبمرور ساعات الليل والأوقات السعيدة بين السرور والغناء والرقص وصليل الزغاريد والتهليل فقد جاء دور وأوان رقصة {الكف}؛ حيث يصطف الرجال فى صفوف متتابعة ويضربون الكف بيد وأصابع مبسوطة وممتدة ويضربون ضربات بشدة متتالية تصدر أصوات طرقعة مع وقفات فيما بينها فتعطى نغمًا وإيقاعًا تختلف فى عددها والمدة بينها وطبقًا لهذا العدد والتفاوت بينها فى المدة بسكتة أو تتابع يسمى الكف الزوجى والكف

الفردى، وتختلف من قرية لأخرى فى اتقان ومهارة كل نوع منها؛ فتلك الضربات بالكف مع الضرب على الأرض بالقدم اليمنى وتخطو خطوة أو خطوتين إلى الأمام بانتظام وتناسق وتلاؤم بين الخطوات والضربات بالكف ويتنقلون فى خطوات متزنة متوازنة إلى الأمام ثم الخلف تراجعًا مع حركة التفاف بالجذع ميلاً يمينًا وشمالاً ويرددون (حلاوة يا أيو حلوانى حلاوية يا شربات.........) ويردد هذا فاصلاً بين كل مقطع من مقاطع الضرب بالكف ويمر على هذه الصفوف المتراصة من الرجال والشباب طبق من الخزف الصينى تحمله فتاة وعلى الطبق قطرات من الزيت يفرك بها كفيه لتكسب الكف والأصابع ليونة فيصدر صوتًا عاليًا دون ألم، فقد اكتسب الجلد مرونة وتمر فتاة أخرى بطبق آخر من الخزف الصينى عليه حبات من السكر فيلتقط الرجال والشباب من الفتيان والفتيات حبات السكر ويضعونها فى فمهم، فالسكر يعطى الطاقة للحركة والأداء فيقفزون فى خفة مع حركة الأقدام والخطوات للأمام والخلف مع ضربات الأكف.

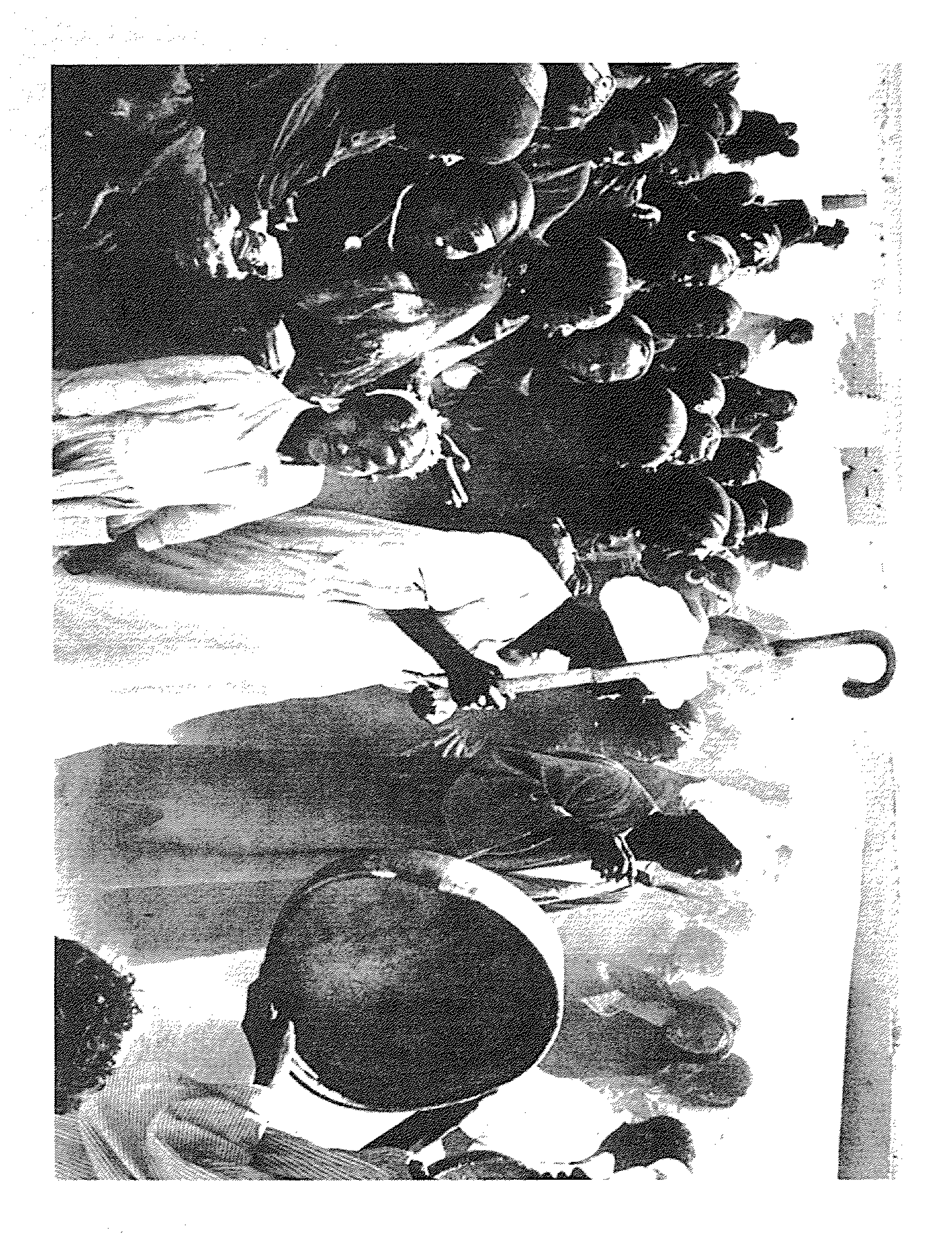
بينما ترقص النساء والفتيات وينزلن تباعًا بالتناوب إلى حلقة وسط الدائرة فرادى ومثنى وثلاث ورباع بينما يصطف الباقى يردد الأغانى فترقص من داخل الحلقة أو وسط الدائرة وتتثنى بجسمها يمينًا ويسارًا، وهى تسرع الخطوة وتخفى وجهها حياءً بالطرحة المتساقطة من رأسها على كتفها فتمسك بها تدارى وجهها وتميل متجاوبة مع دقات المزاهر وضربات الكف.

وبذلك يكون الليل قد ولى وحلت الساعات الأولى من الفجر فتكون الأغانى السريعة الرتم إيذانًا بانتهاء حلقة الرقص فتسرع الفتيات إلى صينية الحناء للعريس وللعروس ويأتون بهما من مكمنهما وتنزل الفتاتين تحمل إحداهما حنة العريس جمال والأخرى حنة العروس زنوبة وتنزل إلى منتصف الحلقة ووسط الدائرة ترقص كل

منهما موازية للأخرى فى مهارة وتجوب الدائرة وسط الزغاريد المرتفعة والتهليل، وتستعد مجموعة من الشباب المقربين للعريس ليأخذوا العريس خلسة فى دهاء ومكر حتى لا يشعر بهم وبه أحد ويذهبون به إلى الديوانى والحاصل حيث تنتظر العروس ويسرع الجميع ينهال وينكب على صينية الحنة يقتطعون منها والكل يريد أن يفوز بقطعة يضعها فى كفه ويطبق عليها فهى حنة خاصة ومخصوصة للعروسين مطعمة ومضاف إليها العطور النفاذة والإضافات التى تكسبها حمرة تميل إلى السواد حمرة داكنة تزيد وتكسب الكف ليونة ونعومة كما يكسبها عطرًا نفاذًا وتنطفئ الشموع ويتفرق الجمع يلحق بالعريس فى منزل العروس فى الحاصل والديوانى.

أما العريس جمال وسط هذا الهرج والمرج أو قبله قد سبقت به تلك المجموعة من الشباب المصاحب له إلى الديوانى والحاصل ويدلف ويدخل فى سرعة وفى لمح البصر إلى عروسه. وعندما يدخل العريس جمال إلى عروسه فى الحاصل يجدها فى ركن منزوى وقد جلست تغطى وجهها فى حياء وخجل فيرفع العريس جمال الطرحة عن وجه عروسه زنوبة ويمسح على جبهتها ورأسها وبخاصة يمسح بكفيه ذؤابة شعرها فى مقدمة رأسها ويردد بصوت مسموع يهمس العريس ويبتهل إلى الله قائلاً: "اللهم ارزقنى من خيرها وخير ما خلقت له وجنبنى وأعوذ بك من شرها ومن شر ما خلقت له": ويسدل عليها الطرحة تغطى وجهها مرة أخرى ويخرج إلى الجمع المحتشد بالباب فيفتح له الباب فيخرج إليهم ويتقبل التهانى ويعانقه الكل تباعًا مهنئًا ويقبله متمنيًا له حياة زوجية سعيدة.

ويؤخذ بالعريس جمال مرة أخرى ويدخل إلى عروسه بعد أن تقبل التهانى ويغلق باب الحاصل والديوانى دونهما فلا يخرج مرة أخرى إلا فى ضحى اليوم التالى وهو يوم الصباحية.



الثقل صنعة

يدخل جمال باشرى على عروسه زنوبة ويغلق باب الديوانى والحاصل دونهما ويتخفف من ملابسه الجلباب الأبيض ويظل بالعراقى القصير نوعًا ما ويضع السوط {الكرباج} جانبًا ويخلع الكوفية التى تدور حول عنقه ويحمد الله تعالى على إتمام الزفاف بخير ويلقى السلام على زوجته زنوبة، ولكنها لا ترد بكلمة حياءً وخجلاً فما زالت تقبع فى ركن الحجرة وربما ترد السلام فى السر دون العلانية فما زالت بملابس زفافها، ويتلفت جمال يبحث عن الطشت والإبريق ليتوضأ ثم عن سجادة الصلاة {صلان برش} فهى من الخوص وعليها علامة فى مقدمتها تدل اتجاه القبلة بزائدة من ضفائر الخوص ويقف ويكبر ويصلى ركعتين شكرًا لله تعالى وبعد الصلاة يرفع كفيه مبسوطتين ويردد بكلمات هامسة لعلها ابتهال وتضرع إلى الله تعالى ثم ينظر إلى عروسه ويأخذ بيدها ويجلسها إلى جواره ويدور جمال ببصره منقبًا فإذا به يجد ضالته صينية العشاء جاهزة ومغطاة بالشور {طبق كبير من الخوص غطاءً للصينية}، فيشير إلى زنوبة فتحمل إليه الصينية وقد تورد وجهها المغطى بجانب الطرحة حياءً وتحول الوجه الأسمر الخمرى إلى وردى ويبدأ جمال فى مغازلتها ودعوتها للطعام لرفع الحرج والخجل عنها ولكن دون جدوى.

ومن العادة أن يفوز العريس جمال بكلمة من زنوبة لذا يحاول جمال ذلك فيطلب منها أن تأكل فتمتنع خجلاً ويحاول إطعامها بيده كما طلب منها أن تنزع وتزيل الطرحة حتى تكشف عن

وجهها لزوجها فتزيل الطرحة، ثم سرعان ما تغطى وجهها مرة أخرى فيطلب منها جمال أن تكشف وجهها وتلقى بالطرحة جانبًا فلا تفعل فيطيح جمال بالطرحة جانبًا فتنفذ وتستجيب ويسألها عن كذا......وكذا......... فلا تجيب إلا بالإشارة أو الإماءة برأسها ولابد لجمال أن يفوز بكلمة من عروسه وعليه أن يحتال لذلك كل الحيل ويحاول محاولات عديدة.

وكم سمع جمال وسمعت زنوبة عن تلك الحيل والألاعيب الماكرة لكى يفوز العريس بكلمة من العروس أو تنطق مضطرة، وذلك مثلاً بأن يخفى العريس شيئًا من مقتنيات العروس الخاصة كحافظة نقود أو حذاء أو الطرحة التى تدارى بها خجلها أو كوب الماء أو ما إلى ذلك من المحاولات التى تجبر العروس على سؤال عريسها عنه أو عنها وبمجرد أن تنطق العروس ببنت شفه يكون العريس قد نجح فى محاولاته وبذلك يفوت عليها فرصة المكافأة صغيرة كانت أو كبيرة طبقًا لدلالها وذكائها ولكن كما يقال {الثقل صنعه}.

وأحيانًا تنجح العروس فى عدم النطق بكلمة وتظل محافظة ومستمرة على حيائها وخجلها وتتعب العريس وتفشل محاولاته حتى يضطر إلى طرق الإغراء بأن يقدم إليها ويدفع بمبلغ من المال وتجبره على المزيد من المال أو المبلغ وكأنه مزاد علنى فيزيد العريس فى المبلغ المقدم لعروسه حتى تصل إلى القيمة التى ترتضى بها وعندئذ تتكلم وتسمح له بالحوار بينهما.

وقد أوصى الفتيات وذوى الخبرة من النساء كما يفعلون مع كل عروسة وأخبروا زنوبة العروس بمختلف الحيل والألاعيب الماكرة للعريس وأوصوها بالحرص والحذر والإصرار حتى تفوز بمكافأة كبيرة بخاصة لأن جمال باشرى العريس أفندى وفى إمكانه أن يدس فى يدها مبلغًا كبيرًا إذا نجحت فى إفساد حيله

ولم تتحدث معه أو تحاوره حتى يدفع المزيد من المال بينما تضيع الفرصة على أخريات، ومن العادة أن يسأل المهنئون فى الصباحية صباح اليوم التالى للزفاف يسألون العروسين هل دفع العريس المزيد أم نجح فى أن يفوت الفرصة على العروس؟

وحاول جمال كثيرًا حتى لا يدفع تلك الهبة أو المنحة أو المكافأة للعروس زنوبة وتسمى بالنوبى {أجن - بنجريه} والترجمة الحرفية حق أو أجر بداية الحوار ويحاول جمال باشرى المحاولة تلو المحاولة أمام إصرار زنوبة العروس على أن تطبق شفتيها حياءً وخجلاً، وقد تكون تطمع فى المزيد من المكافأة والهبة لتفتخر بذلك بين زميلاتها.

وتحكى فى هذا المجال قصص ونوادر طريفة يذكرها أهل الشمندورة وسيظلون يتذكرونها عن {الجابه} وهى كلمة نوبية تعنى التصنت أو التلصص يسترقون السمع أو المراقبة فى الخفاء عن بعد للعروسين فى الليلة الأولى للزفاف فى مباراة مرحة تنتهى بانتهاء المباراة بين الزوجين ليفوز الزوج بكلمة {بنت شفاة} من العروس بعيدة عن إفشاء سرّ الزوجين؛ مباراة بين أولئك النفر من الشباب من جهة وبين العروسين اللذين يأخذان بكل أسباب الحيطة والحذر ويساعد العروسين الخاصة من زملاء العريس يفسدون عليهم كل الحيل والمحاولات ويمنعونهم من الاقتراب للديوانى والحاصل فمنهم من وقع وأصيب وهو يتسلق جدارًا أو من سباتة أو جذع سقف أو يصب عليه ماءً باردًا وهو يحاول الاقتراب لثقب أو لفتحة بين ألواح الباب أو يفزع بصيحة نهر أو زجر وقد يوجه له عود من الخشب من ثقب الباب تحذيرًا له حتى لا يقرب بعينه لتلك الفرجة {الفتحة} فتصاب العين بسوء وقد احتاط جمال باشرى لكل الحيل والألاعيب فهو جمال الأفندى، وبكرى باشرى شقيق العروس زنوبة وخاصته مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين وما أدراك ما هؤلاء.

وفى صباح اليوم التالى تكون عائشة خير الله فى صحبة تلك المرأة من الموالى لآل باشرى التى تتعهد بخدمة العروسين وبخاصة العروس فى الأمور النسائية الخاصة فتذهبان إلى العروسين فى الصباح الباكر فهما أول المهنئين وتعودان بالبشرى لأم العروس وعند الزواج عندما ترتفع الشمس يتوافد الأهل والأحباب من آل العروسين والأصحاب والخلان لتهنئة العروسين ويفتح باب الديوانى وهى الحجرة الخارجية أو الأولى التى يستقبل فيها العريس مهنئيه من الرجال والشباب؛ فيجلسون معه يتبادلون الحديث فى مرح وسرور وعندما يفتح باب الديوانى يستند على الفتحة التى تفصل بينها وبين الحاصل فتغلق الحاصل دون العروس وتنزلق النساء والفتيات من وراء هذا الباب الذى استند على جدار الحاصل فيحركونه داخلين إلى الحاصل حيث العروس فتدخل إليها النساء والفتيات ليهنئون العروس ويجلسون معها يبادلونها الحديث فى سعادة وسرور كما يجلس الرجال والفتيان والشباب مع العريس فيقضى المهنئون مع العروسين وقتًا ممتعًا فى حديث وحوار شيق يتبادلون القفشات ويملأ المكان قهقهات وابتسامات ومرح.

ويفتح لدى العروس سجل النقوط والهدايا وتطوف عليهم أطباق الفيشار تعلوها البلح أو قطع الحلوى القاهرية التى أتت بها عائشة خير الله زوجة سيف الدين باشرى كما تطوف بهم أكواب الشربات وهذا التمر الذى يقدم للمهنئين مخزون لدى العروسين فى حجرة العروس {الحاصل} داخل {السَّمَج}[1] بتشديد السين

---

11) وعاء من الطمى أو الطين الأسود من قاع النيل أو المساقى يخمر ويضاف إليه إضافات ليزيدها قوةً وتماسكًا إضافات من كسر الأوانى الفخارية أو الأزيار ويخلط جيدًا ذات شكل أسطوانى القاعدة محيطها أكبر من محيط الفوهة يصل ارتفاعها إلى متر تقريبًا وهى أقل حجمًا من {الجوسيه} التى ورد ذكرها فى إعداد بيت الزوجية ولها غطاء من نفس الخامة وتخزن فيها أجود أنواع البلح لتقدم من العروسين إلى المهنئين وبعد انتهاء أيام الفرح تظل إحدى قطع الأثاث المنزلى.

وكسرها وفتح الميم.

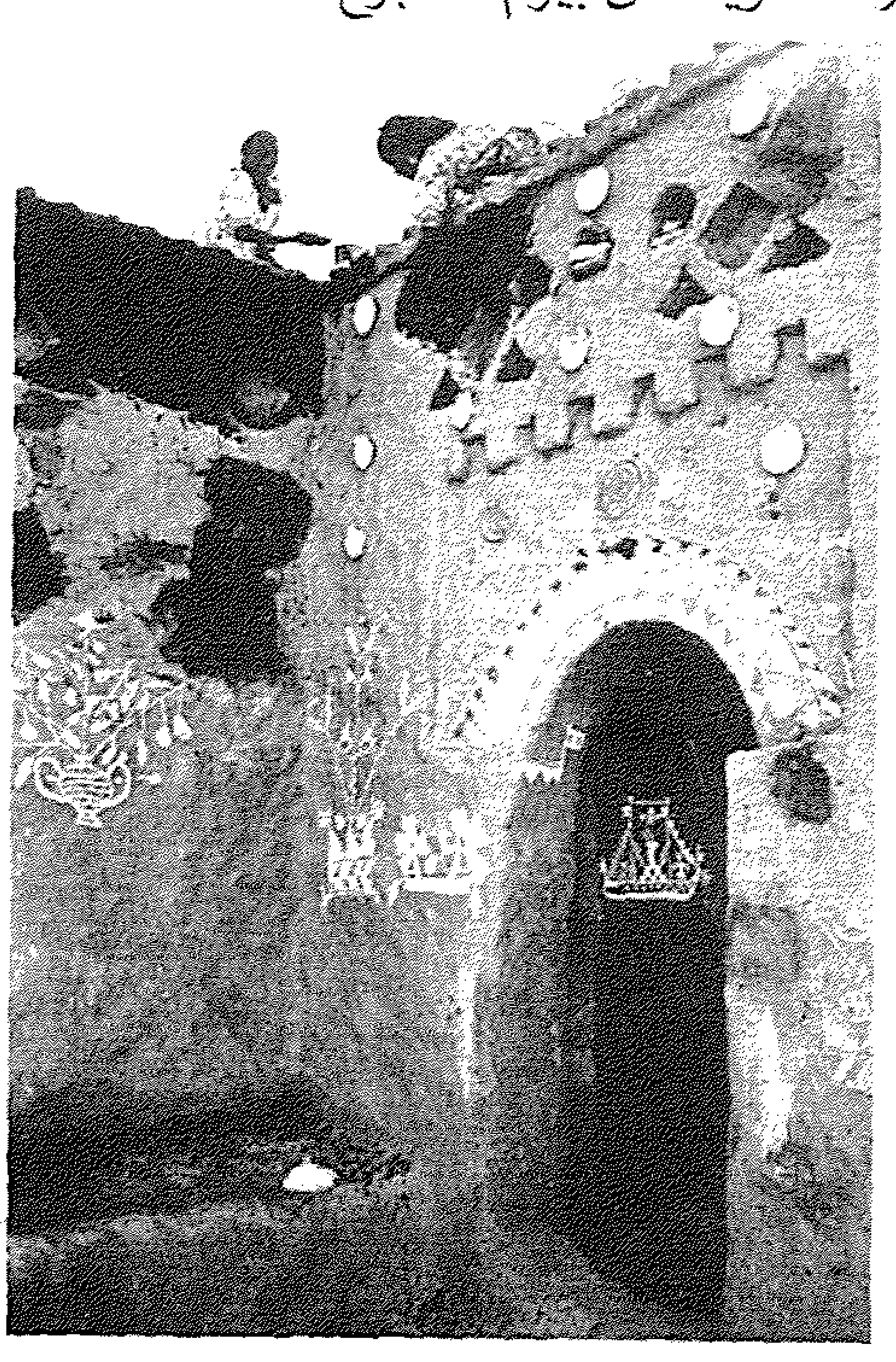
وعند الظهر يحين وقت وجبة الغداء فيبقى الخاصة من الشباب المقربين لجمال باشرى ويصرون دعابة على تناول وجبة الغداء معه من المحمر والمشمر وما لذ وطاب مما أعدته أم العروس للعروسين، ويتكرر ذلك الجمع من المهنئين فى منزل العروسين خلال الأسبوع الأول من الزفاف وفى الصباحية وهو اليوم التالى من الزفاف يأتى أهل العريس من الفتيات والنساء والشباب والفتيان تتبعهم الصبية بنين وبنات ويحمل النساء من أهل العريس الإبريق من النحاس مع الطست المرفق معه ويستخدم كحوض متنقل تحمله إحدى الفتيات من أقارب العريس كما تحملن طست غسيل للحمام وغسيل الملابس أيضًا من النحاس وهذه الأدوات النحاسية قد نقشت عليها اسم العريس وسنة التجهيز وإلى آل العروس كميات من الشعرية والسكر والعسل الأسود وقدور بها الخضار المطبوخ وكمية من الخمريد كل واحدة من النساء تحمل على رأسها شيئًا مما ذكر مجاملة، ولعل هذا اعتبر كما يقال {عيش وملح} أو إهداء من باب المحبة والمودة بين أهل العروسين فمنزل العروس فيه تلك الأنواع والأصناف المحمولة ولا حاجة لهم بها ولكنهم يقبلون هذا الإهداء محبة ومودة ومجاملة ويردون إلى أهل العريس بمثل ما أهدى إليهم فيردون العمرة {وتسمى بالنوبية بالكونتيه} وهى إناء ذات عمق من الخوص ومن الأدوات المنزلية النوبية ويستقبل أهل العروس ذلك الموكب القادم إليهم فى يوم الصباحية محملين بهذه الأصناف يستقبلونهم بكل ترحاب وسرور ويقدمون لهم وجبة غذائية مما أعدوه فى منزل العروس من طعام بالإضافة إلى بعض مما أتوا به محملين من منزل العريس على أنه عيش وملح.

ويجتمع الخلان والأصحاب من الشباب والشابات والفتيان والفتيات مساء كل يوم فى الديوانى والحاصل يتغنون بأجمل

الأغانى بين العزف على العود أو الطمبور ودقات المزاهر والدفوف يقضون أوقات ممتعة فى جلسات فنية غنائية بين الطرب والغناء حتى وقت متأخر من الليل احتفالاً بالعروسين.

ويحدد يوم خلال الأسبوع الأول ويسمى ذلك اليوم بيوم عزومة الضيوف {اسكتى جوجر} وفى هذه الليلة يتكفل بتكاليفها ويتعهد بالإعداد والتجهيز لها أهل العروس ويقدمون قطعة من الماشية والأغنام تذبح على شرف العريس وتقدم وجبة شهية للخاصة من أصحابه وأهله وبعد الوجبة تكون السهرة إما إنشاد دينى ومدح فى الرسول ﷺ أو سهرة غنائية راقصة بين الطرب والغناء والرقص حسب ما يميل إليه العريس.

وتتوالى السهرات والجلسات الممتعة ليلاً حتى يصل إلى اليوم السابع من الزفاف ويحتفل بيوم السبوع.



السبوع

يستعد محى الدين باشرى وزوجته هجلة أم جمال فى اليوم السابع وهو يوم السبوع يستعد لاستقبال جمال وعروسه زنوبة فى بيت الزوجية وتجهز العروس زنوبة للانتقال إلى بيتها فى اليوم السابع ويكون التحرك دائمًا بعد مغيب الشمس وصلاة المغرب وتجهز زنوبة بمتاعها وحاجياتها للرحيل ويكون الجهاز والتجهيزات شاملة الأدوات والأوانى المنزلية من الخوص والخزف والصينى مثل أطقم الشاى والطعام والفرش من البرش والشور والكونتيه بأحجامها المختلفة طبقًا لاستخداماتها كما تصحب معها الطيور والدواجن الحية وتسير إلى منزل الزوجية فى موكب بين الغناء والرقص ودق المزاهر، ويغمر الموكب الفرحة والسعادة وتتقبل هدايا مختلفة من والدتها وخالاتها وعماتها والصاحبات من بنات الحى وآل باشرى، أما العريس جمال فيحمل جريدة خضراء فى يده اليمنى وتلك الجريدة فى نهاية طرفها قطعة من مخلوط الحناء بالمحلب والخمرة تفوح برائحة ذكية يرفعها عن الأرض ويقبض عليها من طرفها وتحيط به مجموعة من الأصحاب والزملاء المقربين له ولا يخلو ذلك الموكب السعيد من مرافقة الصبية من البنين والبنات كما تحيط العروس زنوبة صاحباتها من الفتيات تحملن قدور الطعام المطهية الطازجة استعدادًا للسبوع وكذلك الخمريد، وأما البخور فمن العادة أن يتم فى كل يوم عند صلاة المغرب ومغيب الشمس يبخر {يرقى} العروسين منعًا للحسد والعين وتستمر الرقية فى منزل العريس كما كانت فى منزل العروس

وتستمر حتى نهاية الأربعين يومًا.

ويضم الموكب تلك المرأة من الموالى التى تعهدت بالعروس وخدمتها منذ يوم الحنة والتى قامت بشئونها طوال أيام الأسبوع فاليوم تسلم العهدة وهى العروس إلى أم العريس جمال ولا يحرمها جمال من هبة وعطاء فى نهاية يوم السبوع تقديرًا لخدماتها وتكون تلك الهبة والعطاء على قدر استطاعة وتقدير العريس فهذا جمال أفندى ولا بد للعطاء أن يتناسب مع مكانة الأفندى.

ويصل هذا الموكب السعيد إلى منزل الزوجية ويكون فى الاستقبال أخوات العريس وفتيات ونساء آل باشرى ومحى الدين ووالدة العريس وبمجرد أن يصل الموكب لا يتخطى العروسين عتبة الباب إلى منزل الزوجية والعش الجديد إلا بعد مراسم معينة يحرص عليها أهل النوبة والشمندورة وهذا ما حدث للعروسين جمال وزنوبة فقد قام محى الدين باشرى بإراقة الدماء بذبح قطعة من الأغنام على عتبة البيت كبشًا ثمينًا أقرنًا ويتخطاها العروسان ويضع العريس جمال وعروسه أيديهما فى الدماء التى أريقت وتسال من عنق الكبش ويلطخ بها كفه ويطبع على عتبة الدار بكفيه وكفى العروس بجوار بعضهما على جدار عتبة الدار علامة تبركًا وتفاؤلا ثم باسم الله تعالى ومشيئته يدخلان البيت لأول مرة بعد الزواج وقد جهز البيت وأصبح على استعداد كامل لاستقبال العروسين ويقف على الباب آل محى الدين باشرى بكوبين من اللبن الحليب للعروسين ولعل ذلك تفاؤلاً بحياة زوجية سعيدة فى صفاء اللبن الحليب وجماله، وبعد أن يشرب كل من العروسين قليلاً من هذا اللبن يتسابق الفتيان والفتيات الذين يحيطون بهما احتفالاً يتسابقون لشراب بقية ما تركه العروسان من لبن فى الكوبين والفائز من شرب جرعة من بقية اللبن تبركًا وتفاؤلاً.

تجلس العروس على حصيرة مفروشة {برش} أعدت لهذا الغرض ويجلس العريس فى المندرة وهى حجرة الضيوف يستقبل ضيوفه ويتقبل التهانى فالعروس تفتح دفتر تسجل فيه الهدايا العينية والقروش هبةً ومجاملةً تردها العروس فى المناسبات ويجلس الفتيات حول العروس والفتيان حول العريس وفى كل مجلس من هذين المجلسين تدور أحاديث المرح والمداعبات فى سعادة غامرة وقد يكون دق المزاهر والغناء حتى يتم تجهيز الطعام فيخلط ما جاء من طعام وخماريد من منزل العروس إلى ما تم تجهيزه بمنزل العريس على العكس تمامًا مما حدث فى يوم الصباحية فقد تناول أهل العريس الطعام فى ضيافة أهل العروس واليوم فى السبوع يتناول أهل العروس الطعام فى ضيافة أهل العريس.

اما دفتر المجاملات فى يوم السبوع يعتبر مجاملة للعروس بين جيرانها فى عش الزوجية الجديد غير ما كانت لحساب ومجاملة أم العروس فى يوم زفافها أيضًا على سبيل العيش والملح.

وتستمر تلك الجلسات من جلسات السمر والطرب والاستضافة للأصحاب والخلان للعروسين حتى نهاية اليوم الأربعين وكلما اقترب الأربعين قل العدد وتناقص تدريجيًا.

ويترقب أهل العروسين هلال الشهر التالى لليلة الزفاف فهناك محظورات وموانع للعروسين يجب أن تراعى حتى يرى هلال الشهر الجديد وبخاصة للعروس حتى لا يصاب العروسين بمكروه {المشاهرة} ، ومن هذه المحظورات أن لا تقترب ولا تتعرض العروس لرماد الموقد أو الدوكة أو أن لا تدخل عليها من تلبس أو تتحلى بأى قطعة من الذهب الجديد أو أن يخرج إناء أو أداة من الأدوات المنزلية من بيت العروسين إلى أى بيت آخر، أو أن لا يدخل عليها من شهد جنازة من نساء ورجال وتهمس أم جمال فى أذن العروس زنوبة ألا يدخل عليها أيضًا من يحمل ثمرة الباذنجان أو لحم نيئ أو سمك

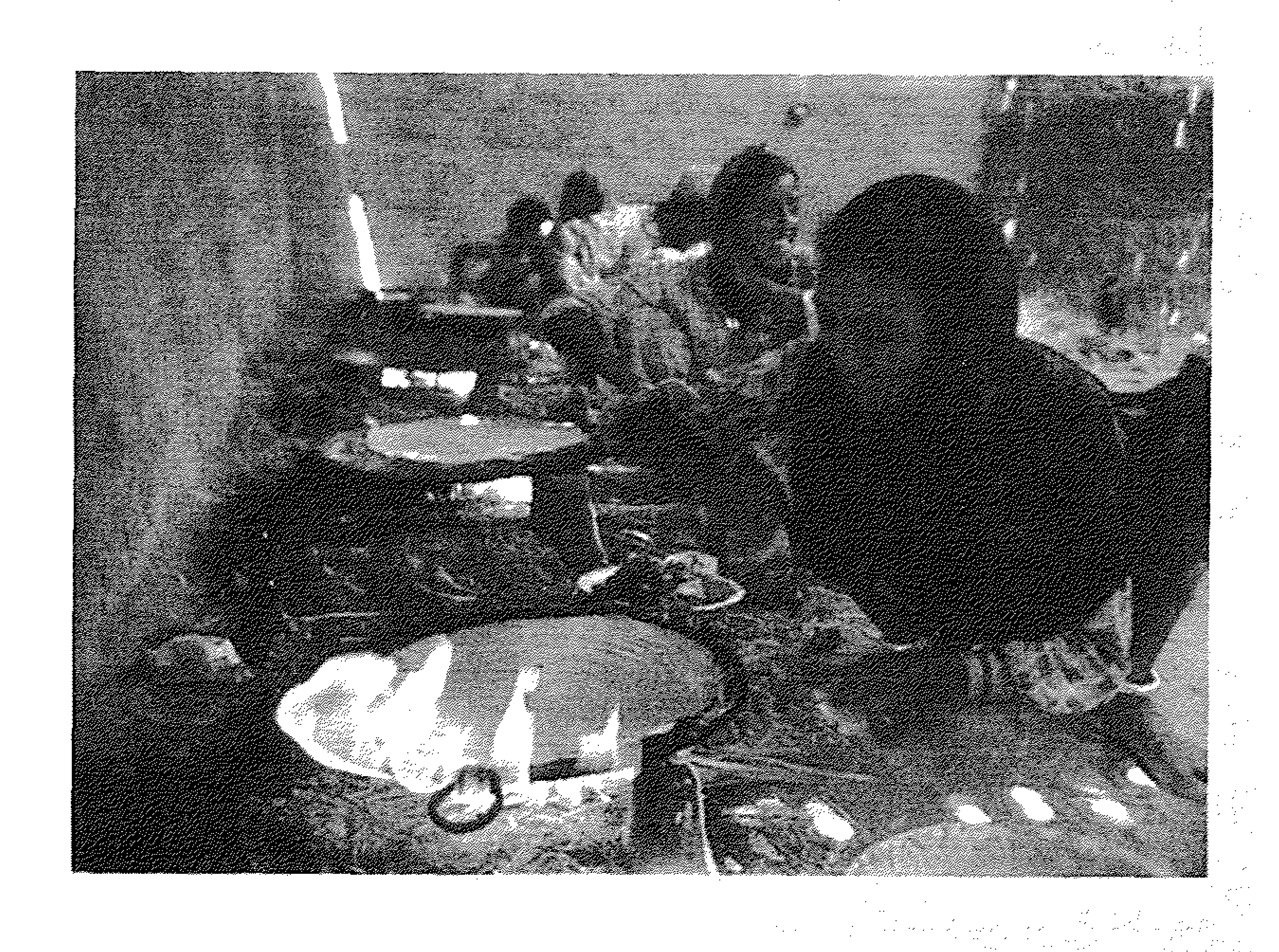
فهى من المعتقدات السائدة إنها تصيب العروسين بأذى أو ضرر إذا لم تراغ هذه المحظورات ولكن لا أثر لكل ذلك بعد أن يهل هلال الشهر الجديد ولذلك يحتفل بهلال الشهر الجديد وظهوره عند غروب الشمس وظهور الهلال، وعلى العروسين الخروج أمام البيت على قارعة الطريق كالعادة المتبعة فى كل يوم مساء عند الغروب بداية من أيام الأسبوع الأول حتى نهاية الأربعين ولكن عند ظهور هلال الشهر الجديد يخرج العروسان معًا وتعد البخور وتوقد النار ويتم تخطى كل منهما سبع مرات فى قارعة الطريق بينما تصدر ذرات الملح طرقعات تصم أذن كل حسود أو حقود ويغسل كل منهما وجهه بالماء وينثر قطرات الماء على وجهه وتعود على البخور المتوهج فيطفئه وتكون الدعوات بالخير للعروسين (هلال الخير هل علينا وعلى العروسين بكل خير وسعادة وبركة - هلال خير وبركة وسعادة على الجميع) ويدعون الله تعالى بالسلامة للعروسين من كل عين حسود أو حقد حقود، وبعد ذلك اليوم يرفع الحذر وتباح كل المحظورات التى كانت قبل أن يهل الهلال.

لم تنس هجلة أم جمال باشرى نذرها الذى نذرته للشيخ شندى صاحب المقام والضريح فى ناحية الشمندورة؛ حيث قطعت العهد على نفسها أن تزوره وتقدم قطعة من الماشية أو الأغنام مع أقماع من السكر وحفنات من الشاى بالإضافة إلى الشربات وكسوة جديدة من الستان الأخضر للمقام والضريح وأعدت كل ما وعدت به أو نذرت وتخرج فى صحبة العروسين وجمع من أهل الشمندورة من الأهل والأحباب والأصحاب وتوجهت إلى مقام الشيخ شندى وقرأت له الفاتحة وأهدت ما معها لحارس المقام والضريح ووزع عليهم الحارس أكواب الشربات التى أعدها لاستقبالهم والترحيب بهم، ولكل من يزور المقام وحمدت أم جمال الله تعالى على وفائها للنذر وقد وضعت أم جمال باشرى وجمال والعروس قروشًا فى صندوق

النذور، ويعطيهم الحارس قطعة من القماش الأخضر الستان أو الحرير بها حفنة من رمل أصفر ناعم ليحتفظوا به بركة وفأل خير من جوار مقام وضريح الشيخ شاندى وتبركًا بكراماته فأعطاهم ذلك قائلاً:

من بركات الشيخ شندى شى لله يا شيخ شندى.

ويعود العروسان فى رفقة أم جمال وتختلى أم جمال بزنوبة لتسدى لها النصيحة بأن تراعى تلك التحذيرات من المحظورات التى تعود بالسوء والضرر على العروسين فهى ذات عواقب وخيمة فنصحتها مشددة بالتمسك بها حتى يهل هلال الشهر الجديد.



الهروب

عاد بكرى إلى الإسكندرية بعد زفاف جمال باشرى والتقى بمرجان دهب الذى كان ينتظره بفارغ الصبر ليبلغهم بأن يأخذ حذره لأن البوليس قد سأل عنه أكثر من مرة أثناء سفره ولم يعرف السبب فى السؤال عنه ولكن بكرى راجع حساباته وذاكرته لما كان منه قبل السفر إلى الشمندورة وهداه تفكيره إلى عدة أسباب يتوقعها سببًا للبحث والسؤال عنه: ربما لاحظ البوليس وراقب اجتماعاته ولقاءاته مع زملائه من أبناء الشمندورة والنوبة فى بدروم فيلا مدام تريزا طرف مرجان دهب... وربما يكون السبب إحدى مقالاته التى كتبها مؤخرًا عن التدهور السياسى والظلم والفساد... وقد تكون اتهامات وشبهات الاتصال بجماعات وتنظيمات غير مرغوب فيها وعلى أية حال وأيًّا كانت الأسباب فلم يتمكن البوليس من القبض عليه، فقد أجاب مرجان دهب عندما سئل عن بكرى أجاب بأنه مسافر إلى جنوب البلاد إلى النوبة أقصى الصعيد..

واستحسن بكرى هذه الإجابة وخرج من عند مرجان دهب يفكر فى الأمر ويتلفت يمينًا وشمالاً فرأى على البعد فى أول الشارع من كان يراقب دخوله وخروجه وتابعه بنظراته وتحرك الرجل المراقب له خلفه بمجرد خروجه وسيره فسار بكرى على حذر خلال شوارع وحارات ملتوية لعله يستطيع أن يهرب ويغيب عن نظر من يتابعه ويراقب سيره ولكنه لاحظ أنه يتابعه خطوة بخطوة فوصل إلى محطة الترام وفى محطة الرمل دخل أحد المطاعم

المشهورة وجلس على مائدة فى ركن من أركان الصالة وطلب شيئًا من الطعام ورأى ذلك الرجل المتعقب لخطواته قد جلس على المائدة المواجهة له حينئذ تأكد بكرى أنه مراقب مراقبة جادة ولصيقة، وربما يلقى القبض عليه بين لحظة وأخرى لأى سببٍ من الأسباب التى تراود ذهنه أو لأسباب لا يعرفها فمكث قليلاً ثم توجه إلى داخل المطعم وما زال الطلب على المائدة فدفع الحساب وأوصى بالباقى إكرامية للصبى وخرج من الباب الخلفى بعد إزاحة الستارة المدلاة عليها فالباب لا يعرفه إلا القليل ممن يترددون على المطعم، فهو خاص بالعاملين ويؤدى إلى شارع جانبى فخرج منه بكرى فى غفلة من الرجل المتعقب لخطواته وعيناه معلقتان بالباب الرئيسى فخرج بكرى بسرعة وأشار إلى تاكسى واستقله إلى محطة السكة الحديد وركب القطار إلى القاهرة مباشرةً ليلتقى بعبده كندنونة وأش الله وبقية الزملاء فى مقهى الشروق بعابدين ويستطلع الأمر ويبلغهم بما حدث، فأشار عليه أش الله أن يكون على حذر ويقلع عن الكتابة على الأقل فى هذه الفترة ويبلغه بأن حامد خليل ومكى مراد ورضوان جمعة ومبروك عبد الفضيل وغيرهم من طليعة الشباب قد حامت حولهم الشبهات بالاتصال بجماعات وتنظيمات غير مرغوب فيها ولا تنال الرضا والقبول لدى الحكومة، وألقى القبض عليهم بمعرفة زوار الفجر وأودعوا السجون والمعتقلات.... ولما سأل بكرى عن لقاءات مقهى الشروق وتلك النخبه من شباب النوبيين المترددين على المقهى فأفاد بأنهم تحولوا عنها إلى لقاءات مجمعة كل مجموعة منفصلة عن الأخرى وفى نفس الحى الذى يسكنون فيه من آن الآخر فى فترات متباعدة، وإذا استدعى الأمر لقاء موحد يمر واحد منهم على تلك الأماكن المتفرقه فى الأحياء ويبلغ الرسالة.

اللقاء فى بولاق

مرجان دهب وزملاؤه بالإسكندرية يتحدثون عن بكرى الذى استقبل بكل الحفاوة والترحيب عند قدومه من الشمندورة وعن علاقته بمرجان دهب الذى بحث له عن فرصة عمل فى جمرك بالإسكندرية لدى أحد الموردين ينهى إجراءات التوريدات بالجمرك على أن يقضى فترة التدريب على تلك الأعمال حتى يعتمد عليه ووافق وقدم أوراقه للالتحاق بجامعة فاروق مع شدة شوقه إلى عبده كندنونة وأش الله بالقاهرة ، ويتنقل بكرى بين التجمعات النوبية والجمعيات فى مختلف الأحياء فى رفقة مرجان دهب وتعرف على زملائه الذين سبقوه إلى الجامعة من خريجى مدرسة النهضة النوبية بمحرم بك أمثال سعيد هاشم فى كلية التجارة وعبد العال دقداق فى كلية الآداب وغيرهما وما زال يكتب ويرسل إلى الدوريات التى تصدر بالقاهرة فعقله وجسمه بالإسكندرية وقلبه بالقاهرة مشدودًا إليها بوثاق الصداقة والزمالة إلى رفاق مدرسة الشمندورة وخلان الصبا وتبادلت الأخبار بينهم وتعددت اللقاءات حيث لم يقدر بكرى على البعد عن تلك النخبة فى مقهى الشروق زملاء الزمن الجميل بالشمندورة ودار الحديث بين الزملاء فى الإسكندرية من أهل الشمندورة والنوبة عن تلك الوزارات المتقلبة والمتغيرة وحزب الوفد ، حيث استعان الملك بأحزاب الأقلية فتألفت حكومات متعددة ووزارات فى عهودها قتل اثنان من رؤساء الوزارات أحمد ماهر باشا ومحمود النقراشى باشا ، وتطرق حديثه إلى حركه الإخوان المسلمين وتفجيرات القاهرة ثم الهزيمة فى حرب فلسطين

التى تألم لها بكرى وزملاؤه وشعروا بشديد الأسى وعميق الحزن فقد دخل جيش مصر تلك الحرب دون استعداد عسكرى كافى لطرد إليهود من فلسطين ولم يكن التعاون بين الجيوش العربية كافيًا ففشلت فى إزالة دولة إسرائيل وانتهت الحرب بهدنة وبعد الحديث عن هذه الأحداث الجارية وعن بكرى فى الإسكندرية تناقلت الألسنة تتبع البوليس لخطوات بكرى باشرى يرصد تحركاته فهو يتنقل بين القاهرة والإسكندرية ومحاضرات كلية الحقوق ويكون دائمًا فى صحبة مرجان دهب، حيث يلتقى بالمسافرين من وإلى الشمندورة والنوبة فى بدروم فيلا مدام تريزا.

استقر بكرى بالإسكندرية منكبًا على دروسه وفى أثناء ذلك يتدهور الموقف السياسى ويجبر القصر الملكى على انتخابات حرة تسفر عن فوز الوفد بالأغلبية ويتولى مصطفى النحاس الحكم ويطلق الحريات ويفرج عن المحبوسين فى عهود حكومات الأقلية ويصل الخبر إلى بكرى بإطلاق سراح عدد كبير ممن ألقى القبض عليهم من تلك النخبة التى يعرفها وممن تعرف عليهم فى القاهرة. وأنى للسمك أن يعيش بعيدًا عن الماء؟! وللعصفور أن يرضى بقفص من ذهب؟!! ويسافر بكرى إلى القاهرة فى ظل هذه الأحداث وتعقب البوليس لخطواته ومراقبته مراقبة لصيقة بعد عودته من زفاف جمال باشرى بالشمندورة وتحذير مرجان دهب له بالحيطة والحذر لسؤال البوليس عنه.

ووجد بكرى الظروف ملائمة والوقت مناسب لتواجده بالقاهرة فقد أطلقت الحرية للشعب للقيام بالنضال المسلح ضد قوات الانجليز بالقناة وأخذت جماعات الفدائيين فى مهاجمة المعسكرات الانجليزية وتعمدت الحكومة زيادة عدد جنود بلكات النظام لمساعدة الفدائيين وتوالت الأحداث وتصاعدت وتفاقم الوضع وأدت هذه الأحداث والتطورات إلى حريق القاهرة فى يوم السبت

الأسود فى ٢٦يناير ١٩٥٢.

وأحس بكرى وزملاؤه فى مقهى الشروق أن هناك أمرًا ما سيحدث... وأن هذا الغليان سيسفر عنه حدث ذو شأن... فالقاهرة حبلى بالآلام والآمال وجاءها المخاض... وقرب ميلاد شئ عظيم.

أهل الشمندورة بالإسكندرية عقدوا علاقة بين هذه الأحداث واختفاء بكرى، ومرجان دهب فى قلق وفزع من مصير بكرى وقص ماحدث لبكرى على زملائه بالإسكندرية فالكل يتلمس أخبار بكرى، ويبحثون عنه: الزملاء فى النهضة النوبية.. زملاء كلية الحقوق... شباب النوبيين... الجميع يتساءلون أين ذهب بكرى؟!!! ولما لم يعثروا عليه فى كل مكان يتوقعونه فيه فى مقهى {الوحدة العربية} بمحرم بك وبانسيون الآزاريطة مقر إقامته ومكتب الاستيراد والتصدير لدى متعهد التوريدات توقع الجميع لعله عاد إلى الشمندورة أو ألقى القبض عليه.

وفى صباح يوم ينادى على مرجان دهب أحد العاملين بالمخبز ويسلمه رسالة وصلت تليفونيًا مضمونها (بكرى اتصل بتليفون رقم..........) فيقرأ مرجان دهب الرسالة ويفرح بها فرحًا شديدًا وكأنه قد عثر على كنز ثمين كان يفتقده فكانت هذه الرسالة التى جاءت عبر التليفون وسلمت إليه كأنها طوق نجاة أنقذته من بحار الهموم والهواجس التى كان غارقًا فيها وتوجه بسرعة إلى منزله ليجد الفرصة فى مكالمة طويلة بعيدًا عن العيون والآذان واتصل بالرقم فإذا ببكرى يرد عليه ويطمئنه ويشكره على شعوره نحوه ويخبره بأنه سيعود إن شاء الله بعد أسابيع قليلة ويبلغه بالاعتذار عن الاستمرار فى الإسكندرية للدراسة وأنه عقد العزم أن يستكمل دراسته فى كلية الحقوق بالقاهرة فتمنى له مرجان دهب كل توفيق وسداد مقدرًا وملتمسًا له العذر فى البقاء فى الإسكندرية والاستمرار بها على مضض حرصًا عليه وقص عليه

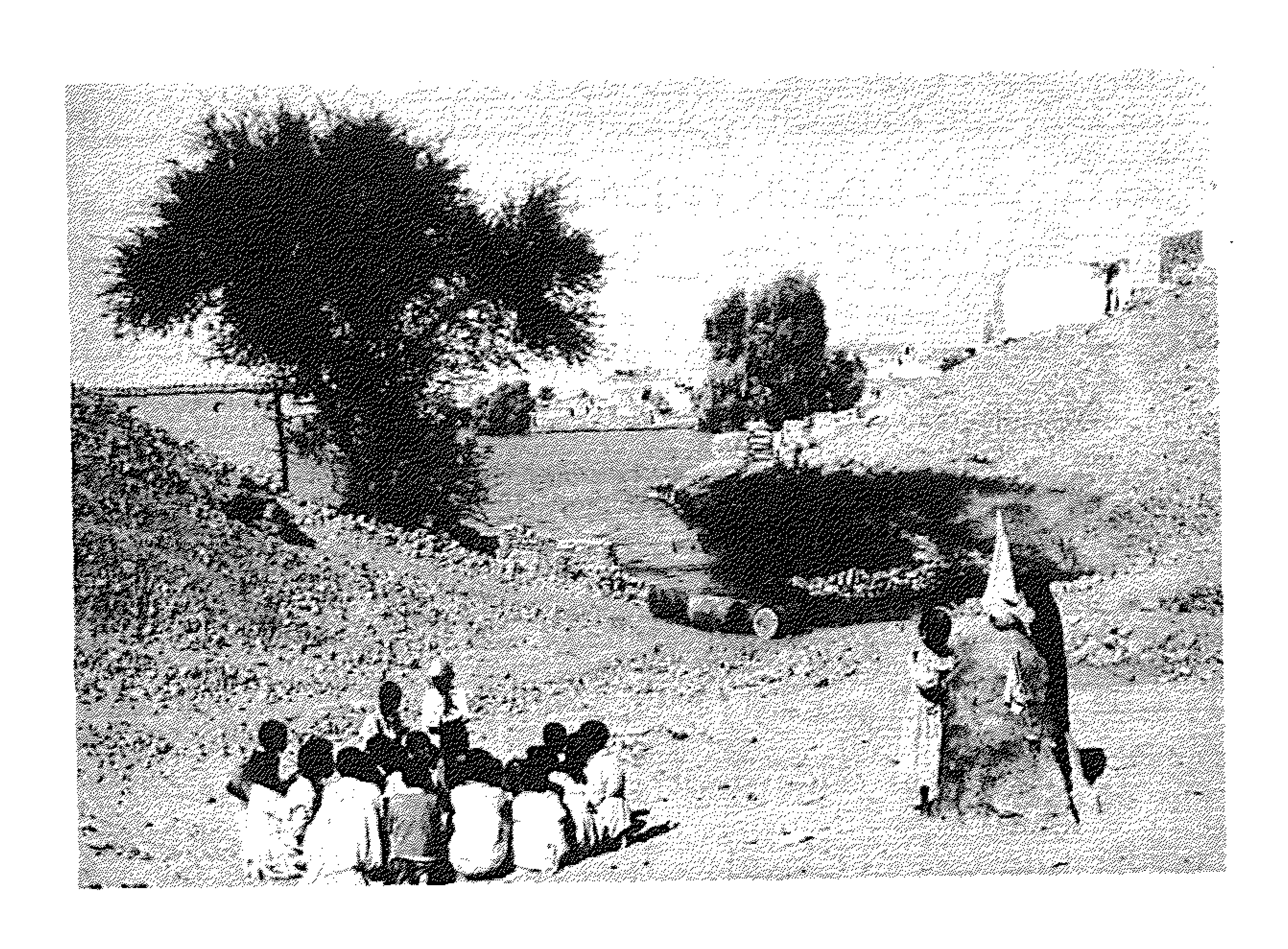
بكرى عبر الهاتف ما حدث بينه وبين الرجل الذى كان متعقبًا لخطواته ووصوله إلى القاهرة فى أمان وسلام وانتهت المكالمة بينهما على وعد اللقاء مرة أخرى.

ينتظر مرجان دهب الفرصة لزيارة القاهرة واللقاء ببكرى وزملاء مقهى الشروق كما ينتظر الفرصة فى زيارة مدام تريزا ابن شقيقها (أوديب) بالقاهرة فينتظر إشارة من مدام تريزا على عجل وأمل ولم يكف عن الاتصال بأش الله سيف الدين من آن لآخر ويتعرف على أخبار القاهرة وأحداثها أولاً بأول ويتابع ما يدور على صفحات الجرائد اليومية لعله يروى عطشه ويجد الإجابة على كل التساؤلات التى تدور فى ذهنه وتجول بخاطره ولم يهدأ لمرجان دهب بال ولا تستقر نفسيته إلا عندما طلبت منه مدام تريزا الاستعداد للسفر إلى القاهرة لزيارة ابن شقيقها (أوديب) فلم يكن مرجان دهب فى حاجة إلى استعداد فهو على استعداد للسفر فرحب ومنذ الصباح الباكر وقف على باب الفيلا يهئ السيارة ويضغط على آلة التنبيه وهو على أهبة الاستعداد.

وما هى إلا لحظات وبدأت الرحلة التى يرتقبها مرجان إلى القاهرة وكلاهما متشوق إلى القاهرة مدام تريزا فى أشد الشوق والاشتياق لابن شقيقها (أوديب) الذى لم تزره منذ فترة لوعكة أصابتها ، ومرجان دهب على شوق بلقاء بكرى وأش الله وزملاء مقهى الشروق بحى عابدين.

مدام تريزا فى ضيافة ابن شقيقها أوديب ويستأذن مرجان دهب مدام تريزا ويتوجه إلى لقاء بكرى وأش الله على أن يعود لمدام تريزا فى الموعد المحدد للعودة إلى الإسكندرية وفى منزل سيف الدين باشرى والد أش الله ببولاق أبو العلا يلتقى مرجان دهب ببكرى وأش الله وعدد من الزملاء من أهل النوبة والشمندورة ويتبادلون الحديث فى شتى الموضوعات بدأها مرجان دهب

باستحسان فكرة بكرى وحيلته التى تخلص بها من البوليس وتطرق الحديث إلى الأحداث الجارية فى القاهرة وإقالة الملك لحكومة الوفد وإعلان الأحكام العرفية وتعيين حكومة من حكومات الأقلية، وكان رأى بعض الزملاء ومنهم بكرى يميل بأن هذا سيؤدى إلى انشغال الشعب بالصراع من أجل الدستور عن الصراع ضد انجلترا وعلق أش الله قائلاً بأن هذا هو نفس ما حدث منذ سنوات قليلة ويقصد بها سنة ١٩٤٤ وبعد جلسة طويلة امتدت إلى ثلاث ساعات استأذن مرجان دهب ليلحق بمدام تريزا متمنيًا للجميع بالسلامة وعلى وعد اللقاء فى موعد لاحق وتفرق الجميع كل إلى وجهته شاكرين لأش الله حسن استضافته واستقباله لهم.



دهاء امرأة

نوبة إغماء تنتاب الحاج خليفة البنهاوى مع صداع نصفى فى فترات متقاربة على غير المعتاد ولازم الفراش وزادت حالته الصحية سوءًا وأصبح ضعيف القوة وأرسل إلى ابنته نسرين بالامارات شوقًا إليها واشتياقا لرؤيتها فقد أحس أن أجله اقترب ولا يعلم الأجل إلا الله علام الغيوب، ولكن المؤمن كيس فطن وكما يقال قلب المؤمن دليله وخاصة هو فإن الحاج خليفة قلبه تمتع بالايمان والتوبة، ويعود خليل أفندى بذاكرته إلى الشمندورة يتذكر أن أهل الشمندورة يعالجون الصداع النصفى "بالحجامة" التى تخفف من ضغط الدم ينصح الحاج خليفة البنهاوى بالحجامة ولكن يتذكر أن اليوم السبت فيؤجل إلى يوم الأحد لأن أهل الشمندورة يتجنبون الحجامة فى الأيام التى يطبق فيها الشفتين عند نطقها منها "السبت... الأربعاء... الخميس... الجمعة... "فهذه الأيام تشتمل على الحروف التى ينطبق فيها الشفتان (الباء - الميم). فما هى إلا أيام قليلة وتصل نسرين من الإمارات على عجل فانكبت على أبيها تطبع قبلات عديدة على وجنتيه وتزرف الدموع متأثرة بحالته الصحية ويادلها الحاج خليفة بنفس الإحساس والمشاعر الفياضة الرقيقه ولما هدأت من ثورتها وبكائها الفائض الحار استقر بها المقام.

جمع الحاج خليفة أسرته وبين لهم ما له وما عليه والجميع يتمنون له بالشفاء العاجل ويقولون له بعد عمر طويل تلك المجاملة الرقيقه ويوصى بكاميليا خيرًا فهى ابنته الصغرى والأقرب إلى قلبه كالمعتاد.

تلتقى زوجة الحاج خليفة البنهاوى بابنتها نسرين ويتفقا على عرض كافتريا حتحور رست للبيع والرحيل إلى بنها حيث الأقارب والأهل من أبناء العمومة أولى العصبة للحاج خليفة البنهاوى بدلاً من الحياة فى طنطا فى مهب الريح تتقاذفهم أمواج المدينة؛ فالحاج خليفه قد لازم الفراش ومسئوليات حتحور رست لا تقدر عليها كاميليا ولا والدتها.

وعرض الأمر على الحاج خليفة وأوحوا إليه أن الحياة بجانب أولاد العمومة فى بنها أفضل من الحياة فى طنطا معتمدين على عائد البيع والإيجار للعمارة السكنية فى مواجهة نفقات الحياة، فوافق الحاج خليفة على ما تم عرضه عليه، واستدعى خليل أفندى ليكلفه بمهمة البحث عن مشترى لحتحور رست والقيام بالإجراء اللازم فكانت هذه المهمة مفاجأة لخليل لم يتوقعها ولذا! طلب فترة من الزمن مهلة ليفكر فى الأمر مع الاحتفاظ بخردوات نفرتارى بعقد إيجار.

خرج خليل أفندى وهو يشعر كأن برجًا من رأسه قد طار فلا يتوقع أن يتحمل بعد كاميليا عنه التى اعتاد على رؤيتها يتآنس بها، وقد كانت عوضًا له عن رقية الشيخ عبد الله بالشمندورة وشعر كأن العصفور الذى قبض عليه بيديه قد طار منه فى الهواء، وظل يفكر ويفكر فى عودته وحيدًا كما كان وكاميليا التى سكنت شغاف قلبه واستولت على عقله وفكره!! ومن المشترى الجديد لحتحور رست؟! ومن مثل الحاج خليفة البنهاوى فى معاملته ومكانته؟! وهكذا ظل يفكر ويفكر!!.

وفى ضحى يوم شعر فيه خليل أن الحاج خليفة البنهاوى قد تماثل للشفاء وجلس مستندًا على مقعد وثير ولا يشعر بضيق الشرايين أو الإجهاد فقد دب فيه النشاط يتابع برامج التلفاز ويبتسم ويعلق على المشاهد التى يراها وبجواره زوجته فانتهز الفرصة وقد

رآها سانحة قبل أن يسأله الحاج خليفة عن المشترى والمهمة التى كلفه بها فاستأذنه خليل ليكلمه فى موضوع خاص؛ ففتح له الحاج خليفة صدره وألقى إليه سمعه وسمح له بأن يدخل فى الموضوع مباشرةً فالعلاقة الوطيدة بينهما لا تحتاج إلى مقدمات وتمهيد قائلاً له: تفضل يا بنى وأفصح عما تريد.

ولما تأخر خليل أفندى عن الكلام وصمت قليلاً شعرت زوجة البنهاوى بأن وجودها قد يكون السبب فى ذلك فاستأذنت لتعد واجب الضيافة فتسأل:

ماذا تفضل أن تشرب سخنًا أم باردًا؟

فيطلب الحاج خليفة يانسونًا له وليمونًا لخليل أفندى كما تعود دائمًا.

ولما انفرد خليل أفندى بالحاج خليفة البنهاوى طلب منه أن يستأذنه فى طلب يد ابنته كاميليا فيمدح الحاج خليفة، خليل أفندى ويثنى عليه كثيرًا ويستطرد قائلاً:

لقد فاجأتنى بهذا الطلب يا بنى فأمهلنى مهلة عى الأقل استشير فيها صاحبة الشأن كاميليا وإن شاء الله استبشر خيرًا.

ولعل زوجة البنهاوى قد استشفت الموضوع بحس المرأة وذكاء الأنثى فأرسلت كاميليا بالمطلوب اليانسون والليمون.

فسلمت على أبيها يدًا بيد وأومأت بالإشارة لخليل أفندى ورحبت به بكلمات رقيقة تعودت عليها ثم تخاطبت لغة العيون بينهما تحمل المعانى والكلمات والمشاعر والأحاسيس بين كاميليا وخليل أفندى ثم خرجت كاميليا لتترك الحاج خليفة وخليل أفندى معًا فى حوار وحديث مغلق.

ونظر الحاج خليفة إلى خليل أفندى نظرة معبرة ناطقة وابتسم ابتسامة عريضة فهم منها خليل المعنى المراد وكل لبيب بالإشارة يفهم.

وخرج خليل أفندى فى نهاية الجلسة وكأنه قد ازال همًّا ثقيلاً كان صخرة كبيرة جاثمة على صدره وخرج مستبشرًا ومتفائلاً خيرًا مما سمع ورأى وتذكر على الفور مرجان دهب، ونظر إلى المستقبل من بين الضباب وتراقصت أمامه ذكريات الشمندورة بكل ما فيها من فرح وأسى ويموج فى بحر الخيال زوجًا لكاميليا وينعم بحياة مستقرة فى جوار السيد البدوى ويشده الشوق والاشتياق لوالديه وشقيقته فردوس، الحاج خليفة البنهاوى يستدعى زوجته وابنتيه بعد خروج خليل أفندى وانصرافه ويعرض عليهم طلب خليل أفندى ليد كاميليا فابتسمت زوجة البنهاوى ونظرت إلى ابنتيها نظرة ذات هدف ولم تقل غير عبارة واحدة:

وما رأيك فيما طلبه خليل أفندى؟ فنظر الحاج خليفة البنهاوى إلى كاميليا فشعرت كاميليا بخجل واستحياء فاستأذنت والدها فى الانصراف وأسرعت تدير وجهها مع أن هذا العرض والطلب يوافق هواها.

وعلقت نسرين على ما ترى أمامها قائلة: السكوت علامة الرضا وخير البر عاجله فإن الأيام تمر بسرعة وإجازتى أوشكت على الانتهاء.

ولم يكن من الحاج خليفة بد إلا أن يقول: مبروك لكاميليا ودعا الله بالتوفيق وقرأ الفاتحة بينما تبادلت النظرات والإشارات بين زوجة البنهاوى وابنتها نسرين وكأنهما يتبادلان التهنئة على نجاح خطتهما فقد غلب عليهما حس المرأة ومكرها.

بيع حتحور رست والعودة إلى بنها لم تكن رغبة حقيقية فقد تعودت أسرة الحاج خليفة البنهاوى على الحياة فى طنطا منذ سنوات وسنوات وإنما كان ذلك العرض طعمًا ليصطاد هدفًا ووسيلة للتأكد من مشاعر وأحاسيس وقلب خليل أفندى نحو الأسرة وبخاصة كاميليا وقد ألقى الطعم واصطاد الهدف.

خليل أفندى يستعد لإعداد وتجهيز عش الزوجية؛ ففى كل يوم

يقوم بشراء شئ من مستلزمات البيت السعيد ينتهى العمل فى حتحور رست ثم يتوجه بعربة نقل إلى سوق طنطا يتفقد المعروضات وينتقى أفضلها ويعود بها إلى عش الزوجية ويجدد مقتنيات الشقة شيئًا فشيئًا وكاد أن ينتهى من الأثاث والفرش وأوصى الحاج خليفة بأن تجهز كاميليا بأفخر الأثاث فهى الابنه الصغرى وآخر العنقود والقريبة إلى قلبه. ولم تدخر شقيقتها نسرين وسعًا فى إدخال السرور على قلبها ، أما زوجة خليفة البنهاوى تطير فرحًا من السعادة وقد تم تحديد ليلة الزفاف.

صدرت الدعوة إلى ليلة الزفاف لأهل خليفة البنهاوى والخلان والأحباب والجيران واكتفى خليل أفندى بدعوة أصحابه وزملائه من كفر أبو حماد ومدرسة أبو حماد وتوجه الدعوة إلى والدى شربات زوجة مرجان دهب، فوالدى شربات من المعارف ذات الصلة القوية بآل البنهاوى منذ أن كان البنهاوى يعيش فى بنها وحالت بينهم المسافة بين طنطا وبنها وإلى الإسكندرية حال دون التزاور والتواصل وبخاصة بعد أن أدركت الشيخوخة والدى شربات.

فلما وصلت الدعوة لوالدى شربات لم يترددا فى الحضور وفاءً لتلك العلاقة والصلة التى دامت سنين منذ زمن بعيد ولعلها فرصة ليلتقى فيها بالحاج خليفة البنهاوى الذى لم يروه منذ سنوات بعد أن أقعدتهم الشيخوخة عن التنقل والانتقال.

وعرضت الدعوة على مرجان دهب ليرافق شربات ووالديها إلى طنطا لحضور ليلة الزفاف واستطاع مرجان دهب أن يقنع مدام تريزا بأن تسمح له بالسفر إلى طنطا بسيارتها الخاصة حيث يصطحب شربات ووالديها إلى طنطا وتقرر السفر وتحدد الموعد وأعدت الهدايا المناسبة للعروسين وعندما سأل مرجان دهب عن خليفة البنهاوى قيل له: إنه من المعارف منذ أن كانوا مقيمين بطنطا وتربطهم به علاقة صلة قرابة وصداقة وجيرة منذ زمن بعيد.

السراب

خليل أفندى يعد العدة لليلة العمر ويدعو معارفه وأصحابه من كفر أبو حماد والذين استقبلوه ورحبوا به عند قدومه إلى مدرسة كفر أبو حماد ووجه الدعوة إلى زملائه المعلمين كما علم تلاميذ المدرسة بزفاف خليل أفندى ولم ينس خليل أفندى أن يدعو عملاء حتحور رست من المتعهدين والموردين من تجار الجملة والقطاعى كما وجه الحاج خليفة البنهاوى الدعوة لذويه فى بنها الذين بعد عنهم منذ فترة حيث استقر فى طنطا ووجه الدعوة إلى آل زوجته بطنطا وهم يتمتعون بشهرة واسعة ويعملون فى مجال بيع وشراء واستبدال السيارات وتجارة قطع غيار السيارات.

أما الجيران وجهت لهم الدعوة من جانب العروسين وفى اليوم المحدد توافد المدعوون إلى السرادق المقام للاحتفال بجوار عمارة البنهاوى وازدحم السرادق بالمدعوين وكتب عقد القران فى حضور لفيف من أسرة العروسين وأعز الأحباب لخليل أفندى ونقل الاحتفال إلى السرادق المقام ليلاً.

ومن الإسكندرية توجه مرجان دهب وشربات ووالديها لحضور حفل الزفاف ولما وصلا إلى السرادق كان فى استقبالهم أبناء العمومة الحاج خليفة وفى السرادق يجلس فى المقدمة الحاج خليفة على كرسى وثير وعلى مقربة من كرسى العروسين الذى يبدو عاليًا تتصدر السرادق وقد ارتفعت أصوات الموسيقى ودق المزاهر عبر مكبرات الصوت وانبعثت الأنغام والألحان تغطى المكان وتبعث فى النفوس البهجة وبعد الترحيب بمرجان دهب وشربات وولديها جلس

الجميع يستمتعون بالطرب والغناء ينتظرون قدوم العروسين إلى السرادق والمنصة ومرت على المدعوين كؤوس الشربات ولفائف الحلويات وقدم مرجان صندوقاً من الجاتوهات الفاخرة والهريسة الإسكندرانية هدية منه للعروسين ولو كان يعلم مرجان أن العريس خليل أفندى لكانت الهديه أكبر من ذلك بكثير.

يصل العروسان وسط غمرة من السعادة والسرور وبين التهليل والضجيج والغناء يصل خليل أفندى يتأبط كاميليا فى حديث هامس وشقوا طريقهما وسط أمواج من البشر المدعوين إلى المنصة التى أعدت فى صدر السرادق ويحييهما الحاج خليفة البنهاوى وتقبل كاميليا يد والدها وهى تنطق بأرق كلمات العرفان والإجلال للحاج خليفة البنهاوى ثم يتجه الحاج خليفة إلى خليل أفندى فيعانقه مهنئًا ثم يواصل العروسان طريقهما ويجلسان على المنصة فى مواجهة الحاضرين ويدور بعينيه وكأنه يتفقدهم، بينما يشرئب مرجان دهب بل يهب واقفاً وكأنه لدغه عقرب يصدر آهة سمعها كل من كان حوله ويردد بلا وعى أو إدراك خليل أفندى... خليل أفندى بدون وعى أو شعور من هول المفاجأة لما يرى ويحاول مرجان دهب أن يسرع إلى خليل أفندى ليلحق به ولكنه لم يتمكن من شدة الزحام وضجيج الحاضرين ويشق الطريق محاولة للوصول ومن ورائه شربات تريد أن تلحق به تسأله: من خليل أفندى هذا الذى تناديه؟!! من خليل أفندى أتعرف العريس يا مرجان؟!! وخليل أفندى مشغول بتقديم مصاغ الذهب ويضع فى إصبع كاميليا الخاتم ويعلق السلسلة فى عنق كاميليا وعلى معصمها غوايش وسط زغاريد الفتيات ويقدم لهما صينية التورتة وأكواب الشربات فى مرح ودعابة وحديث هامس للعروسين، تعالج التورتة بالشوكة والسكين ثم يقومان إلى سيارة تقف امام المدخل الجانبى للسرادق بجانب المنصة أعدت لنقلهما إلى مسجد السيد البدوى ثم إلى عش الزوجية وبعد جهد شاق استطاع مرجان دهب وتشده شربات

استطاع أن يقترب من المنصة ولكن العروسين كانا قد غادرا المنصة إلى السيارة الملاكى.

لذا تحول مرجان دهب إلى الحاج خليفة البنهاوى يستفسر عما يرى وسأل عن العريس ومن الحاج خليفة البنهاوى ويعرف مرجان دهب حقيقة العريس خليل أفندى "خليل حسين أمين دكْشُو" بسكون الكاف نوع من أنواع السمك النيلى بالنوبية تتواجد فى الأعماق كان مشهورًا بصيدها فهو خليل أفندى المدرس بمدرسة كفر أبو حماد النازح إليها من أقصى الجنوب من الشمندورة ببلاد النوبة جنوب الشلال فيتشهد مرجان دهب {أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله} ويردد مصير الحى يتلاقى.... مصير الحى يتلاقى.... النصيب غلاب.... النصيب غلاب.. ويضرب كفًا بكف تعجبًا واندهاشًا للأقدار ويسأله الحاج خليفة البنهاوى ويخاطب نفسه قائلاً فى حوار داخلى: سامحك الله يا شيخ عبد الله..... ليس لك نصيب فى رقية ياخليل.... نصيبك فى شقراء ذات عيون زرقاء.... نصيبك فى طنطا وليس فى الشمندورة وتسمع شربات وترى ما يدور بين مرجان والحاج خليفة البنهاوى وتستنتج الحقيقة وتتذكر يوم زفافها وزواجها من مرجان دهب فى حفل مماثل لما تشاهده اليوم بالإسكندرية وفى طريق العودة يصر مرجان دهب على الذهاب إلى القاهرة لمدة قصيرة ويعود بعدها إلى الإسكندرية ويتوجه مرجان دهب إلى القاهرة للقاء أش الله سيف الدين ويستقبله أش الله بخبر سعيد فقد أفرج عن عبدالعزيز أمين ويوسف مبروك وشلة من زملائهم وهناك أمل فى الإفراج عن حامد خليل ومكى مراد ومحمد رضوان وجمعة وإبراهيم فسعد مرجان من هذا الخبر وبادره قائلاً لقد جئت إليك بنبأ عجيب وفى غاية السعادة أيضًا ، فسأله أش الله: ما الخبر ويبلغه مرجان دهب بأنه قد عثر على خليل أفندى وحضر ليلة زفافه إلى شقراء من مدينة طنطا وأنه حضر بدعوة من آل العروس، ولكنه لم يضع يده فى يده مهنئًا فكان سرابًا وانفلت

وطار فيتعجب أش الله مما يسمع ويلح عليه بأن يخبره بالتفاصيل... ويسمع القصة كاملة من مرجان دهب وكاد أن يطير من الفرح وطلب من مرجان أن يصحبه إلى طنطا ، ولكن مرجان دهب يعتذر ليصل إلى الإسكندرية فى الموعد المحدد الذى وعد به مدام تريزا ويعود إليه فى وقت لاحق ليصحبه إلى طنطا.

زوجة خليفة البنهاوى كانت على مقربة من مرجان دهب والحاج خليفة وسمعت جانبًا من الحوار بينهما ولما انفض السرادق وانصرف المدعوون طلبت من الحاج خليفة البنهاوى أن يحكى لها حقيقة وتفاصيل ما دار بينهما من حديث... فتعجبت لهذه الدنيا الصغيرة الواسعة ومن الأقدار وخطوات المشيئة الإلهية التى جمعت شريات بمرجان وخليل بكاميليا ولقاء الجميع فى حفل زفاف خليل قدرًا ويستطرد الحاج خليفة البنهاوى الحديث ويؤكد لزوجته أن مرجان دهب لأول مرة يعرف أن شريات جذورها ترجع إلى بنها وكان يعتقد أنها اسكندرانية الأصل ولم يكن هناك داع ليسألها عن أصلها فقد جمع بينهما الحب والمودة عند مدام تريزا......

وانتقل الخبر من أش الله سيف الدين إلى بكرى وانتشر وشاع بين شباب الشمندورة والنوبيين بالقاهرة وقد استقبل الجميع الخبر بكل سعادة وسرور، والكل يتناقل الخبر بوجه باش منفرج الأسارير، كما سمع الخبر النوبيون بالإسكندرية فلم يدع مرجان دهب واحدًا من معارفه إلا وأسعده بهذا الخبر (العثور على خليل أفندى وزواجه من شقراء بطنطا) وكل من يسمع يعلق قائلاً: كذب المنجمون ولو صدقوا وعادت إلى ذاكرتهم تلك النبوءة التى تنبأت بها العرافة فى الشمندوره أن خليل أفندى سيعود يتأبط شقراء ذات عيون زرقاء فقد قالتها ليوافق ما تتمناه وتنتظره والدة خليل لتكثر الهبة والعطاء فقد كذبت العرافه وصدق ما قالته سبحان الله العليم علام الغيوب ومسير الأقدار ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وبعد أن عز اللقاء

فى صباح اليوم التالى لزفاف خليل أفندى تراود تلك النوبة الحاج خليفة البنهاوى وتزداد حالته سوءًا وتعتقد الزوجة أن ذلك نتيجة المجهود الذى بذله فى زفاف ابنته كاميليا ولما شلت حركته وفقد النطق نقل إلى المستشفى ليودع فى حجرة العناية المركزة، كما أوصى الطبيب، وزاره خليل أفندى بالمستشفى ومن خلال متابعته لحالة الحاج خليفة البنهاوى أحس أنها بداية لنهاية ولكنه يواسى الزوجة وابنتها قائلاً: لعل الله يكتب له الشفاء العاجل فكم من النوبات مرت به وكتبت له الحياة ونجا منها، وبينما خليل أفندى يواسى آل البنهاوى فإذا بالمرضة المختصة بمتابعة حالته فى حجرة العنايه المركزة تنادى على خليل أفندى وتنزوى به جانبًا وتبلغه بالنبأ الحزين خليفة البنهاوى فارق الحياة ولفظ أنفاسه الأخيرة ومضت فيه إردة الله وقضائه سنة الله فى خلقه، وتولى خليل أفندى إبلاغ الخبر إلى زوجة البنهاوى والابنتين تتعثر الكلمات وتحتبس فى حلقه وكأن به غصة وتولى خليل أفندى جميع الإجراءات اللازمة خلال أيام عرسه والأسبوع الأول من زفافه وبعد صدمة الحدث الأليم زوجة خليفة البنهاوى تبلغ خليل أفندى: ما حدث من مرجان دهب زوج شربات؛ فانفزع خليل أفندى للخبر ويندهش ثم يهدأ بعد هول المفاجأة فتقص عليه تفاصيل ما حدث فى ليلة زفافه ويحكى لها خليل أفندى قصة زواج مرجان دهب من شربات تلك الشقراء الإسكندرانية وتؤكد له أم كاميليا أنها بنهاوية وليست اسكندرانية الأصل، وتبين له ما يربطهم من معرفة قديمة ورحيل

أسـرتها إلى الإسـكندرية سـعيًا وراء الـرزق واسـتقرارهم بالإسـكندرية ثـم انقطـاع صلتهم بالأهـل فـى بنهـا إلا فـى مناسـبات تجمعهم بهم من فترة لأخرى، ويسأل خليل أفندى عن عـودة شـربات ومرجان مرة أخرى ولكنها تؤكـد أنه قد يـأتى لواجب العزاء فـى الحاج خليفة إذا وصل إليهم الخبر وينتظر خليل أفندى عودة مرجـان دهب وشربات إلى طنطا مرة أخرى ليلتقى بمرجان دهب.

بكرى وأش الله وعبده كندنونـة ينتظـرون مرجـان دهـب حتـى يجد فرصة وفسحة من الوقت ليسافر معهم إلى طنطا للقاء خليل أفنـدى ويتعجلـون مرجـان دهـب ولكنـه ينتظـر الانتهـاء مـن بعـض الأعمال المتعلقة بالمخبز.

ولما سنحت الفرصة المناسبة استأذن مرجان دهب مدام تريزا واصطحب بكرى وزملائه بسيارته إلى طنطا وتحركت السيارة والكل فى غاية السعادة والشوق يتعجلون عقارب الساعة لذلك اللقاء المرتقب، ويصل الركب إلى طنطا ويتوجهون إلى حيث كان السرادق يوم زفاف خليل أفندى ولكن سبحان الله وجدوا السرادق مقام فى نفس المكان ولكن السرادق هذه المرة للعزاء؛ فتوقف مرجان دهب ومن معه مندهشين ويسألون عن الحاج خليفة البنهاوى وتكون الإجابه المذهلة أنه هو المقام له هذا السرادق رحمه الله ومن يتقبل العزاء فيه عند ئذ ترحم الجميع عليه ودخلوا السرادق ليؤدوا واجب العزاء أولا ثم يسألون عن خليل أفندى بعد أداء واجب العزاء، وكان فى مقدمة السرادق أولاد العمومة للحاج خليفة البنهاوى يستقبلون المعزين ومن بينهم خليل أفندى يتقبل العزاء وبعد تقديم واجب العزاء ينكبون على خليل أفندى واحدًا تلو الآخر يعانقونه عناقًا شديدًا ينتهى بقطرات الدموع تتساقط من العيون ولا يدرى أولاد العمومة للحاج خليفة سبب هذه الدموع إلا أنها حزنًا على الحاج خليفة وبعد تقديم واجب العزاء أرسل خليل أفندى على

الفور لإعداد مائدة الطعام مائدة تليق بهم وبعد قضاء فترة فى السرادق فى صمت ودهشة بما وجدوا.

استأذن خليل أفندى أبناء العمومة للمرحوم خليفة البنهاوى ليقوم بالواجب نحو ضيوفه من آله وذويه وطلب من مرجان دهب والمرافقين له أن يتبعوه ووصل بهم إلى مكان بعيد عن السرادق حيث أعدت المائده بطعام شهى ودار الحديث بينهم فيطمئن خليل أفندى على والديه وفردوس، ولا يكاد خليل أفندى أن يصدق أنه يرى أمامه بكرى وعبده كندنونة من تلاميذ مدرسة الشمندورة ويشد على يديه مرجان دهب وكأنه يؤيده على زواجه من شربات الشقراء واغرورقت عينا بكرى وتساقطت قطرات الدموع ويتوجه إلى خليل أفندى ويعانقه للمرة الثانية عناقًا حارًا لعله اعتراف من بكرى بفضل خليل أفندى عليه، ثم يلتفت خليل أفندى إلى عبده كندنونة فيعرف من خلال حوار جانبى أن بكرى يدرس فى كلية الحقوق ويسأل عن شكرى حسنين ومصطفى أبا يزيد وغيرهم وغيرهم، ويطلب منه أش الله أن يحكى له عن قصته ورحلته إلى طنطا وعن علاقته بالحاج خليفة البنهاوى المتوفى وقص عليهم خليل أفندى عن رحلته من الشمندورة إلى أسوان والشلال ثم إلى طنطا وكفر أبو حماد وعلاقته بآل البنهاوى ويطمئن أش الله خليل أفندى على جميع الأهل من الشمندورة والنوبة بالقاهرة والإسكندرية.

ثم انتقل الحديث إلى حتحور رست وخردوات نفرتارى ويخبره عبده ساسبان بأنه رآه وهو يستقل سيارة نقل إلى طنطا فيؤكد ذلك ويخبره بأنه لمحه أيضًا ولكنه فضل أن يكون بعيدًا عن الأعين وشاءت إرادة الله أن يلتقوا، وفى نهاية الحديث طلب منه بكرى وزملاؤه أن يزورهم فى القاهرة ويلتقى بشباب النوبة والشمندورة الذين يكنون له كل احترام وتقدير فالكل فى أشد الشوق للقاء خليل أفندى؛ فيعتذر خليل أفندى عن تلبية الطلب ويزور

القاهرة فى الوقت الحالى وذلك للظروف المحيطة به ولكنه يعدهم بزيارتهم فى وقت لاحق بعد انقضاء أيام العزاء؛ فزوجة البنهاوى فى أشد الحاجة إليه فيوافقه الجميع ويستأذنون للسفر على أن يكون الاتصال والوصال بينهم مستمرًا لحين زيارته إلى القاهرة وأما عن زيارته إلى الشمندورة والعودة إليها فوعدهم بذلك ودس فى أيديهم جنيهات معدودة إلى والديه وشقيقته بالشمندورة ويطمئنهم عليه كما طلب منهم أن يطمئنوه عليهم بعد السنوات التى انقطعت أخبارهم عنه كما انقطعت أخباره عنهم.

وعاد الزملاء يتعجلون مرور الأيام لحضور خليل أفندى للقاهرة والإسكندرية كما وعدهم ومروا فى طريق العودة على حتحور رست وخردوات نفرتارى وأخذوا قسطًا من الراحة وتفقدو المكان وراودتهم ذكريات الصبا والشمندورة وخليل أفندى ورقية الشيخ عبد الله، ويحدثهم بكرى بمكانة ومنزلة خليل أفندى فى قلبه وحبه له ويستطرد الحديث ويؤكد أن خليل أفندى قد كبر فى عينيه بأخلاقه من سماحة وطيبة قلب ونقاء سريرته حيث لم يضمر أو يكن أى ضغينة أو حقد للشيخ عبد الله والد رقية أو حسب الله جاه الرسول؛ فقد علق على رأى لأحد الزملاء أن ما حدث كان هو النصيب والمكتوب وقدر الله وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وإرادة الله فوق كل إرادة وما حدث ليس إلا صفحة وانطوت من حياته ليعيش حياة سعيدة مع كاميليا فى كفر أبو حماد فكان هذا التعليق لخليل أفندى على قول بأن الشيخ عبد الله هو السبب فى هجرته من الشمندورة ولأهل الشمندورة.

وبالحديث عن خليل أفندى قطعوا ملل الطريق وطوله فوصلوا إلى القاهرة وتوجهوا إلى حسب الله جاه الرسول وبلغوه خبر الوصول إلى خليل أفندى أخيرًا وأعادوا له قصة خليل أفندى والشيخ عبد الله وتعليق خليل أفندى على الحدث، وهنا يؤكد لهم حسب الله جاه

الرسول أنه لم يعلم بما كان من خليل أفندى وطلبه ليد رقيه إلا بعد أن وافق على ما عرضه عليه الشيخ عبد الله ويطلب رأيه فى رقية زوجة له وأثنى على خليل أفندى وكريم أخلاقه ومنزلته ومكانته عند أهل الشمندورة، كما عبر عن تقديره لخليل أفندى بصفة خاصة وعن شوقه واشتياقه إلى لقاء خليل أفندى.

وغمرت الفرحة شباب الشمندورة وملأت السعادة والسرور قلوبهم عند سماعهم نبأ العثور على خليل أفندى وظلوا يتناقلون الخبر فيما بينهم بكل الأمل والتفاؤل حتى انتشر الخبر وذاع كانتشار النار فى الهشيم.

ولكن القدر لم يمهلهم لاستكمال تلك الفرحة فقد صدرت الأوامر بإلقاء القبض على مجموعة من أولئك الشباب وتلك النخبة من شباب النوبة أمثال عبد العزيز أمين ويوسف مبروك وبكرى وعبده كندنونة ليلحقوا بحامد خليل ورضوان جمعة ومبروك عبد الفضيل وغيرهم رغم الحذر والحرص ولكن لا يغنى ولا ينجى الحذر من القدر فكانت تلك الشبهة التى تلاحقهم الاتصال بجماعات وتنظيمات غير مرغوب فيها.

أما أش الله وعبده ساسبان ومرجان دهب وبقية الزملاء فى انتظار خليل أفندى لعله ينضم إليهم ويستطيع أن يفعل شيئًا للإفراج عن من أودعوا غياهب السجن.

الحفيد

وبسرعة البرق يصل خبر العثور على خليل أفندى إلى الشمندورة وبخاصه زواجه من شقراء ذات عيون زرقاء ولم تسع الدنيا والديه من الفرحة وأطلقت فردوس الزغاريد عالية وأما والده فقد حمد الله تعالى وسجد شكرًا لله على سلامة ابنه خليل وانكب عليه أهل الشمندورة يهنئونه ويحمدون الله على سلامة خليل أفندى ورغم شيخوخته وإصابته بالوهن والضعف فقد أعادت إليه الفرحة شبابه وقوته؛ فوقف متماسكًا يتقبل التهانى بسلامة خليل وما أرسله من جنيهات معدودة لكنها تساوى الكثير والكثير وأما والدة خليل فقد أمرت بإشعال النار ورفع القدر فوق النار فقد عزمت على سلق (كرامن ارجيه[1] وهى عبارة عن مسلوق مجموعة من الحبوب مجتمعة تشمل اللوبيا والقمح والفول والكشرنقيق) وتغلى هذه الحبوب من البقول معًا ويضاف إليها قليل من الملح حتى يستساغ طعمه وتفرغ فى أطباق وتوزع على الجيران وأهل الحى وللصبية من بنين وبنات، حمدًا لله على سلامة خليل أفندى كما أنها تعد وتمنى الفتيات بطرح جورجت وهدايا العطور من المسك والصندل وحفنات من بخور السيدة وسيدنا الحسين والموسكى. وأسرع الشيخ عبد الله لوالد خليل يذكره بما قاله: إن خليل أفندى لن

---

(1) تكون هذا السليقة فى حالات النجاة والسلامة من الأخطار وعند النذر كما أنها تقدم فى ضحى يوم معروف عند النوبيين بالأربع ما يدور ويوافق يوم الأربعاء واليوم الرابع من شهر من السنة الهجرية، ويقال إنه اليوم الذى نجا الله فيه سيدنا أيوب وشفاه من مرضه.

يعدم زوجة تليق به وألف من يتمناه زوجًا لابنته ويضم والد خليل إلى صدره ويعانقه مشفقاً عليه ومهنئًا له وفى هذه اللحظة تتساقط الدموع من عينى والد خليل ودموع الرجل دائمًا عزيزة عليه ولكنها تهون عندما تلتهب المشاعر وتتغلب الأحاسيس على تلك العزة.

وعاشت الشمندورة فى فرح وسرور منذ سماعها نبأ العثور على خليل أفندى والكل يتساءل: متى يعود خليل أفندى إلى الشمندورة؟ وتذكرت والدة خليل تلك النبوءة التى تنبأت بها تلك العرافة وتتساءل مستنكرة لموقف الشيخ حمدون فتقول: أين أنت يا شيخ حمدون رحمك الله فقد توفى الشيخ حمدون ودفن ولم يشهد عودة خليل أفندى يتأبط زوجة شقراء ذات عيون زرقاء من بنات بحرى ويردد والد خليل قوله: كذب المنجمون ولو صدقوا...... كذب المنجمون ولو صدقوا.

أما زنوبة عثمان باشرى شقيقة بكرى فمن جميل الصدف ومشيئة الأقدار أن ينتابها آلام المخاض وتستدعى مسكه (الأونسكار) وتعنى بالنوبية المولدة تضع بمساعدتها زنوبة مولودًا ذكرًا بسلامة الله وتدور أطباق الفيشار تعلوها البلح وتدور أكواب الشربات على أهل الشمندورة ويعود جمال فى طريقه من العمل وأمام متجر الحاج صالحين يستقبله الصبية من أهل الحى ويسدون عليه الطريق يحملون إليه البشرى بنبأ سعيد فيسألهم جمال باشرى: ما الخبر؟... وماذا حدث... ؟ ولكن الصبية يصرون على عدم الإفصاح صراحة بمضمون الخبر إلا إذا أعطاهم جمال البشارة[1] فلم يجد جمال بدًا من أن يخرج لهم تمرات كانت فى جيبه ولكنهم يطلبون المزيد فهم أمام متجر صالحين فتوجه جمال إلى المتجر واشترى قمع من السكر ووزعه عليهم عندئذ أخبروه بالخبر السعيد أن زوجته زنوبة قد وضعت مولودًا ذكرًا فيسعد جمال

---

(1) هى منحة أو عطاء توهب لمن يبلغ بالخبر السعيد لأول مرة.

باشرى بالخبر سعادة بالغة ويزيدهم العطاء فيضيف على قمع السكر قالبًا من الحلاوة الطحينية، وفى سرعة خاطفة وصل إلى البيت ليجد البيت قد امتلأ بالنساء والفتيات من أهل الحى وكلهم يتقدمون لتهنئته بالمولود فرحين مسرورين، ثم أسرعت إليه مِسْكَه (أونسكار) تطلب حقها فوضع يده فى جيبه وأخرج قطعًا من النقود الفضية ودسها فى يدها علاوة على ما أخذته من أم جمال من غلال وسكر وصابون وعطر وطرحه جورجيت ففرحت بذلك فرحًا شديدًا ودعت الله له وللمولود بالصحة والعافية والعمر الطويل.

وفى اليوم السابع توجه موكب يضم الصبية من البنين والبنات وجمع من الأهل والأحباب وبخاصة من النساء وتوجه هذا الموكب فى بهجة إلى النيل تتقدمهم إحدى النساء من ذوى الخبرة والحنكة ولعلها محروسة باشرى تحمل المولود ويتغنون بجماله وعراقة نسبه وحسبه يدعون له بأطيب الأمنيات والعمر المديد ليحمل اسم والده واسم العائلة ويحملون أوانى من الفخار (الفالَكّة) مملوءة بالمديد[1] باللبن والسمن البلدى ومما يتغنون به:

حارس الله ما شا الله جونجنا النبى صلاج جون أوجنا

يويو بابا أومر إرجنا أو سكو ديتى لنى إ رجونا

كو نج جحج فينا أو نتنجاتك جونجى نَىّ لا جورنا

قورة هلا لنج منجنا تمنج مانجغا آ تمتمى

إرنجوسيه ووا نور سلما أوس بلا لتونسلما

وتعنى هذه الكلمات دعوة إلى النظر إلى هذا المولود بعد الصلاة على النبى لتحرسه تلك الصلاة من كل سوء وتبين أن هذا المولود السعيد انتظره الأبوان يعدون ويحصون الأيام والشهور حتى الشهر

---

(1) مخلوط من الدقيق والماء ويضاف إليه قليل من الملح مع التحريك والخلط بالمفراك حتى يشكل قوامًا متماسكًا ويقدم ساخنًا وهى أكلة شعبية فى وجبة الإفطار دائمًا.

التاسع وتمدح تلك الكلمات المولود بأنه بوجه ضاحك وكالقمر ويسر كل عين تنظر إليه كما أنه وصف لذلك المولود الذى رسم الهلال على جبهته بالكحل فيعكس لمعانًا ونورًا يخطف الأبصار، وفى النهاية دعوة بأن يحفظه الله ويسلمه من كل سوء حتى ينمو ويكبر ويزيد فى العائلة رجلاً.

وعندما يصل الموكب إلى النيل المبارك يجلسون على الشاطئ وقد يخوضون فى المياه الضحلة وتوزع ما معهم من المديد على الصبية بوجه خاص وللكبار من الفتيات والنساء، وفى نهاية الطعام يقذف بلقيمات لسكان البحر من الملائكة والصالحين مع التوسل إليهم بأن يحفظوا المولود ويتولونه بالرعاية من كل سوء حتى يكبر وينمو مباركًا مبجلاً ويعمر فى الدنيا ويعمر بيت ذويه وآله، ثم يخوض الجميع فى الماء الضحل فى الشاطئ ومنهم من يتعمق إلى العمق وينثرون قطرات الماء فى سعادة ومرح ومزاح.

ويغمر ماء النيل الأقدام والسيقان بين التهليل والضجيج بينما تلك المرأة (محروسة باشرى) تحمل المولود وتخوض به فى ماء النيل وتبلل بالماء جميع أجزاء وجسد المولود وتنثر الماء على وجه المولود تبركًا وتفاؤلاً بنهر النيل الميمون، ثم تخوض بالطفل وتضع ساقيه الناعمتين فى الماء وفى بعض الحالات يحتفظ البعض من النساء بالحبل السرى فى خرقة نظيفة ذات لون أبيض إلى ذلك اليوم وهواليوم السابع ليقذف إلى أعماق النيل ويندمج المولود ويرتبط بالنيل برباط المحبة والمودة ثم يعود الموكب فى سرور وسعادة كما جاء ويعود إلى البيت فتحمله أمه زنوبة وهى تدعو له بكل خير وتأتى بالمكحلة والمورود ويغمس فى رأس بصل حار ويكتحل المولود فى عينيه ويرسم على حاجبيه هلالاً يتناسب مع مقلة العين كما يرسم على جبهته بالكحل شكل رقم ١١١، وفيما سبق من العصور المتأخرة كان الرسم على شكل صليب ولعلها من بقايا

المسيحية ثم يحمل المولود ويتخطى به على بخور الصندل سبع مرات وينثر على البخور حبات من الملح فيصدر من أثر النار طرقعات فى عين الحسود حتى ينشغل بها الحسود الحاقد ولا يدقق النظر إلى المولود فيصيبه بالعين أو الحسد وبعد هذه الرقية تنثر الماء على وجه المولود يغسل بها وجهه ويتساقط الماء على البخور فيطفئه حتى يعود رمادًا ثم يؤذن فى أذن المولود بصوت بين الهمس والصوت المسموع فى أذنه اليمنى وتقام للصلاة فى أذنه الأيسر ويطلب من الأب وهو صاحب الحق فى اختيار اسم المولود؛ ولذا أرسل إلى جمال باشرى واختلفت الآراء ترشح الاسم المناسب ويعلن جمال باشرى اسم المولود مختلفًا عن كل الأسماء المقترحة ويسميه (خليل) تفاؤلاً بعودة خليل أفندى إلى الشمندورة قريبًا فقد تم العثور عليه.

ويتقدم محى الدين باشرى ويعلن أنه وهب للمولود حفيده نخلة تأتى بأطيب الثمر ومن أجود الأنواع (القرقودة) وأخرى بسكوتى المشهورة وتليه محروسة باشرى وتهب المولود منحة وعطاء كبشًا أقرنا مما تقوم برعايته ثم تتوالى الهبات على المولود فها هو عثمان باشرى يهب لحفيده عجلاً يبلغ من العمر ستة أشهر، وهكذا يتجمع للمولود عديد من الممتلكات التى يمكن أن تنمى وتكبر وتزيد جنبًا إلى جنب مع نمو المولود واستقباله للحياة مالكًا للعديد من الممتلكات الخاصة التى تكون ثروته فيما بعد.

وبعد صلاة العشاء فى يوم السبوع يتناول أهل الشمندورة طعامًا شهيًا هنيئًا مريئًا من الثريد واللحم الذى تم تجهيزه من العقيقة فى أول النهار.

وفى ضحى اليوم قد حلق للمولود شعره بل شعيراته الناعمة وتصدق جمال باشرى ما يوازى ثقله ذهبًا وذبحت العقيقة لتقديم الطعام لأهل الشمندورة.

وبعد طعام العشاء والوليمة أقيمت حلقات ذكر لله ﷻ شكرًا

وأنشدت القصائد فى مدح الر سول ﷺ من نهج البردة وغيرها ومن آن لآخر ترتفع الزغاريد فى سماء الشمندورة بينما تتلى القصائد وحتى وقت متأخر من الليل.

وتظل زنوبة تحتضن وليدها وتكون الأسرة فى خدمتها حتى الأربعين يومًا من ولادتها لخليل الحفيد وهى فى غاية السعادة بالمولود الأول الذى رزقها الله به ذكرًا فهى تستبشر به خيرًا فأن المولود ذكرا وليس بأنثى، فقد رفع هذا المولود من مكانة ومنزلة زنوبة لدى جمال باشرى ووالديه؛ فالمولود الذكر له أهمية كبرى ومكانه لدى أهل الشمندورة تختلف عن الأنثى وقد يلجأ البعض إلى الزواج مثنى وثلاث ورباع لإنجاب الذكر.

أما أم جمال باشرى فهى امرأة ذات خبرة ومتمسكة بعادات وتقاليد الشمندورة فتقترب من زنوبة وتهمس فى أذنها بتعليمات مشددة لتلتزم بها ولا تحيد عنها قيد أنملة خلال فترة الأربعين يومًا وذلك حرصًا على سلامتها وسلامة الحفيد الغالى خليل من سوء العاقبة {المشاهرة} أو جفاف لبن ثدى زنوبة أو العقم أو ما إلى ذلك.

ومن هذه التعليمات أن لا تدخل عليها من تتحلى بذهب جديد أو من شهد جنازة أو حضر دفن ميت وأن تظل السكينة تحت رأس المولود لطرد الأرواح الشريرة وأن لا تنسى أو تهمل ترقية نفسها ووليدها مساء كل يوم عند الغروب فى قارعة الطريق وغيرها من المعتقدات الراسخة.

ثم مالت أم جمال باشرى على الحفيد خليل وعلقت تميمة[1] فى رقبة الحفيد خليل وأخرى مثلها للأم زنوبة وأمسكت المولود خليل بين يديها ترفعه عاليًا ثم تعيده إلى حجرها تهدهده وهى تردد (١)

كيوسيه..... كويسيه....... كويسيه...... بابانتوكيوسيه......

---

(1) خرز أزرق من الخزف الصينى مع حفنة من التراب الأصفر من جوار ضريح شيخ أو ولى.

يويونتوكيـو سـيه عيلـل إنـج أودروسـيه....... إك آجـا جتيرونـى....
أوسولتون وأينجلوا....... لاحظت أم جمال على المولود خليل الحفيد
أنـه يتجشـأ (يتكـرع) ثـم تعطيـه لزنوبـة قائلـة: لقـد لعـب خليـل مـا
يكفيه وآرى النوم فى عينيه خذيه لينـام نومًا هادئًا فتأخذه زنوبة
وتضعه فى فراشة وتربت عليه وهى تغنى له قائلة (٢)

لولو وواكدوتولولو...... نيرا كيوسيه... لولو

جـا شـا جريـد يـه لولـو......... ملـن دوليـه لولـو....... يويـون جـالى
لولو........ بابن جالى لولو.......

والترجمة بالعربية

(١) اكبر اكبر أيها الابن الغالى والمقرب إلى قلب أبيك.

اكبر اكبر أيها الابن الغالى والمقرب إلى قلب أمك.

اكبر اكبر لتكون رجلاً وتزيد العائلة عصبة وعزوة.

اكبر فأنى أخاف عليك من كل شر أو سوء.

اكبر فى حفظ الله ورعايته وفى جوار والديك.

(٢) لولو كلمة تناسب الهدهدة وكلمات الهدهده تعنى بالعربية:

لولويا صغيرى الغالى.... نم فى هـدوء واستمتع ليكبر جسمك أو
تنمو.

تمختر دلالاً وفخـرًا وعـزًا وتيهًـا يـا حبيـب الكـل ويـا غـالى ويـا
عظيم الشأن عند أبيك وأمك...

البيان العاجل

الشيخ عبد الله يدير مفتاح الراديو {المذياع} ويتوقف فجأة ليسمع البيان الهام والعاجل......... وينادى على أهل الحى والشمندورة بوجه عام ويجتمع أهل الشمندورة فى لحظات فى ديوان الشيخ عبد الله وعيونهم معلقة بالصندوق الخشبى الذى يصدر منه الصوت وأذانهم مشدودة إليه ويسترقون السمع إلى الصوت الصادر منه عاليًا يعلن بيان قيام الثورة فى ٢٣يوليو ١٩٥٢"من اللواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة إلى الشعب المصرى اجتازت مصر فترة عصبية من تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرارالحكم وقد كان لهذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين....... وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب....... أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور................."

وليس بالغريب أن يتجمع كل أهل الشمندورة فى مضيفة الشيخ عبد الله حيث لا يوجد أى جهاز راديو إلا عند الشيخ عبد الله وهى الوسيلة الوحيدة لمعرفة أخبار القاهرة والعالم من حولهم إلا عند مجىء الأكتوبريين قد يكون مع أحدهم راديو ترانزستور يدير أزراره فى فخر وتيه وقد يعود به إلى القاهرة مرة أخرى أو يحتفظ به مكنونًا فى صندوقه الخاص لحين عودته مرة أخرى فى نفس الموعد من العام القادم؛ ولذلك كانت مديرية أسوان تبلغ المركز بعنيبة

حلول شهر رمضان أو برؤية هلال الشهر العربى لتحديد الصيام أو لإفطار أو العيد ويقوم المركز بتبليغ العمدة ويبلغون بدورهم المشايخ فيأمرون الخفير النظامى ليقوم بجولة ينادى على الناس بصوت جهورى ويطوف راكبًا دابته ويصيح بأعلى صوته قائلاً:

غدًا رمضان...... أو غدًا العيد..... أو غدًا المتمم لشهر شعبان وهكذا...

فلا وسائل إعلام أو إعلان سوى ذلك الصوت الجهورى للغفير النظامى الذى يمرفى نطاقه.

ولما سمع أهل الشمندورة بنبأ قيام ثورة يوليو المجيدة كان هذا النبأ بردًا وسلامًا على قلوب أهل الشمندورة والنوبة فارتفعت الحناجر عالية تدعو لتلك المجموعة الفتية من الضباط الأحرار والمخلصين وتبارك هذه الخطوة حيث أطاحوا بالملك وأعوانه ويعلنون مبادئ الثورة.

فاستبشروا خيرًا وعلت البشاشة الوجوه السمراء وكستها الفرحة فتحولت إلى إشراقة وبسمة تحيى الحرية والمساواة والعدل ويتولى رئاسة الجمهورية اللواء محمد نجيب فتعاطفت معه جموع النوبيين وتضامنت مع الثورة تضامنًا مع أبناء مصر فى كل مكان وقد ملأ الأمل والتفاؤل قلوبهم بمبادئ الثورة، فهى الأمل فى المساواة ليجدوا فرصة أكبر للتعليم، وهى الأمل فى العدل ليعطيهم حقوقهم الضائعة فى تعويضات هزيلة بخسة فى ظل الحكومات السابقة ومستر هيس، وهى الأمل فى نصرة الطبقة الكادحة من عامة الشعب وتذويب الفوارق الاجتماعية فى حياة ديمقراطية سليمة وتكافؤ للفرص وقضاء على الرأسمالية والإقطاع التى تمثل طبقة المخدومين الذين يعمل النوبيون لديهم.

وبكل التأييد وبقلوب فرحة مستبشرة ومؤمنة بمستقبل زاهر مشرق تقدم النوبيون بمذكرة مطالب إلى الرئيس اللواء أركان

حرب محمد نجيب رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ تضمنت ما يلى:

١ - التعويضات عن غمر بلاد النوبة بمياه التعلية الثانية لخزان أسوان سنة ١٩٣٣ لم تقم على أساس عادل سليم وسلبت ممتلكات النوبيين بثمن بخس وعوملوا معاملة شاذة بقانون استثنائى جائر هو القانون رقم ٦ لسنة ١٩٣٣ وطالبوا بإعادة النظر فيها.

٢ - خصصت مصلحة الأملاك الأميرية قيراطًا أو قيراطين لكل عائلة؛ مما يؤدى إلى تفتيت الملكية ويتعارض وما شرعته الثورة من تشريعات تحتفظ بمستوى خاص للملكيات الصغيرة.

٣ - إن وسيلة المواصلات الوحيدة التى تربط بلاد النوبة بالعالم باخرة واحدة للحكومة السودانية...... ويرى النوبيون ضرورة تمصير البواخر التى تسير فى بلاد النوبة وتنظيم قيام ثلاث بواخر على الأقل أسبوعيًا بدلاً من باخرة واحدة وكذلك تهذيب مجرى النيل.... والعمل على أن يسير الخط الحديدى المزمع إنشاؤه لوصل مصر بالسودان على الضفة الغربية للنيل حيث توجد أغلبية القرى النوبية مع العمل على تنفيذ طريق صحراوى للسيارات بالضفة الغربية.

٤ - بلاد النوبة فرض عليها حصار اقتصادى بوجود جمرك الشلال والحجر الزراعى بين مصر والسودان بعيدًا عن الحدود.

٥ - انحطاط المستوى الصحى بين النوبيين يتعين تزويد المستشفى ومكاتب الصحة بأطباء دائمين.

٦ - يطالب النوبيون بإعادة بناء عنابر طلبة مدرسة عنيبة الذين يتمتعون بالنظام الداخلى وإزالة المبانى الحالية المتداعية ومن الضرورى تنفيذ نظام وجبة الغذاء كاملاً لتلاميذ المدارس الأولية بلا استثناء مع تذويد كل منها بوحدة صحية.

محمد نجيب فى قرى النوبة

الشمندورة وقرى النوبة تعيش فى نشوة وفرحة وسرور يملأ الأمل والتفاؤل قلوب النوبيين إلى غد مشرق ومستقبل باسم متوقعين كل الخير من رجال الثورة؛ تلك الثورة التى أعلنت عن أهدافها ومبادئها التى قامت من أجلها ولاقت كل التأييد والمساندة من جموع الشعب المصرى؛ فالنوبيون جزء من هذا الشعب الذى كان يعانى من الفقر والمرض والجهل والفساد والظلم ومما أثلج وشرح صدر النوبيين زيارة السيد محمد نجيب رئيس الجمهورية لقرى النوبة فإنه فى زيارة لمواقع من قرى بلاد النوبة تشمل الدر وتوماس وعافية وعنيبة وفى طريق عودته يزور كلابشة.

واستعدت الشمندورة بين هذه القرى وشارك مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين وجمال باشرى وغيرهم من شباب النوبة المتعلمين وشارك الجميع فى الإعداد والتجهيز لاستقبال حافل للسيد الرئيس محمد نجيب فى كل موقع يزوره من تلك المواقع فالنوبة تتشرف بهذه الزيارة التى يسجلها التاريخ فى سطور من نور.

وكان دور هذه المجموعة من الشباب الواعى المتعلم تهيئة الجو المناسب للاستقبال والترحيب لمن حل بأرض النوبة أرض الحضارة والتراث واستعد الجميع رجالاً ونساءً وشبابًا وشيوخًا لهذا الحدث العظيم وحان موعد الزيارة والكل يترقب بشوق إلى هذا الضيف العزيز رمز الثورة المجيدة.

ويصل الرئيس محمد نجيب رئيس الجمهورية فى باخرة إلى الدر

فى سنة ١٩٥٣ وترسو الباخرة على الشاطئ وقد أعد المرسى خصيصًا على شاطئ النيل واصطفت جموع الجماهير من النوبيين على الجانبين للتحية والترحيب بكل الحفاوة ويرافق الرئيس محمد نجيب كوكبة من رجال الثورة والمسئولين المرافقين له ومنهم كبار المذيعين والمعلقين لتغطية الحدث إعلاميًّا، واستقبل السيد الرئيس محمد نجيب رئيس الجمهورية أحسن استقبال وقد أريقت الدماء تفاؤلاً وتكريمًا له ولمرافقيه الكرام بذبح ثورين أملحين ثمينين واصطف أعضاء مجلس الآباء لمدرسة الدر متوشحين بوشاح مميز مكتوب عليه عبارة (مجلس الآباء والمعلمين).

توجه السيد الرئيس محمد نجيب بين التصفيق والتهليل وهتافات الجماهير المحتشدة إلى مدرستى الدر بمرحلتيها وتفقد العمل داخل الفصول يداعب التلاميذ والطلاب النوبيين ويمسح على رءوسهم ويربت على أكتافهم يحثهم على تحصيل العلم والاجتهاد مما ترك أثرًا طيبًا فى نفوسهم.

وقد ارتدى البعض منهم تلك الملابس التى وزعتها مديرية الشئون الاجتماعية بأسوان معونة ومساعدة فقد وزعت قبيل الزيارة المرتقبة بمعرفة لجنة سبقت زيارة السيد الرئيس وكان من بين المرافقين مسئولون من وزارة الشئون الاجتماعية بمديرية أسوان ثم توجه السيد الرئيس من الدر إلى موقع آخر.

توجه إلى توماس وعافية لافتتاح مشروع استصلاح الأراضى للزراعة بتوماس وعافيا غربًا حتى ناحية قرية أبريم وكان السيد عمدة توماس وعافية على رأس الجماهير التى استقبلت السيد الرئيس ومرافقيه استقبالاً حارًا يعبرون عن كل الشكر والتقدير لرجال الثورة الذين أولوا المشروع كل العناية والاهتمام وقاموا بتنفيذ فكرة الاستصلاح للأراضى الواسعة غربًا لتعوض النوبيين الأراضى التى ابتلعها الفيضان والطوفان فى سنة ١٩٣٣.

فكان مشروع الاستصلاح فى توماس وعافية من بين مشروعات عديدة فى قرى النوبة، وكانت المحطة التالية هى زيارة قرية عنيبة مركز قرى النوبة التى بها الميناء والمرسى للبواخر النيلية (البوسطة والأكسبريس) وبها منشآت حكومية ويتوجه ركب الرئيس محمد نجيب إلى عنيبة يتفقد تلك المنشآت والقرية مركز قرى النوبة المترامية الأطراف.

واحتشدت الجماهير بشكل كبير تهتف بحياة السيد الرئيس محمد نجيب وكان من بين الهتافات: عاش محمد نجيب....... عاش محمد نجيب..... عاش محمد نجيب.

والتقت هذه الهتافات رجلاً مشهودًا له بحضور الذهن والبديهة مع الدعابة والفكاهة فرد من بين الجموع ووسط الزحام المكتظ قائلاً بصوت عالى:

عاشة لم تحضر معه..... لا عاشة ولا خديجة.

فضحك كل من كان حوله وسمع هذا التعليق الطريف على الهتاف الذى قرن فيه الرجل ولمح ولاحظ تلك العلاقة بين كلمة (عاش) تحية للسيد الرئيس يدعون له بحياة أطول وعمر مديد وبين كلمة (عائشة) التى ينطقها النوبيين دائمًا مخففة من الهمزة المكسورة ويقولون عاشه.

وتقدم ذلك الرجل الخفيف الظل ذو الدعابة والفكاهة واخترق الصفوف ليحيى السيد الرئيس ومرافقيه وألقى بشعر عامى عفوى أبياتًا من القلب إلى القلب يمدح ويثنى على رجال الثورة فى شخص السيد الرئيس محمد نجيب وقال فيما قال:

الخبر جابوه بالسلوك يا نجيب يا اللى رفت الملوك.

أى أن أنباء قيام الثورة وصل إلى النوبة عبر الأسلاك (سلوك) جمع سلك التلغراف يا محمد نجيب يا من طردت الملوك أى الأسرة المالكة التى كانت تحكم مصر قبل قيام ثورة يوليو فى ١٩٥٢.

وأبحـرت البـاخرة تحمـل السـيد الـرئيس وتلـك الكوكبـة مـن مرافقيـه وفـى المسـاء جـاء فـى نشـرة الأخبـار بالإذاعـة أنـه تم عقـد اجتمـاع فـى عـرض النيـل بـين عنيبـة وقريـة مصـمص اجتمـاع السـيد الـرئيس محمـد نجيـب مـع مرافقيـه مـن المسـئولين ورجـال الثـورة وتناقلت نشرات الأخبار هذا النبأ.

وفى طريق العودة كان اللقاء مع جماهير قرى المنطقة الشمالية فـى قريـة كلابشـة وتقـدم الجمـاهير للاسـتقبال والترحيـب عمـدة كلابشة وشاركت المدارس بتلاميذها ومعلميها بفرقها الرياضية والكشـفية واصـطفت الجمـاهير والمـدارس تحيـة للسـيد الـرئيس مـرددين الهتافـات المؤيـدة لثـورة يوليـو ويـرد علـيهم السـيد الـرئيس التحية ويلوح لهم بيديه من على الباخرة.

والتقطت الصور التذكارية لهذا الحدث العظيم وتحدث السيد الرئيس محمد نجيب إلى الجماهير المحتشدة بقلب مفتوح. وستظل النوبة تذكر تلك الزيارة التاريخية لقرى النوبة بوجه خاص وتحتفظ بـه فـى ذاكـرتهـا إلى الأبـد مقرونـة بكـل الشـكـر والتقـدير حيـث الطريق إلى النوبة طويل يتطلب من العامة القيام برحلتين الأولى برية بالقطار حتى الشلال بأسوان والثانية نيلية بالباخرة من الشلال إلى قـرى النوبـة شـرق وغـرب النيـل. ولـذا السـفر جوًا يخفـف مـن المشـقة والتعـب وقـد سـبق أن زار أعضـاء مـن مجلـس قيـادة الثـورة أسـوان وتفقدوا المدرسة الصناعية بها ولكـن اليوم يصـل رئيس الجمهورية متحملاً مشاق الرحلة الطويلة إلى بـلاد النوبـة ويـزور مختلف القـرى والمواقـع ويلتقـى مـع جمـاهير النـوبيين يخـاطبهم ويخاطبونـه، ولـذا كانت تلـك الزيـارة صـفحة ناصـعة فـى سـجل التـاريخ وناطقـة بكـل الحب والتقدير ومعبرة بالشكر والعرفان ومؤكدة العلاقة الطيبة والمودة والمحبة والتقدير بين ثورة يوليو المجيدة وجماهير النوبة...

اللبن المسكوب

تستقبل الشمندورة العائدين من القاهرة والإسكندرية بخفى حنين بجنيهات معدودة مكافأة نهاية الخدمة لمخدوميهم من علية القوم والأكابر بعد سقوط البشوات والبكوات مع سقوط الرأسمالية المستغلة والإقطاع بعد ثورة يوليو.

فها هو عبده ساسبان ترك الخدمة لدى كمال الدين حشمت باشا بعد سنوات عمره التى قضاها فى خدمته، فقد تجرد الباشا من الأراضى الزراعية والأطيان الواسعة ولم يتبق له غير ما سمح به قانون الاصلاح الزراعى وانقطعت الهبة والمنح والعطايا السخية عن عبده ساسبان وقد أوشك الباشا على الاستغناء عن خدماته فى ظل الظروف السياسية الجديدة ولكنه لم يصرح بذلك تصريحاً إلا أنه اكتفى بما يعطيه فى آخر الشهر من راتب هزيل نهاية كل شهر وظل فى خدمته فترة حتى وجد أنه لا يمكن أن يعيش فى مدينة القاهرة بهذا الراتب الضئيل ولذا اقتنع راضيًا بأن يحصل على تلك المكافأة ويعود إلى الشمندورة بتلك الجنيهات فى حوزته آملاً فى الحصول على مورد رزق فى الشمندورة زراعة قطعة أرض فى مرتفعات الشمندورة من بين مشروعات الاستصلاح التى تنفذها الحكومة.

وامتلأت الشمندورة وغيرها من القرى بهؤلاء العائدين إليها بهذه الحفنة من الجنيهات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع.

عثمان باشرى ومحى الدين ينتظران سيف الدين من بين العائدين فقد عرض عليه الخواجة اليكس أن يكتب له عقد بيع

لمحل أكسسوار السيارات التى يمتلكها فقد أحس أنه لا محالة راحل عن مصر قريبًا فأراد أن يكافئ سيف الدين بهذا المحل بدلاً من جنيهات المكافأه نقدًا ولكن سيف الدين يشده الحنين إلى الشمندورة بذكرياتها وبرباط المحبة والمودة وصلة الرحم بأهله أخوانه وعائلته وتناديه ترابها وأرضها الغالية فيلبى هذا النداء الداخلى فى نفسه المشتاقة إلى الشمندورة التى رحل عنها زمنًا؛ فيرفض سيف الدين العرض أن يمتلك محل الأكسسوار الذى قدره له الخواجة اليكس كما يقال (بتراب الفلوس) تقديرًا له لخدمته الطويلة فى أمانة وإخلاص ولكنه يصر على موقفه يرفض متعللاً بحجة أنه ليس له خبرة فى إدارة مثل هذه التجارة ولا شأن له بها وكل خبرته الخدمة فى بيوت الأكابر كما هو معروف عند النوبيين باصطلاح (الخدمة جوة وبرة) أى داخل المطبخ وخارجه ولما وجد منه الخواجة اليكس الإصرار على الرفض وتفضيله لتلك الجنيهات المعدودة ما كان منه إلا أن ينفذ له طلبه ويعطيه تلك الجنيهات البخسة نقدًا ليعود بها إلى الشمندورة ويرى سيف الدين أن تلك الجنيهات ربما تسد حاجته وحاجة إخوانه عثمان ومحى الدين باشرى ومحروس باشرى.

يعرض الخواجة اليكس الفيلا ومحل الإكسسوار وورشة الميكانيكا للبيع بأرخص الأسعار وانتهز الفرصة وفاز بها أحد أبناء القاهرة من ذوى النظرة البعيدة للمستقبل.

ويصل خليل أفندى إلى الإسكندرية لزيارة أهل الشمندورة والنوبيين بها وينزل على مرجان دهب ضيفًا ليصطحبه إلى القاهرة كما وعد من قبل ويصل إلى مرجان دهب فما هو بأحسن حالاً وتفكيرًا ولا بأفضل تصرفًا من عبده ساسبان وسيف الدين باشرى فلما التقى به وجده فى حيرة من أمره فقد توفيت مدام تريزا وتحولت ملكية المخبز إلى ابن شقيقها أوديب الذى حضر فى مرض

وفاتها ويعرض على مرجان دهب أن يحرر له عقد إيجار للفيلا بما تحويها من حجرات وبدروم وأثاث وفرش بالإضافة إلى توكيل بإدارة المخبز فقد وجد فيه الأمانة والإخلاص والمحافظة على الفيلا والممتلكات مع الكفاءة والخبرة ولكن مرجان دهب يرفض قائلا: لا حاجة لى بفيلا ذات حجرات بهذا العدد والاتساع وتكفينى الشقة التى أسكنها فى أسبورتنج وأننى أفكر فى العودة إلى الشمندورة فأخوانى وأخواتى فى حاجة إلى وجودى بجوارهم بعد تلك السنوات الطويلة التى عشتها بالاسكندرية بعيدًا عن الشمندورة عجبًا لهذه الشمندورة التى تشد كل من شرب شربة من ماء نيلها وسار فوق رمالها الصفراء الذهبية وأكل تمرًا أو رطبًا من نخيلها.

ويلح عليه أوديب ويغريه بإيجار زهيد للفيلا التى لا تزيد عن إيجار شقة أسبورتنج ولكن لا جدوى فى تلك الإغراءات فيعرض عليه أوديب بأن ينقل أثاث وفرش الفيلا إلى شقته لأنه سيعرض الفيلا للبيع وللمرة الثانية يرفض مرجان دهب ذلك العرض فلا حاجة له فيها ويضطر أوديب إلى تحرير عقد إيجار الفيلا لأحد أبناء الإسكندرية وأمام رفض مرجان دهب وإصراره على الرحيل إلى الشمندورة فرحًا بتلك الجنيهات وما زالت زوجته شربات تخالفه الرأى وتطلب منه أن يرضى بما يعرض عليه وأن يستمر بالإسكندرية فإن أولاده بشير وبشاير تعودوا على الحياة بالإسكندرية وقد يستفيدون مستقبلاً من ذلك العرض الذى يرفضه مرجان اليوم.

وتجد شربات الفرصة فى حضور خليل أفندى ليقدم النصح لمرجان دهب ويقنعه برأيها فيحاول معه خليل أفندى ولكن لا فائدة فقد أصر على العودة إلى مسقط رأسه والى جوار والديه وأخواته ورأت شربات أن هذه العروض فرصة لا تعوض استئجار فيلا بأثاث وفرش بثمن بخس وإدارة مخبز ذات شهرة وصيت فى موقع متميز

بالإسكندرية؛ لذا همست فى أذن أحد أقاربها لينتهز الفرصة سانحة، ويقتنع مرجان بجنيهات معدودة يصرف نصف قيمتها تقريبا هدايا واحتياجات لأخواته وأخوانه الذين تركهم منذ سنوات بالشمندورة ويسترضيهم بها بعد غربة سنوات طويلة..

مرجان دهب يقدم أولاده بشير وبشاير لخليل أفندى فيسلمان عليه ويصافحهم ويطبع على وجناتهم قبلات محبة ومودة وإعجاب إذ يتمتعان ببنية قوية وبسطة فى الجسم وبشرة بيضاء تميل إلى بشرة شربات وقد اكتسبا من مرجان دهب الشعر الأكرت القصير والأنف الأفطس والشفاة الغليظة فقدمهما والدهما مرجان دهب لخليل أفندى قائلاً لهما:

سلما على عمكما خليل أفندى مربى أجيال الشباب بالشمندورة وحينما تقدم الابن قال مرجان: هذا بشير بطل الملاكمة والحائز على بطولة الناشئين فى نادى سبورتنج الرياضى، ثم لما تقدمت بشاير قال: هذه بشاير بطلة السباحة على محافظة الإسكندرية فى بطولة الفتيات، فيعلق خليل أفندى بوجه مبتسم وفى إعجاب قائلاً:

بسم الله ما شاء الله وقد سرح بخياله فى بحر الماضى البعيد إلى تلاميذ مدرسة الشمندورة يؤدون تمرينات الصباح بأجسام هزيلة وينتظرون الفسحة ليتناولوا الوجبة المجانية أو الإفطار المعهود خمريد باللبن الحليب أو الرايب أو العسل الأسود أو البيض المسلوق أو ما إلى ذلك.

والتفت إلى مرجان دهب قائلاً: إذا استمر بشير وبشاير فى ممارسة الرياضة فسوف يكون لهما شأن كبير فى عالم الرياضة وبخاصة فإن بشير وبشاير لديهم استعداد نفسى وبدنى على مواصلة الطريق وهنا تتدخل مدام شربات قائلة: برافو عليك يا خليل أفندى ربنا يكمل لك عقلك (فقد جاء تعليق خليل أفندى مناسبًا وموافقًا لهوى شربات) أما أنت يا مرجان تخطئ ولم تنتهز الفرصة المتاحة أمامك للمرة الثانيه

فقد أخطأت يا مرجان حيث كان كل واحد ينهب ويسرق ويحمل ما يستطيع حمله من خير بلاده الذى حرم منه حينما نالت يد التخريب المحلات التجارية المختلفة فلم تجد أنت يا مرجان أمامك غير مستودع دقيق لتحمل منه جوالاً بينما حمل غيرك ما خف حمله وغلا ثمنه ومن سوء حظك أن يد العبث نالت هذا الجوال الذى تحمله بخرقه فظل الدقيق ينسكب منه تاركًا الأثر لسيرك حتى وصلت إلى البيت ولما هدأت الحال واستقرت الأوضاع استدلوا عليك من بين جموع البشر ودفعت يا مرجان الثمن غاليًا فألقى القبض عليك وقضيت أيامًا فى السجن بتهمة السلب والنهب والتخريب حتى أطلق سراحك. فابتسم خليل أفندى لما سمع وعلق قائلاً:

لم يحمل مرجان دهب غير ما هو فى حاجة إليه من طعام يسد رمقه ويشبع جوعه وربما كان هذا مما ساعد على الإفراج عنه ولم يقدم للمحاكمة.

وينزوى مرجان دهب بخليل أفندى جانبًا فى حوار بينهما ويسأل خليل أفندى عن أبناء الشمندورة بالإسكندرية يطمئن على أحوالهم ويخبره مرجان دهب برحيل البعض منهم إلى الشمندورة ومنهم من ما زال بالإسكندرية يعيش فى أحضانها وقد نجح البعض منهم ممن كانوا يخدمون فى قصر الملك أن يتوسلوا لدى القصر لمنحهم عقود ملكية لأرض زراعية فى أقاصى الصعيد، ومنهم من طمع فى مسكن يقيم فيه من المساكن المنتشرة أمام القصر والمخصصة لسكن خدم القصر والعاملين وفاز بها وقد كان تلبية رغبة هؤلاء لما أرادو جزاء لخدمتهم سنوات لدى القصر الملكى.

أما حسين ما شاء الله لم يطلب من جلالة الملك إلا أن يساعده فى الحصول على فرصة عمل ووظيفة حكومية فى إحدى محطات طلمبات رفع المياه فى النوبة فى مشروعات استصلاح الأراضى الزراعية بقريته بجوار أهله بعد سنوات غربة وبعد عن النوبة وشعر

خليل أفندى أنه قضى وقتا طويلا مع مرجان دهب بالإسكندرية فاستأذن للسفر إلى القاهرة فيصطحبه مرجان دهب إلى القاهرة.

يلتقى خليل أفندى وأش الله وعبده ساسبان وبقية الزملاء فيلومونه على سنوات هجرته ورحيله عن الشمندورة ولكنه يبرر ذلك لما انتابه من حالة نفسية ويؤكد لهم أن هذه القطيعة كانت فترة وانتهت وصفحة انطوت، وأنه لا يمكن له أن يستغنى عن أبناء النوبة والشمندورة ويتطرق الحديث معهم إلى تلك الفئة من الشباب الذين تعلموا على يديه فى مدرسة الشمندورة فيسأل عن أخوات أش الله وبشير محى الدين وغيرهم ويعرف أن البعض منهم أنهى التعليم الصناعى ورحل ليلتحق بوظيفة فى مدينة أسوان والبعض استكمل تعليمه حتى مرحلة التعليم المتاحة بعنيبة.

ويطلب الزملاء من خليل أفندى أن يتوجه إلى الشمندورة ولكنه يعتذر ويؤكد لهم ما وعدهم به سابقًا أنه سيزور الشمندورة مع الأكتوبريين ترافقه زوجته كاميليا وطلب منهم أن لا يتعجلوا فلكل أمر تدبير ولكل شئ أوان، وفى طنطا أمور لا بد أن ينتهى منها قبل السفر إلى الشمندورة ويقتنع الزملاء بما عرضه خليل أفندى من أعذار ويتفرقون على وعد بلقاء متواصل وعلى الاتصال بين القاهرة وطنطا.

حسب الله جاه الرسول فى السنوات الأخيرة بالقاهرة استطاع أن يجد فرصة عمل فى (رستوران) لأحد إليهود الأجانب بالقاهرة ولما كان مقربًا لصاحب المطعم أسر له بأنه سيغادر القاهرة إلى بلاده ويعرض المطعم للبيع ويود أن يفوز بقيمته ويرحل واستطاع حسب الله جاه الرسول أن يجمع ما لديه من نقود فى يده وباع سيارة كان يستخدمها فى انتقالاته لأنه ينتهى من العمل فى أوقات متأخرة من الليل ولبعد سكنه عن المطعم، كان صاحب المطعم قد ساعده فى الحصول عليها من أحد زملائه الأجانب واشتراها مستعملة ورغم

ذلك لم تصل حصيلة ما جمعه إلى المبلغ المطلوب ثمنًا لشراء المطعم، فقرر أن يبيع ما تتزين بها زوجته من ذهب وتدخره لوقت الحاجة فقد جمع الكثير وبقى القليل ففكر فى أن يشاركه فى شراء المطعم أحد أبناء النوبة فتوجه إلى مقهى الشروق بعابدين وعرض الأمر عليهم فهى فرصة ليمتلك بدلاً من أن يخدم لدى آخرين فكان يطمع فى أن يجد المساعدة والعون أو المشاركة والتأييد ولكن خاب ظنه وضاع أمله إذ رد عليه أحدهم قائلاً: اليوم سعد وهناء ومرح وبكرة يحلها ربنا.

فيقول حسب الله: بكرة مستقبل أولادنا نترك لهم ورث ينفعهم.

فيعلق آخر يا حسب الله ماذا ترك لك أبوك جاه الرسول؟!! ألم تشق طريقك فى القاهرة هل ترك لك سيارة تقودها فى شوارع القاهرة أم مطعم (رستوران) تملكه دع الأمور لله يتولاهم فإن كانوا صالحين سيبنوا لأنفسهم وإن كانوا غير ذلك فلم تترك لهم ما سيفقدوه ويشترك آخر فى الحوار ويعترض على رأى حسب الله ويقول ألم تسمع بالمثل القائل "احينى اليوم......" أخوتك بالشمندورة فى أشد الحاجة إلى ما معك من نقود.

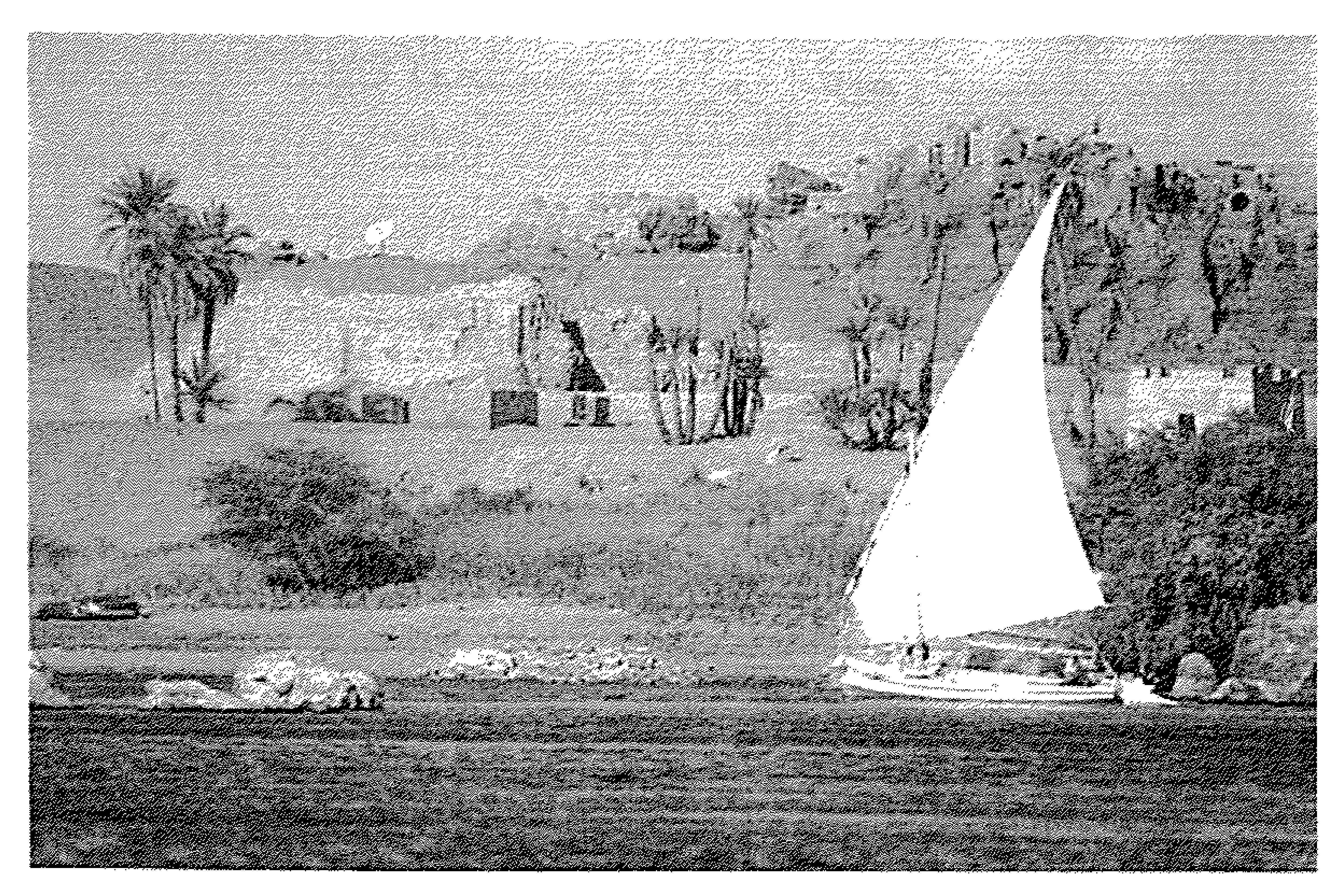
وبذلك قد أثنوا من عزيمته وأطاحوا بطموحه بل الأدهى من ذلك أنهم عرضوا عليه فكرة وقالوا له: هيا بنا إلى مكان آخر غير هذا المقهى الشعبى وإلى مكان آخر يليق بما فى جيبك من نقود واليوم نحن ضيوفك وقد أتى بك القدر الجميل إلى هنا فإن لنفسك عليك حقًا وإن لأهلك عليك حقًا ونحن أهلك وذويك هيا بنا...... هيا لقد تحول أكثرنا إلى عاطل (خالى شغل) بعد أن انتهت الرأسمالية والإقطاع.... هيا إلى مكان يفرج عنا هذه الهموم... هيا إلى..........

مضى الجميع إلى ما أرادوا وفى تلك الليلة قضى حسب الله على نسبة كبيرة من المبلغ الذى جمعه ودبره وحينما قام من نومه فى صباح اليوم التالى توجه إلى عمله بالمطعم وأعلن لليهودى صاحب

المطعم عن عدم رغبته فى شراء المطعم واضطر إليهودى بعد إلحاح إلى بيعه لأحد أبناء القاهرة من ذوى الطموح وعمل لديه حسب الله كما هو {شيف} ، فلم يستغنى عنه لخبرته الطويلة وكفاءته وطارت أحلام حسب الله فى ملكية المطعم.

وتعلن إحدى الشركات المسئولة عن تقسيمات أرض مبانى بالقاهرة عن بيع تقسيمات أراضى مبانى حيث كانت تتولى مسئولية التخطيط العمرانى وعرضت على كثير من أبناء النوبة بالقاهرة شراء مساحات مبانى بأسعار مغرية ولكن لم يرغب فى ذلك غير نفر قليل يعدون على أصابع اليد.

فالعودة إلى الشمندورة والشمندورة كان يشغل فكرهم ولا يفكر الغالبية فى الاستقرار بالقاهرة أو الإسكندرية فكانت هذه المدن بالنسبه لهم مصدر رزق وليست موطن استقرار دائم. وبعد أيام تحرك حسب الله جاه الرسول إلى الموسكى ليشترى بما تبقى له من نقود أقمشة وروائح وحلى من الصاغة وهدايا ليعود بها مع العائدين لأهله وذويه.



ورجع إلى قومه.......

دائرة قرى النوبة الانتخابية هى الدائرة الرابعة فى مديرية أسوان وينظر إليها نظرة خاصة لأن هذا المركز هو الموطن الأصلى للنوبيين وتشتمل على سبع عشرة دائرة فرعية وهى بالترتيب من الشمال إلى الجنوب: دهميت – الأمبركاب - خور رحمة (أبو هور وكلابشة) - قرشة (قرشة ومرواو وماريا) – كشتمنة (كشتمنة وجرف حسين والدكة) – قورتة – السيالة (السيالة والعلاقى والمحرقة والمضيق) - المالكى (المالكى والسبوع والريقة) - السنقارى (السنقارى ووادى العرب وشاترمة وكروسكو) - الدر والديوان – توماس وعافية - تنقالة (تنقالة وأبو حنضل) - إبريم (إبريم وقتة) - توشكى شرق (توشكى شرق والجنينة والشباك) -عنيبة (مصمص وجزيرة إبريم وتوشكى غرب) - أبوسمبل (أدندان وقسطل وبلانة).

وترك مسألة الانتخابات فى الدائرة تلعب بها الأغراض الشخصية والأهواء، ويتقدم للنيابة عنها من لا يليقون لها ، جريمة لا تغتفر، ولهذا لا بد من تضافر الجهود وتوحيد الكلمة لاختيار الأصلح الذى يعلم قضاياهم ومطالبهم ويسعى لتحقيقها مخلصًا أما فى القاهرة والإسكندرية. فالحرية متروكة لكل نوبى أن يقيد اسمه فى الدائرة التى تقع بها سكنه وإقامته وله أن يناصر مرشح الحزب الذى يناصره ويؤيده حتى يكون للنوبيين مكانة أدبية ومنزلة لدى جميع الأحزاب.

بكرى باشرى وعبده كندنونة اعتمدا كل منهما على نفسه واجتهدا واضعان نصب أعينهما الهدف المنشود وهو الحصول على ليسانس الحقوق والحصول على مؤهل جامعى وتحملا الكثير للتوفيق بين العمل والدراسة، وقد تم القبض عليهما أكثر من مرة وأفرج عنهما حتى أنهما اعتادا على تلك الرحلة إلى وراء القطبان وفى كل مرة تهمة أو شبهة الانتماء إلى جماعة غير مرغوب فيها، وحام حولهما الشك والارتياب كما انضم إليهما عبد العزيز أمين ويوسف مبروك فى مرات كثيرة ولاقوا الكثير فى غياهب السجن وأطلق سراحهم فاستطاعت تلك الثلة أن تحتل المقدمة فى قائمة الناجحين وتخرج عبده كندنونة وبكرى فى نفس السنة لا أسباب القبض والإفراج فقد لحق أحدهما الآخر.

فقد تخرج بكرى فى نفس السنة التى تخرج فيها عبده كندنونة. ويأمل الزملاء فى الإفراج عن حامد خليل ومكى مراد أما رضوان جمعة فقد أفرج عنه حيث خفضت مدة الحكم فاستطاع أن يخرج من وراء القطبان.

بكرى باشرى وعبده كندنونة اتجها إلى العمل الحر بالمحاماه رغبة فى رفع الظلم عن المظلومين ورد الحقوق ونصرة المظلوم باعتبار ذلك مهمة إنسانية يستحقان عليها الأجر فى الدنيا والآخرة.

وتصل الأخبار إلى القاهرة بالترشيح للانتخابات البرلمانية ورشح عن الدائرة الرابعة بمديرية أسوان وهى دائرة قرى النوبة أحد المهندسين العاملين بشركة صناعية فى أسوان معتمداً على تلك الفئة التى عينت فى الشركة من مختلف قرى النوبة ظاناً أن هؤلاء العاملين لن يبخلوا عليه بأصواتهم الكثيرة؛ لأنهم يعملون تحت إدارته واعتقد أنهم سيفضلون اختياره عن المرشح النوبى من النوبيين الذين يعيشون فى أسوان.

ولما سمع الزملاء بهذا الخبر أشار عليهم بكرى وعبده كندنونة بضرورة سفرهم إلى النوبة فوافق الجميع وكان سفرهم إلى النوبة لمساندة وتأييد مرشح النوبة والتقوا بالسيد سليمان عجيب النائب الوفدى السابق والقيادات الشعبية وطبقة المعلمين والمثقفين والعمد والمشايخ بقرى النوبة رافعين شعار {إنه لا يغيب الوجه الأسمر عن البرلمان} وعقد فى هذه الآونة مؤتمر بمركز عنيبة لتأييد المرشح النوبى، وقادت تلك الفئة المستنيرة حملة الدعاية الانتخابية، وبعد المؤتمر والاتفاق على كلمة واحدة وعلى تأييد واختيار المرشح النوبى توجهوا فى مسيرة بحرًا فى قطعة بحرية ترسو بهم فى كل قرية من قرى النوبة شرق وغرب النيل وفى كل قرية يستقبلوا بكل الترحاب وكرست كل الجهود لتأييد المرشح النوبى.

ومن أبرز قادة حملة الدعايا الانتخابية السيد سليمان عجيب البرلمانى السابق الذى حصل على ليسانس الحقوق بعد أن كان معلمًا تخرج من مدرسة المعلمين سليمان عجيب النائب السابق يتمتع بشعبية ساحقة وشخصية متميزة، ومن الهتافات المعروفة التى هتفت له بها الجماهير فى ترشيحه للبرلمان (إنسان يقول سليمان عجيب..... زرزور يقول سليمان عجيب) أى أن كل إنسان بل كل طائر فى النوبة يهتف ويؤيد سليمان عجيب..

ودارت الانتخابات ووضعت الصناديق وحشدت الجهود وتضافر النوبيون بفضل تلك الفئة المستنيرة التى نشرت الوعى الكامل وألهبت المشاعر وأثارت حفيظة النوبيين فى كل الدائرة وأنحاء قرى النوبة حتى لا يغيب الوجه الأسمر النوبى عن البرلمان، وانصاعت الجماهير لتلك الدعاية الانتخابية وتحقق المراد. وفرزت الأصوات ورصدت النتيجة فكانت ثمرة تلك الجهود والحماس أن فاز المرشح النوبى الذى يريده النوبيون واحتشدوا له، فاز فوزًا ساحقًا وكاسحًا بعدد أصوات وفارق كبير جدًّا؛ ففرح النوبيون بهذا

النصر وبهذه النتيجة السعيدة، وأراد السيد سليمان عجيب أن يتهكم من ذلك المرشح الذى رشح نفسه على كرسى قرى النوبة مصدقًا ومغرورًا معتمدًا على منصبه فى تلك الشركة الصناعية. فأرسل إليه برقية فور ظهور النتيجة مباشرةً جاء فيها:

{ورجع إلى قومه غضبان أسفًا} فقد عاد إلى من أوعزوا إليه وأغروه وخدع نفسه بما ليس بحقيقة وهو الترشيح فى الانتخابات البرلمانية وعاد إليهم غاضبًا من النتيجة التى أعلنت آسفًا نادمًا على ترشيحه فى الانتخابات البرلمانية لدائرة قرى النوبة وكان له ولغيره درسًا أى درس.........!!

نزيل الأيك الساهر

عـاد بكـرى إلى القـاهرة وأراد أن يلتقـى برضـوان جمعـة فقـد أعجب بوطنيته وشجاعته وصلابته فى الحق ووقوفه بجانب الحرية وتمسكه بالمبدأ الذى يعتقد فيه ويؤمن به فقد روى لبكرى أنه حوكم وأدخل السجن حيث كان جنديًا فى سلاح المشاه من بين القوات التى كانت مرابطة فى ميدان الأزبكية فى عهد الملك ورفض إطلاق النار على من يهتفون للحرية والدستور، وكان بمقدوره أن ينجوا من المحاكمة تمامًا إذا وافق على ما طلب منه إعلان بالولاء والطاعة، وظل بكرى باشرى يبحث عن رضوان جمعة عندما علم بإطلاق سراحه ولكنه علم أن البوليس يبحث عنه بعد إطلاق سراحه بفترة فما زال البحث عنه واشتد عليه الطلب باعتباره عضوًا نشطًا وما زالت اتصالاته وعلاقاته بتلك الجماعة غير المرغوب فيها ما زالت مستمرة وبأمر من السلطات المختصة تواصل البحث والتحرى عنه وتأكدت المعلومات بأنه نزيل فندق الأيك الساهر الذى يتردد عليه مرارًا، وتوجه فريق البحث عنه إلى الفندق وشوهد يقف فى صالة استقبال الفندق يسلم أو يستلم مفتاح الحجرة فأسرعوا إليه يحيطون به للقبض عليه ولم يعبأ بهم كثيرًا وبخاصة قد عرفهم وعرف بغيتهم ولكنه يخشى على والدته المسكينة بالشمندورة التى تنتظر البوسطة من يوم لآخر تتوقع قدومه إليها ومر بذهنه ما حدث فى مرة سابقة من المرات التى ألقى عليه القبض فيها وقدم إلى النيابة التى طالبت فيها بالحكم عليه بالإعدام، وعند المحاكمة لم يؤخذ بطلب النيابة وخفف الحكم إلى السجن سنوات وحمل الخبر أحد المتوجهين إلى

الشمندورة إلى والدته عندما سألته عن ابنها رضوان جمعة قال لها معزيًا ومواسيًا: البركة فيك لقد حكم عليه بالإعدام فقد أخبرها بطلب النيابة ولم يعرف أن المحكمة خففت الحكم إلى السجن فتأثرت والدة رضوان جمعة لهذا الخبر المشئوم، وتعبت عيناها وضعف بصرها وتدهورت صحتها من سوء إلى أسوأ وقضى سنوات العقوبة فى السجن وأفرج عنه بعد سنوات فمر هذا الشريط بذهن رضوان جمعة وذاكرته فامتثل للبوليس بكل هدوء وخرج معهم حيث يريدون به وفى الطريق طلب منهم مهلة بحجة كاذبة ولكنها مقنعة ليلتقى بزميل له من أحد العناصر القيادية لانتماءاته وأخبره بأنه ألقى القبض عليه وأنه فى طريقه لتسليمه لجهات الاختصاص الأمنية لترحيله فشد على يديه وزوده بمبلغ ليساعده فى أزمته وترحيله وشكره وودعه إلى لقاء واستأنف طريقه إلى الجهات المختصة وتأمر بترحيله ويميل رضوان جمعة وهو فى طريقه بمرافقة حرس البوليس إلى وسط القاهرة ليشترى احتياجاته من طعام وشراب زادًا له فى رحلته وطلب أن يستقل قطار النوم هو والشرطى المرافق له بتذاكر على حسابه الخاص واستقل القطار إلى وجهته.

ولما وصل القطار إلى محطة الوصول لم يتعجل بالنزول حتى استقر القطار ثم نزل بعيدًا عن الشرطة التى تنتظر المرحلين وبكل ثبات وصل إلى مقر السجن وطالب بحقه فى أن يعامل كمسجون سياسى مختلفًا عن معاملة المجرمين وأنه من حقه أن لا يدخل السجن فى حالته الراهنة، فلم تستكمل أعمال الإنارة والإضاءة وتم بالفعل توصيل التيار الكهربى وعمل اللازم نحو استكمال الإنارة والإضاءة وأودع السجن.

وقد لاقى رضوان جمعة كثيرًا من العناء فى سبيل الاعتزاز بنفسه والإيمان بمبادئ ومعتقدات رسخت فى عقله فالنفس الأبية كلفته الثمن غاليًا، ظل بكرى يسأل عن رضوان جمعة ويبحث عنه ولكنه لم يفز بلقائه.

عبد الناصر فى أبو سمبل

يعود أبناء النوبة من القاهرة والإسكندرية بعد الثورة ورحيل الأجانب والقضاء على الرأسمالية والإقطاع عادوا بما يسمى بمكافأة نهاية الخدمة جنيهات معدودة تكفيهم عن الحاجة والاحتياج بالكاد ليستقروا فى بلاد النوبة مع ذويهم بعد اغتراب وفراق للأهل ولكن القدر لهم بالمرصاد. فقد بدأ القلق يساور أهل النوبة مرة أخرى، فقد لاحت بكل التأكيد فكرة بناء السد العالى لحل مشكلة الزيادة المطردة فى عدد السكان ولضمان المياه لمواجهة احتياجات الرى وللتوسع الزراعى وتعميم الرى المستديم ووقاية مصر من فيضانات عالية أو نقص فى المياه وتأمين الملاحة على مدار السنة. وبدأ التساؤل وشغلت المخاوف الأذهان؛ الكبير والصغير يتحدث عن السد العالى، وها هى نعمة سيف الدين تسأل والدها هل بناء السد العالى يجلب الطوفان على بلادنا الشمندورة والنوبة ويجيب سيف الدين على سؤالها بنعم ولذا تكون الهجرة وتسأل نعمة مندهشة لهذه الهجرة وتسأل: لم الهجرة؟..... وإلى أين؟... وكيف؟... ومتى؟! أما نبرة والدة بكرى تسأل عثمان باشرى: لم الهجرة عن الشمندورة والتخلى عن مسقط الرأس وقرة العين؟!.

وتسمع محروسة باشرى بالهجرة عن الشمندورة قبل الطوفان فتصرخ منزعجة هل نترك قبور آبائنا وأجدادنا يغرقها الطوفان..... ونخيلنا الذى غرسته بيدى والآن أجنى رطبه وتمره فى شيخوختى لمن أتركه؟!!.. ألمياه النيل أم للغرق والطوفان، ويعلق محى الدين باشرى على تساؤلات محروسة قائلاً: قدرنا الرحيل والترحال.... إلى

متى أيها النيل..... لم هذا التعقب لآثارنا!.

والحاج صالحين يتساءل: لماذا يقام السد العالى؟!..... لتغرق الشمندورة؟!..... من يا ترى صاحب القرار لإغراق النوبة العريقة؟؟!!..

أما شيخ الناحية الشيخ عبد الله فقد أرسل فى طلب بطاريات جافة لتشغيل الراديو (الترانزستور) فقد ازدحم أهل الشمندورة على المصطبة أمام داره ينتظرون كالعادة عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل فالتفوا حول الراديو وهناك آخرون يلتفون حول المذياع فى بيوت ومنازل الأكتوبريين أو العائدين من القاهرة والإسكندرية يحملون مذياعًا صغيرًا فى حجم كف اليد ولكنه يصدح بصوت نقى مرتفع؛ فالكل فى الشمندورة يترقب بآذان صاغية الموعد المحدد وارتفع صوت (عم حمدان) من إذاعة إسرائيل مستهلاً حديثه اليومى قائلاً: يا ولد مصر الطيبين............

عم حمدان مصرى الجنسية استغلته إسرائيل تبث من إذاعتها حديث له مدته خمس دقائق يوميًا موجهًا للشعب المصرى فى كل مكان كسلاح من أسلحة الحرب النفسية الموجهة ضد مصر ويؤلب الرأى العام للنوبيين بوجه خاص ضد عبد الناصر ورجال الثورة البيضاء ويوحى إليهم بل يصرح تصريحاً أن عبد الناصر سيقضى على النوبة والنوبيين ويتسبب فى أن يغرقوا وتغرق بلادهم بسبب بناء السد العالى حيث سيجرى الطوفان على أراضيهم ومساكنهم وآثارهم ويحذر النوبيين قائلاً وكأنه ينصحهم: عليكم أيها النوبيون أن تنقذوا أنفسكم وترحلوا إلى السودان والنجاة بأرواحكم من الفيضان والطوفان الذى سيأتى على كل شئ على النسل والحرث والضرع، تنبهوا أيها النوبيون إلى الخطر الذى يحيط بكم وإلى ما أريد بكم من ضرر وسوء.

فتسمع الجموع هذه التصريحات من الأكاذيب والأباطيل وترتفع أصواتهم فى قوه وحماس قائلين: خائن... خائن... يا حمدان...

خائن... خائن يا كذاب عبد الناصر..... إحنا معاك.... عبد الناصر روحنا فداك؛ فيسمع الصبية ما يردده الآباء فيهتفون هم أيضًا بكل حماس وصوت مرتفع: ناصر...ناصر... كلنا بنحبك ناصر.... ناصر... كلنا بنحبك......... ناصر ياحبيب الكل يا ناصر ناصر يا حبيب الكل يا ناصر.

وتصل الأخبار من القاهرة وأسوان بالإفراج عن رضوان جمعة وعبد العزيز أمين ويوسف مبروك وبكرى وعبده كندنونة وغيرهم من شباب النوبة وعمت الفرحة الشمندورة والقرى النوبية التى ينتمى إليها هؤلاء بصلة قرابة، وتناقلت الألسنة حديث الهجرة واختلفت الآراء فى أرض الهجرة والموطن الجديد هل ستكون إلى شمال السد أم إلى جنوب السد وانتابت البعض المخاوف من آثار الطوفان، فكثيرًا ما عانوا من أهوالها، ففى كل موقع أو تجمع لا حديث إلا عن الهجرة والسد والطوفان.

شكرى حسنين ومصطفى أبا يزيد يحلمون بأحلام وردية حالمة فى الهجرة إلى شمال السد ويملأهما أمل وتفاؤل بمستقبل باسم مشرق فى شمال السد.

اما طمايا سيدى جدة شكرى حسنين لأمه تبكى على فسائل النخيل التى غرستها بيديها وأينعت وأثمرت بأطيب الثمر أشجار النخيل والليمون التى سيكون مصيرها المحتوم الغرق والضياع، وهجلة والدة جمال باشرى حزينة على عش الزوجية البيت الصغير الذى أعد حديثًا لزفاف جمال باشرى. وسعدية الشيخ عبد الله وزهرة سعيد اللتان تعلمتا فى أسوان يمنون الأمانى الأمهات والجدات والفتيات بالأمانى العذبة بكل تفاؤل وأمل بحياة أسعد، النوبة الجديدة شمال السد فى بلاد تعمها الكهرباء ومساكن طيبة فى كوم أمبو وهكذا اختلفت آراء وأفكار الكهولة والشباب والرجال والفتيان وتبأينت وجهات نظر الأجيال من الماضى والحاضر والمستقبل

وعم الأمل أحيانًا وحل اليأس أحيانًا أخرى.

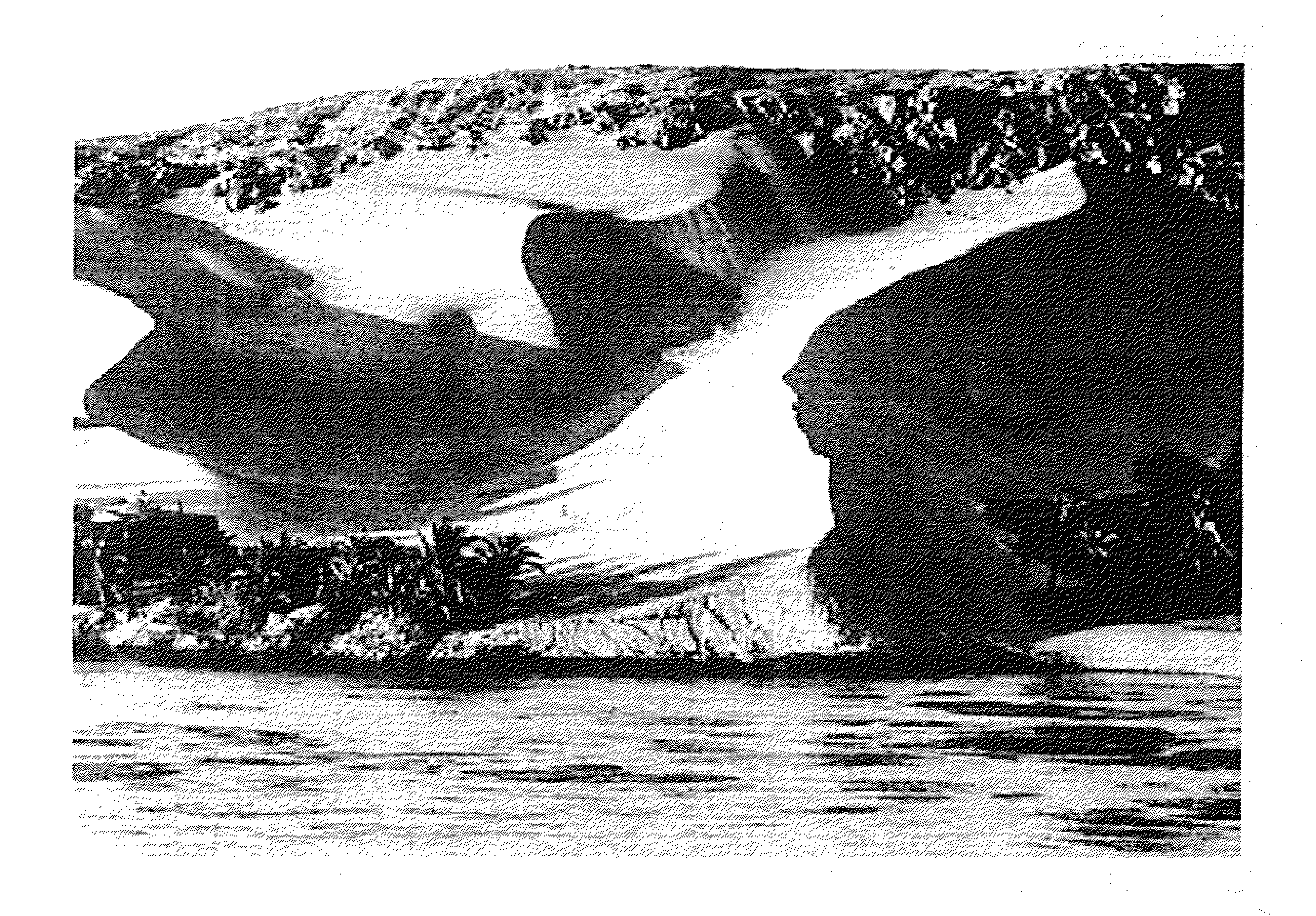
فهذه أراضى زراعية وغير زراعية ونخيل وأشجار مثمرة بأطيب الثمر ستكون فى أعماق النيل بعد قليل، وتلك مساكن ومنشآت ستغطيها مياه الطوفان وآثار من معابد ومقابر وقلاع وحصون، مشاهد أثرية ستكون فى جوف وعمق بحيرة واسعة فلا طموح ولا خير ولا أمل فيما يملكون.

الحكومة جادة فى خطواتها لبناء السد العالى ومفاوضات مع الشرق والغرب انتهت إلى تعاون الشرق فى تمويل مشروع السد العالى، وتحركت منظمة اليونيسكو للتضامن فى المحافظة على آثار النوبة وبخاصة معبدى أبو سمبل باعتبار آثار النوبة تراثًا دوليًّا، وبدأت الحملة العالمية فى الثامن من مارس سنة ١٩٦٠ لإنقاذ آثار النوبة وكان النداء التالى من منظمة اليونيسكو للعالم أجمع:

"إن تراثًا حضاريًّا من أنفس ما صنعه يد الإنسان على وجه البسيطة يوشك أن يختفى....... وليس من السهل تحديد الاختيار بين المحافظة على هذا التراث وبين رفاهية الشعب فى ظل إحدى حضارات الإنسان الكبرى كما أنه ليس من السهل الاختيار بين المعابد والمحصولات الزراعية........ وإن هذه الآثار ليست ملك لبلد واحد...... وإنما هى ملك العالم كله إذ هى تراث مشترك..... هى كنوز عالمية يجب أن نحميها وأن حمايتها فى حاجة إلى جهود عالمية".

ومما هو جدير بالذكر أن أشهر المعابد المنحوتة فى الجبل معبد أبو سمبل ونقل إلى أعلى الجبل باستعمال طريقة النشر لأجزاء المعبد بالمناشير الكهربائية وترقيمها ثم إعادة تركيبها طبقًا للمشروع الذى قدمه المثال المصرى ابن أسوان والنوبة الفنان "أحمد محمد عثمان" من أبناء قرية إبريم وأقرته هيئة اليونيسكو فى عام ١٩٦٣، وفضلته على جميع المشروعات المقدمة من مختلف دول العالم.

ويصل إلى أسوان السيد الرئيس جمال عبد الناصر والسادة الرؤساء خروشوف وتيتو ومحمد الخامس ليعطى أشارة البدء فى مشروع السد العالى وتكون الشرارة الأولى والتفجير فى احتفال ومشهد عظيم، ويعلن الرئيس جمال عبد الناصر زيارته للنوبة والتوجه إلى قرية أبو سمبل النوبية التى بها أعظم آثار الفراعنة، المعبد الكبير معبد رمسيس الثانى والمعبد الصغير معبد زوجته نفرتارى النوبية.



الاسنبيان

يرتفع بناء السد العالى ويزداد منسوب المياه واتخذ القرار بتهجير النوبيين فبحيرة السد العالى وطوفان النيل سيبتلع قرى النوبة شرق وغرب النيل، تلك البلاد والقرى التى مكث النوبيون بها وعاشوا فى ربوعها أجيالاً متتابعة ومتعاقبة.

ونجد أن هناك من يأمل فى موطن يحقق الأمن والأمان من الفيضان والغرق بمياه الطوفان، وهناك من يتمسك بتلك الأرض التى شهدت عصورًا وأزمنةً طويلةً عريقة من تاريخ النوبيين، والغالبية قد تهيأت نفسيًا للرحيل عن مدى ومنسوب الطوفان ذلك الشبح المخيف المرعب الذى داهم النوبة أكثر من مرة وأضر بالنسل والزرع والضرع فيما عدا أولئك الشيوخ والكهول الذين تمسكوا بالأرض والتراب الذى امتزج بعرقهم ودمائهم وبدأت اليونيسكوا حملتها بالنداء لإنقاذ آثار النوبة واستجاب العالم لنداء اليونيسكو لإنقاذ آثار النوبة؛ ذلك التراث الإنسانى وما السبيل لإنقاذ الإنسان صاحب تلك الحضارة واحفاد الفراعنة فاختلفت الآراء وتشعبت الميول والأهواء فى اختيار الموطن البديل ويعيد التاريخ نفسه وتتدخل النوايا والأهواء مرة أخرى كما سبق الاختلاف فى سنة ١٩٣٣ حول صرف قيمة التعويضات البخسة الهزيلة ونادت أصوات قيادية فى النوبة بعدم الصرف ومقاطعة تلك اللجان، وكان الاختلاف فى النزوح بعيدًا عن منسوب المياه غربًا إلى الجبال والمرتفعات، ورأى البعض الهجرة والرحيل إلى مناطق فى شمال سد أسوان وقنا.

واليوم يعيد التاريخ نفسه عندما تقررت هجرة النوبيين عن موطنهم

الأصلى وقراهم على ضفاف النيل شرقًا وغربًا لبناء السد العالى وتكوين البحيرة لتبتلع تلك القرى، فكان الاختلاف فى الرأى وعقد مؤتمر موسع يضم ممثلين لكل قرى النوبة من قيادات طبيعية وتنفيذية شعبية وفئة المعلمين والمثقفين والمتعلمين وأصحاب الرأى والحل والعقد، وتوافدت الجموع إلى مؤتمر عنيبة كل يحمل فى رأسه حجته ويحشد لرأيه الذى يراه صحيحًا وصوابًا واجتمع الكل من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكان بينهم مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين وجمال باشرى وعبده كندنونة وغيرهم من الذين يحملون لقب أفندى ومن أبرز المتحدثين فى المؤتمر كان أحد القياديين من الذين كانوا على صلة وثيقة واتصال مباشر بالزعيم جمال عبد الناصر، ومختلف الشخصيات من القيادات السياسية العليا، كما كانت له صداقة وعلاقة طيبة مع الضباط الأحرار وكان يتمتع بعضوية فى التشكيلات الشعبية بعد الثورة (عضوًا فى هيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى على مختلف مستوياته وعضوا بالأمانة العامة كما كان عضوًا فى لجنة المئة المركزية على مستوى الجمهورية) ومن خلال تمرسه بتلك التشكيلات الشعبية إلى جانب الفطرة كان يمتلك موهبة فذة فى الخطابة وصاحب فصاحة وبيان فخطب فى هذا الجمع الغفير والحشد الكبير فى المؤتمر ونادى ناصحًا ومحذرًا بعدم الهجرة إلى الشمال وعدم ترك الوطن أرض الآباء والأجداد أرض التراث الخالد والحضارة، تلك الأرض التى ارتبطوا بها وعاشوا فوقها أجيالاً نادى بأن تكون الهجرة فى منطقة النوبة جنوب السد بعيدًا عن مستوى مياه الطوفان وبحيرة السد العلى إلى تلك الأراضى الواسعة غرب النيل وهى تسع لكل قرى النوبة جنوب السد وليس شمال السد متمسكين بالأرض وفى المنطقة ذاتها بعيدًا عن مدى بحيرة السد العالى.

وقد طرح رأيه فى المؤتمر ناظرًا بعين البصيرة والحاسة السادسة

إلى المستقبل البعيد للنوبيين فى هجرة بعيدة عن أرض النوبة العريقة أرض التراث المجيد. وكان الاستفتاء على استمارات وزعت لإبداء الرأى فى الهجرة إلى جنوب السد المنطقة الموازية لقرى النوبة أو إلى شمال السد العالى وادى كوم أمبو. ومن المبررات لرأى البقاء جنوب السد بعيدًا عن مستوى ماء الطوفان والبحيرة وجود مساحات واسعة مترامية الأطراف على مرمى البصر لا حد لها وكافية.

وانتهى الرأى إلى الهجرة إلى شمال السد إلى وادى كوم أمبو ولم يجد الرأى الآخر صدى أو آذان صاغية أو عقول واعية، فقد ملأ الأمل والتفاؤل قلوب النوبيين بغد أفضل وارتفعت الأصوات عالية بخدمات أفضل وأوفر فى شمال السد عن الجنوب بكهرباء وصنابير مياه نقية بديلاً عن مصابيح الكيروسين والكوبية النحاسية من ماء النيل وبيوت ومساكن أفضل على الطراز الحديث، والقرب من المدنية والاتصال بالعالم بدلاً من الحصار فى أقصى الجنوب لا يربطهم بشمال السد غير باخرة تمر بين حلفا والشلال (البوسطة والأكسبريس) وقد سيطر اليأس على قلوبهم وتسلل الملل إلى نفوسهم من تكرار الهروب من شبح الغرق والطوفان إلى المرتفعات مرارًا وتكرارًا ويتعقبهم طوفان النيل يبتلع ما يشيدونه. ولعل هذه الأسباب من الإغراء والأمانى والتفاؤل والأمل والهروب من تكرار المحاولة إلى حل جذرى يعيد إليهم الأمان والطمأنينة والاستقرار والاستمرار.

كانت هذه هى نظرة الغالبية وتبريراتهم التى يحكم عليها الزمن ومرور الأيام وتجيب عليها السنين تثبت أو تنفى أو تحكم بصوابها أو خطئها فكانت الهجرة إلى وادى كوم أمبو.

البقاء فى منطقة النوبة دون الهجرة إلى كوم أمبو كان من أصعب ما يمكن فى ظل إمكانات الثورة المحدودة التى كان لزامًا عليها أن تجمع بين بناء السد (الإرادة الوطنية وتحدى للقوى

العالمية) فكان من الصعب الجمع بين بناء السد العالى وإقامة مجتمع جديد مماثل للنوبة القديمة وكان ذلك اشبه بالمستحيل بل من المستحيل.

عبده كندنونة يرى عدم الهجرة إلى وادى كوم أمبو شمال السد بل الهجرة إلى المرتفعات غربًا جنوب السد العالى بعيدًا عن المنسوب المتوقع لبحيرة السد العالى، وبذلك يختلف فى الرأى عن مصطفى أبا يزيد وشكرى حسنين اللذين يحدوهما الأمل بغدٍ مشرق فى شمال السد؛ ولذا ينشد بأبيات يثير فيها الحنين إلى النوبة:

أرضى...... بلادى......... نوبتى

فيها قضيت عمرى......... قبر أمى.......... جدتى

فيها رنت قهقهاتى........ ملأت صداها حلتى

فيها أحلامى....... آمالى....... ومهد طفولتى

مرتعى...... بيتى..... نخيلى...... قريتى

أما بكرى باشرى يؤكد أن النوبيين أبناء وادى النيل الذين عرفوا دائمًا بالتضحية من أجل الحياة وبالعطاء اللانهائى للوطن الأكبر مصر العظيمة نضحى بأرضنا بممتلكاتنا من بيوت ونخيل وتراث.... قبور آبائنا وآجدادنا....... وقلوبنا مليئة بإحساس رائع بالأمل.... الأمل فى إعادة الحياة إلى كل بقاع مصرنا الحبيبة كأجمل ما تكون الحياة.........وعن ذكريات الماضى شوقًا أنشد:

لاحت على الأفق البعيد ذكريات تشدنى

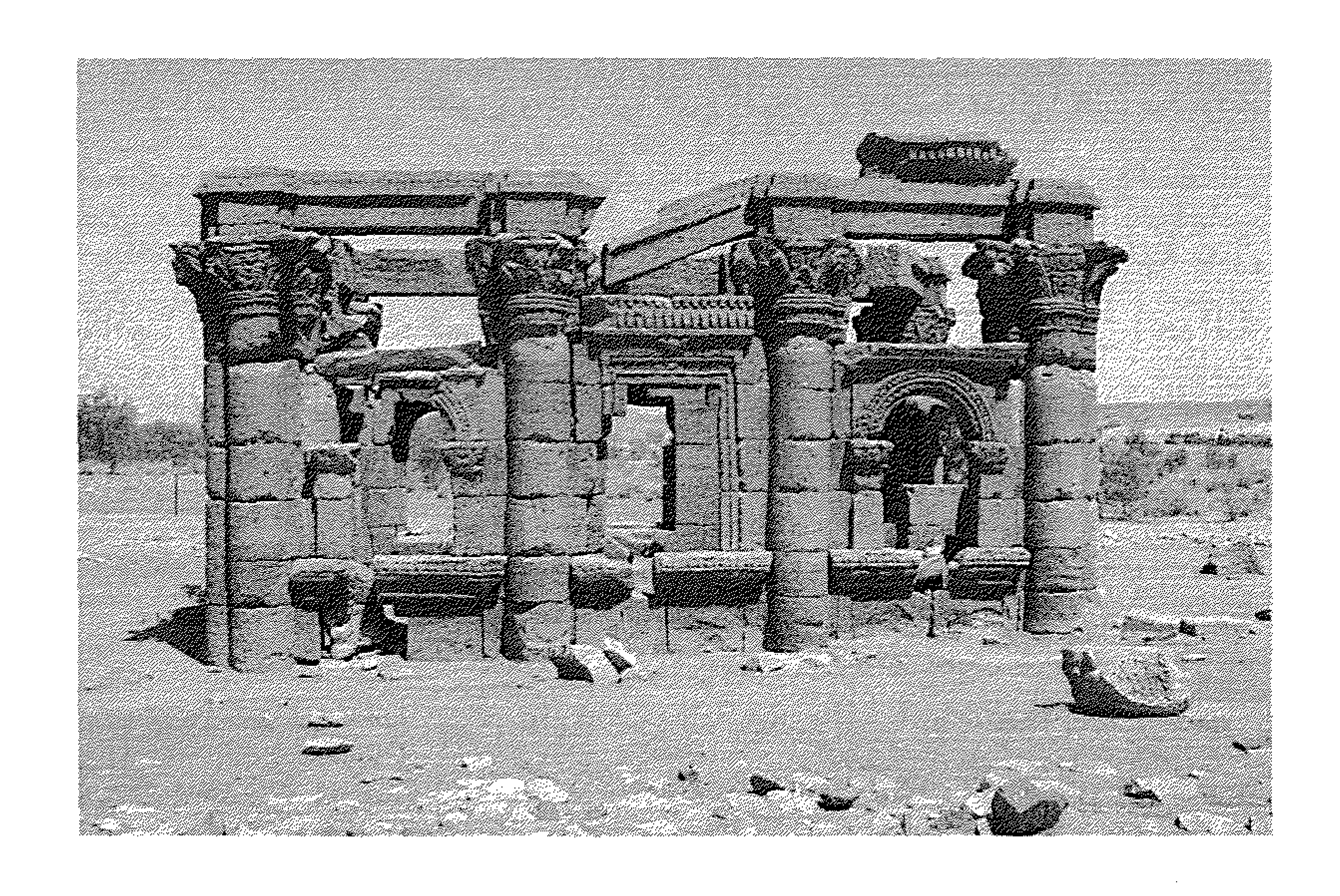
سرب الكوارتى[1] يحوم حولى بالنواح يواسينى

وتجاويت أمواج تزأر فى الفضاء برجفة تهزنى

بكرى بعيدًا عن النوبة قالبًا، ولكنه قريب إليها بقلبه فلم ولن

(1) "الكوارتى كلمة نوبية معناها الطير المهاجر".

ينسى النوبة رغم البعد والمسافة وهول الأحداث المتتالية، النوبة فى ذاكرته وقلبه وعقله تتراءى له الذكريات أينما حل تؤانسه ويؤرقه مستقبلها، فلا يهدأ له بال ولا يغمض له جفن إلا وهو يفكر فى الشمندورة والنوبة بوجه عام يتذكر ماضيها ويرى حاضرها ويفكر فى مستقبلها.



جولة فى ماضى الزمان

يغـادر أش الله سـيف الـدين القـاهرة إلى الشـمندورة ومنهـا إلى أبو سمبل ليكون بجانب خالته زليخة (وينطقها النوبيون سليهه) التى توفى عنها زوجها وترك فى رعايتها ثلاث من البنات صغارًا فأحسنت تربيتهم حتى تزوجت كل منهن واستقرت فى بيتها وتعيش زليخة فى غاية السعادة فقد رأت أحفادها من بناتها تداعبهن وتدللهن.

آثر أش الله أن يكون بجانبها فى الهجرة ومساعدتها فى تحزيم أمتعتها والقيام بكل ما تتطلبه أمور الهجرة من نقل وانتقال ومرافقتها فى الهجرة إلى كوم أمبو حتى يكون عوضًا لها عن أبنائها البنين حيث لم ترزق بمولود ذكر ويعلم تمامًا أن أخواله كل منهن مثقل بهموم تكفيه من كثرة العيال والمتاع فأبرق إليهم بحضورة إلى أبو سمبل قبيل الهجرة بوقت كافى.

وعندما وصل إلى الشمندورة والتقى بأترابه زملاء الطفولة والصبا شكرى حسنين ومصطفى أبا يزيد كما التقى ببكرى وجمال باشرى وأخبرهم بما عزم عليه من الذهاب إلى أبو سمبل التى تقرر موعد هجرتها ورحيلها إلى كوم أمبو قبل الشمندورة طبقًا للبرنامج الزمنى للهجرة الكبرى لرغبته فى أن يكون بجانب خالته زليخة العجوز الطاعنة فى السن فعرضوا عليه مرافقته إلى أبو سمبل كما يقول المثل "لضرب عصفورين بحجر واحد" لمرافقة أش الله ولمشاهدة معبدى أبو سمبل والآثار التى ستغرقها مياه البحيرة والطوفان قريبًا، وربما كانت الأحاديث التى سمعوها من أش الله مرارًا فى ليالى

السهر والسمر كانت لها الأثر الكبير فى ميلاد تلك الرغبة، كما أنهم يريدون أن يجاملوا أش الله ويساعدوه فى مهمته ويزوروا أبو سمبل والقرى التى حولها فى رحلتهم بالباخرة للمرة الأخيرة وكأنهم يودعون تلك القرى التى سترحل إلى كوم أمبو.

وتم الاتفاق وتحدد يوم السفر ليتمكنوا من العودة والهجرة مع ذويهم بالشمندورة ورحب أش الله بالفكرة وشكرهم جزيل الشكر على حسن المجاملة وبخاصة لأنه كانت له اهتمامات خاصة منذ الصغر بالآثار بوجه عام وبالنوبية بوجه خاص.

وفى رحلتهم إلى أبو سمبل مرت تلك الصحبة من الفتيان أش الله وزملاؤه بجبانات يرجع تاريخها إلى الدولة الوسطى حتى العصور الرومانية تقع بالقرب من عنيبة على ثلثى الطريق بين أسوان ووادى حلفا وفى منتصف الطريق استوقفهم معبد عمدا بنقوشه البارزة وألوانه الجذابة وقد نقشت فى رقة وذوق عالٍ ولونت بإحكام ودقة بالغة، ويحكى أش الله لمرافقيه عن هذا المعبد أنه استخدم ليكون كنيسة فغطيت النقوش بطبقة من الجص، ويسأله الزملاء عن تاريخ هذا المعبد فيخبرهم أش الله أنه قرأ عنه فى أحد كتب التاريخ أنه يرجع إلى عصر النهضة المصرية فى عهد أمنحتب الثانى ومما يذكر أن الجص احتفظ بالألوان والنقوش المصرية تحته. وعلى بعد فى منطقة إبريم تلك الصخرة التى تبلغ ارتفاعها ثلاثين قدمًا، غرف محفورة فى الصخر وللوصول إليها درجات تشبه درجات السلم.

وفى أثناء الجولات والصولات يتحسر أش الله على تلك الآثار الإنسانية القيمة التى عبثت بها الأيدى فى مهارة ودهاء وبخاصة تلك المدافن التى تنخر كما ينخر السوس حبة القمح، وتدل الظواهر على أن اللصوص قد يستاءون حينما لا يجدون سوى عظام وأوعية قديمة فيحطمون الأوعية فوق الصخور المجاورة ويقاطعه أحد

الزملاء أش الله يسأله عن السبب الذى يدفع اللصوص إلى محاولة نهب مئات من هذه المقابر رغم أنه ليس هناك ذهب أو كنوز، فأجاب أش الله أنه سمع من والده سيف الدين باشرى أنه فى الأيام الخوالى أيام البواخر والذهبيات النيلية حينما كان الأغنياء يملكون الثروة الهائلة والفقراء يئنون من العوز والاحتياج كانت هناك أسواق حاضرة للأوانى والخرز والخواتم التى يعثرون عليها فى المقابر والمدافن، وقد تباع بأثمان بخسة زهيدة فيجمعها التجار لكى يبيعونها فى الأقصر، وكانت هذه وسيلة يسيرة للحصول على المال بالنسبة للسكان المحليين حتى لو باعوا الأشياء بثمن بخس وقد كانت تفد إلى النوبة عصابات من غرب الأقصر بدون علم السلطات ولم تقنع بسلب مدافن طيبة بالأقصر فيعودون من النوبة بالأوانى والخرز والتمائم.

وعندما اقترح كل من شكرى حسنين وجمال باشرى زيارة وادى السبوع الشهير بطريقه الطويل الذى تصطف على جانبيه تماثيل أبى الهول التى اشتق منها اسم وادى السبوع وتبعد عن نهر النيل غربًا بحوالى ٥٠٠ ياردة فلم يوافقهما أش الله على ذلك لأن وادى السبوع يبعد عن مسارهم وخط السير، حيث مكان (وادى السبوع) على بعد ٩٤ ميلاً جنوب أسوان ولأنهم متوجهون إلى معبدى أبو سمبل، وتعتبر النقوش الموجودة بوادى السبوع تكرارًا لما وضعه رمسيس الثانى غالبًا فى معابده مع إضافة قائمة بأسماء أبنائه وتضم ١٧٠ ابنًا منهم ١١١ كانوا من الذكور وفضل أش الله التوجه إلى توشكى لزيارة المقبرة التى تم اكتشافها فى موسم ١٩٦٠/١٩٦١ بمعرفة فريق من علماء "بنسلفانيا" بالولايات المتحدة الأمريكية وعثر بها على بعض التماثيل الصغيرة التى تشبه المومياء وتضم جانبًا من النقوش ويوجد أيضًا فى توشكى مقابر من عصور تاريخية مختلفة حفر معظمها وبها مقابر لم تحفر مثل مقبرة {ولد النجومى} أحد زعماء الدراويش

الذى مات فى سنة ١٨٨٩ أثناء قيامه على رأس جيش لغزو مصر وعلى مقربة من توشكى هذه هزم الجيش الانجليزى المصرى بقيادة الجينرال {جرنفل} جموع الدراويش.

واندهش كل من شكرى حسنين ومصطفى أبا يزيد لهذه الآثار النوبية وعلق أش الله على هذا الاندهاش وقرأ عليهما من كتاب كان فى يده مقولة {لفير كوتر} آخر مديرى الآثار الأجانب: "إن الجزء من النوبة الواقع فى السودان والذى سوف تغمره المياه غنى للغاية ببقاياه الأثرية فهو لا يحتوى على المعابد والقلاع والكنائس فحسب، بل يحتوى كذلك على مدن مدفونة ونقوش على الصخر وكل هذه الأشياء فى انتظار أعمال الحفر وقد تغطى البحيرة على الأقل ٦٠ أثرًا وموقعًا تاريخيًّا من الآثار والمواقع السودانية وما زالت هناك آثار باقية فى بلاد النوبة المصرية تحتاج إلى إنجاز أعمال هامة من حفر وتسجيل وإنقاذ، والحقيقة أن المعابد الموجودة فى بلاد النوبة المصرية والسودانية لا يمكن تجزئتها من الناحية الأثرية والتاريخية".

ويتساءل مصطفى أبا يزيد ويقول لقد انتشرت المسيحية وعمت أنحاء النوبة فى سنة ٣٧٩ تقريبًا عندما صدر مرسوم (تيودوسيوس) الذى يقضى بأن تصبح مصر والنوبة ضمن البلاد المسيحية. ويرد أش الله قائلاً: نعم هذا صحيح ولكن التمسك بالآلهة الوثنية ظل حتى منتصف القرن السادس الميلادى، حيث لم تندثر الوثنية فى الحال وجاء التغيير عن طريق الإغراء التبشيرى.

ويوضح مصطفى أبا يزيد ما شغل باله قائلاً: إننى لا أتساءل عن ذلك ولكن اندهش لعدم وجود كنائس أثرية فى بلاد النوبة مع هذا الانتشار الواسع للمسيحية. فيتنهد أش الله ويأخذ نفسًا عميقًا ليشرح السبب؛ ويقول: لا عجب إذا عرف السبب فهذه الكنائس كانت من الطوب اللبن فلم تبق على مر الأزمان والسنين بقاء تلك المعابد والآثار من الحجر أو نحتًا فى الصخر، أما النقوش

والزخارف التى غطت جدران المعابد كانت من الجص وسرعان ما نزعت وبقيت النقوش المحفورة محتفظة برسومها وألوانها الزاهية تحكى قصص التاريخ فى العصور المختلفة ولقد اقترينا من معبدى أبو سمبل وستشاهدون ما يبهركم من النقوش والزخارف بألوانها الزاهية وجمالها الرائع ورسومها الدقيقة.

وعندما اقترب أش الله وزملاؤه من الهدف الرئيسى لتلك الرحلة والصحبة وهى زيارة معبدى أبو سمبل قبل أن ينقل من مكانه لإنقاذه من الغرق الذى يهدده وقد نالهم التعب والعناء من طول الرحلة فأخذ أش الله يقلب صفحات الكتاب الذى فى يده ليهون عليهم فقرأ عليهم قول (شامبليون) سنة ١٨٢٩ "إن معبد أبو سمبل العظيم وحده يستحق عناء الرحلة إلى بلاد النوبة " وهذا القول لشامبليون يبرر تكلفة ٦٠ مليون من الدولارات لإنقاذ معبدى أبو سمبل.

أما عن اكتشافه فقرأ أش الله أن مكتشفه هو (بركهارت) سنة ١٨١٣ ووصف رأس رمسيس الثانى الضخم وكان هو كل ما استطاع رؤيته فى ذلك الوقت إذ كان بقية التمثال متمورًا فى الرمال وقال عنه (بركهارت) يصفه "أنه لأعظم وجه شاب معبر وهو أقرب إلى نموذج الجمال الإغريقى منه إلى أى تمثال مصرى قديم وقع عليه بصرى" إنها شهادة حق.

وأول ما لفت نظر تلك الصحبة من الزملاء أش الله ورفاقه التماثيل الأربعة للملك رمسيس الذى ألّه نفسه محفورة من الصخر الصلد على واجهة المعبد العظيم أما فى المعبد الصغير الذى بنى للملكة نفرتارى فقد راعهم تمثالا الملك والملكة حيث يبدوان وكأنهما يخطوان صاعدين إلى الجبل، أما بداخل المعبد توجد قاعات كبرى رسمت على جدرانها مناظر ذات أهمية عظيمة وقيمة فنية كبيرة.

ولاحظ بكرى القوى الملاحظة فى تلك التماثيل الأربعة ملاحظة جديرة بالذكر فقد لاحظ أن رءوس الملك فيها نسخ طبق الأصل

لبعضها البعض دون أن يبلغ مقدار الاختلاف أكثر من جزء من البوصة ولكن بقية كل تمثال قد نحت على مدى عريض فالسيقان قائمة فى صلابة والصدور والأجسام ضخمة ممتلئة وأصابع اليد والقدم فى كتلة واحدة يا له من جمال رائع وصنعة متقنة ودقة بالغة.

ثم تقدم الزملاء فى اعتزاز وفخر يملأ نفوسهم تقدموا خلف هذه التماثيل إلى القاعة الكبيرة التى يبلغ ارتفاعها ٣٠ قدمًا وهى منحوتة فى الجبل إلى عمق ٢٠٠ قدم، بحيث ترسل الشمس فى منتصف فبراير شعاعها إلى طرفها الأقصى، ومن ثم يخترق المعبد ويتسلط على المقصورة (قدس الأقداس) عند أقدام الآلهة مثل النار المنبعثة من السماء ويمثل هذا الشعاع (رع) إله الشمس وهو ينفذ إلى الداخل.

وتنقل الزملاء يتأملون باندهاش شديد تلك النقوش البارزة على جدران المعبد التى تصور معركة قادش الكبرى ويعلق أش الله على هذه النقوش قائلا: إن العلماء يعتبرون هذه المعركة وتلك النقوش لأول معركة فى التاريخ يمكن بواسطتها متابعة التوزيع الاستراتيجى للجيوش المحاربة.

ويشاهد رمسيس الثانى وقد أحاطت به جيوش الأعداء من كل جانب وقطعت سبل الاتصال بينه وبين جيوشه ثم يلقى القبض على الجواسيس ويعذبون حتى يكشفوا عن مكان العدو ويبدو رمسيس الثانى واقفًا بمفرده ثم تصل الإمدادات ويتم النصر فى النهاية وهى لوحة ضخمة تمثل معركة حامية الوطيس ويبلغ طولها ٥٧ قدمًا وارتفاعها يبلغ ٢٥,٥ قدمًا وبها حوالى ١١٠٠ شخص وهى تشمل على التفاصيل كلها بما فيها حصار قادش على نهر الأورنط (العاصى فى سوريا)، وفى هذه اللوحة استوقف الزملاء منظر الموتى والذين على وشك الموت وخيول بلا فرسان وأهل القرى الذين يتوارون خلف مواشيهم يحتمون بها وتعطى هذه النقوش صورة واضحة عن حياة

الجيش فى مصر القديمة، فنجد الرجال يطعمون الخيول والسائسين يضعون العتاد والمهمات عليها ويحملون الماء فى دلاء متصلة بعضها ببعض.

وينادى جمال باشرى زملاءه ليروا من بين النقوش أحد الضباط الجرحى يجلس ورأسه بين يديه بينما يحاول خادمه التسرية عنه، كما يظهر فى النقوش جراح يضمد قدم ضابط آخر، أما الجنود العاديون فيجلسون القرفصاء وهم يتناولون الطعام من صحفة أمامهم فقد وقف الزملاء كثيرًا أمام هذه النقوش يتأملون.

ويقترب الزملاء من أحد العاملين فى عملية إنقاذ معبدى أبو سمبل ليحدثهم عن مشروع الإنقاذ لهذا الأثر العظيم فيخبرهم أن المعبد الكبير يزن ٢٥٠ ألف طن وسيتم رفع هذه الأطنان إلى علو وارتفاع ٢٠٠ قدم فوق أساسه الحالى دون الإخلال بحالة توازنه إنه لعمل عظيم وإنجاز رائع. وبعد هذه الجولة التاريخية بين العصور المختلفة من التاريخ المجيد والمعابد والتماثيل والنقوش والزخارف توجه الجميع إلى قرى أبو سمبل فى ضيافة العجوز زليخة خالة أش الله سيف الدين.

قدمت العجوز زليخة واجب الضيافة لضيوفها الكرام أش الله وزملائه قدمت أطباق الفيشار والبلح ثم الشاى باللبن الحليب مع المخبوزات النوبية {أصابع القراقيش} وقامت الخالة زليخة إلى الرحاية التى كانت تديرها وتوقفت لاستقبال أش الله وزملائه فاستأذنت لتواصل الطحن بالرحاية وجلست أمام الرحاية تقبض على العصا (المقبض) وتدير الرحاية فتميل بجذعها إلى الأمام باسطة ذراعها القابض على المقبض ثم تعود راجعة بجذعها إلى الخلف وتثنى ذراعها المبسوطة لتعود إلى حيث كانت ثم تميل بجزعها إلى الامام لتدور الرحاية دورة كاملة وهكذا............ وفى أثناء دوران الرحاية تتغنى زليخة لتبعد الملل والتعب عنها، مما

كانت تتغنى به:

جوجو جوجيه صليهة جوجيه ووا جاو جوجا جوجيه

تيجا هنالوج فكبرونا جوجيه ووا جاو جوجا جوجيه

هيرن جاو نجا جوجا جوجيه ووا جاو جوجا جوجيه

فريجكرجون جوجا جوجيه ووا جاو جوجا جوجيه

نور تكر جون جوجا جوجيه ووا جاو جوجا جوجيه

كرمديدتم فجا دروجوجيه ووا جاو جوجا جوجيه

وتعنى هذه الكلمات بالعربية: أيتها الرحاية الخاصة لصليحة (زليخة) اطحنى..... وتدعو بأن يؤكل هذا الطحين بكل هناء وسرور.... وأن يكون الطحين طحين خير.. وتطلب من الرحاية أن تدش القمح وتحوله إلى فريك بلدى كما تدعوه أن يطحن دقيقاً ناعمًا......... وكذلك تذكر أنه من وظائف الرحاية واستخداماتها أنها تدش حبات الحلبة التى يصنع منها عصيدة الحلبة (العصيدة الخضراء) وهى تصنع حبوب الحلبة ومن أوراق الحلبة الخضراء وفى كلا الحالتين لونها أخضر.

وتناول الزملاء ذلك أثناء حوار شيق مع تلك العجوز التى فرحت فرحًا شديدًا وسرت بقدومهم، وعندما تطرق الحديث عن الهجرة الكبرى إلى كوم أمبو شمال السد العالى فقد انقبض أساريرها وتحشرج صوتها وغلبها البكاء واغرورقت عيناها وتكلمت بكلمات تعبر عن الحسرة والألم وتساءلت وسألت سيلاً من الأسئلة المتتالية دون أن تنتظر الإجابة من أش الله وزملائه على كل سؤال:

إلى أين الرحيل؟!!..... ولماذا الرحيل؟!!...... وإلى متى التنقل والترحال من الشرق إلى الغرب ومن جوار النيل إلى قمم الجبال والمرتفعات غربًا؟!!...

أنهاجر عن أرضنا..... إن الأرض مثل العرض يا أولادى........ لا هوان ولا هوادة ولا تفريط فيها!!!! فيرد أش الله: مهلاً.......... مهلاً......... يا خالة سنرحل إلى كوم أمبو شمال السد لأن بناء السد العالى سينتج عنه بحيرة كبيرة للمياه المختزنة والمتكونة التى ستبتلع كل قرى النوبة شرق وغرب النيل فلا بد من الهجرة.

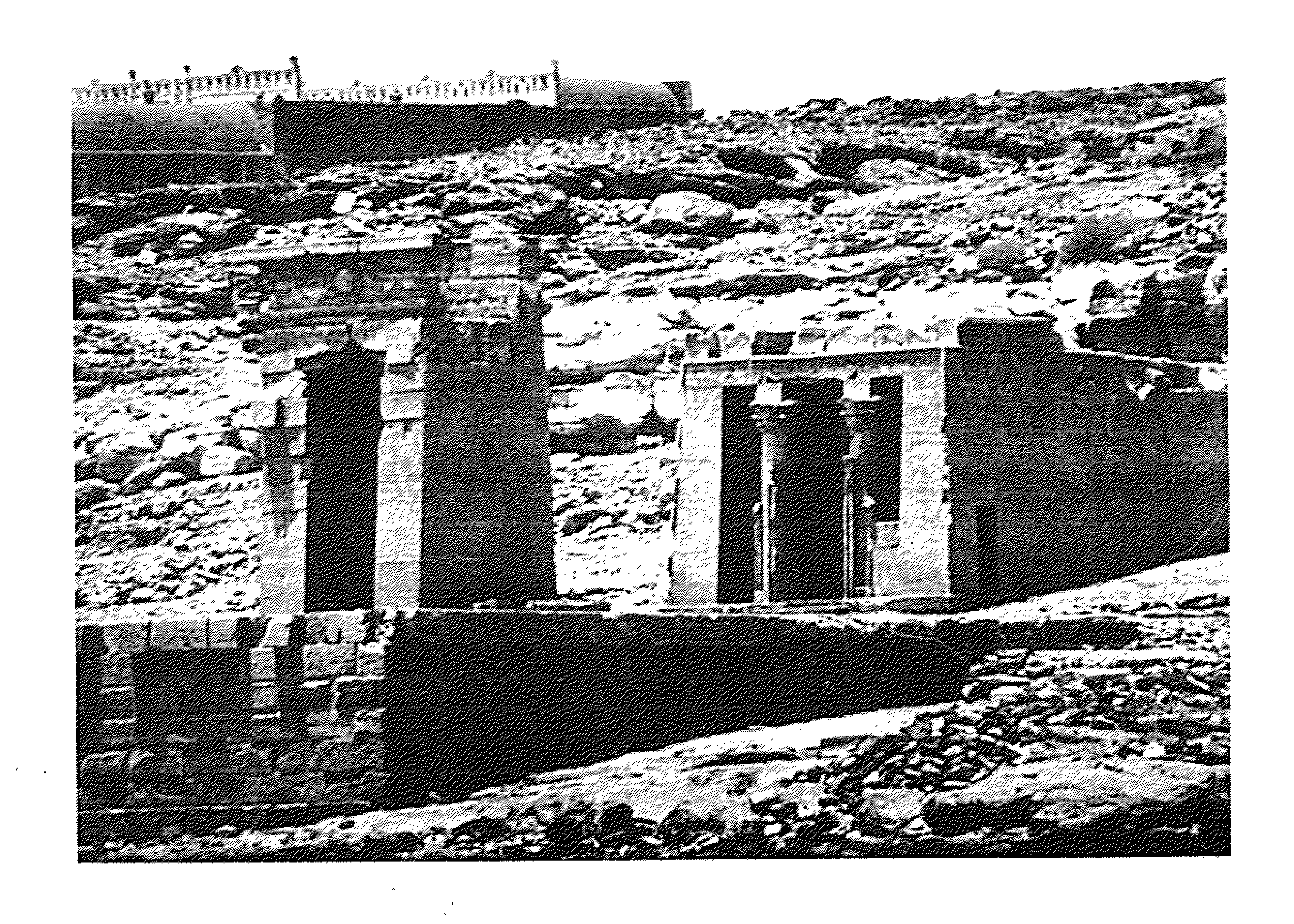
ويستدرك جمال باشرى قائلاً: بدلاً من التنقل والترحال مرارًا وتكرارًا مرة إلى غرب النيل وأخرى إلى قمم الجبال والمرتفعات وقد تصل إليها مياه البحيرة فالهجرة إلى مكان آمن بعيدًا عن الطوفان إلى وادى كوم أمبو.

ويعلق مصطفى أبا يزيد قائلاً: نهاجر ونضحى بأرضنا وممتلكاتنا من أجل مصر بلدنا الأم حتى يعم الخير خير السد العالى: من كهرباء وأرض زراعية وثروة سمكية على جميع المصريين ونحن النوبيين جزء لا يتجزأ من الوطن الكبير مصر.

ويهدىء شكرى حسنين من روع العجوز زليخة قائلاً: ليست الهجرة بشئ جديد، لقد هاجر النبى ﷺ من مسقط رأسه مكة وهى أحب البلاد إليه. وتسمع العجوز كل ذلك وتوجه كلامها إلى أش الله قائلة: لقد طلب منى أخوالك أن أسمح لشباب القرية أن يخلعوا الأبواب والشبابيك وتحزموا الأمتعة وأن يستخلصوا عروق الخشب من الأسقف ليصنع منه نجار القرية صندوقًا أجمع فيه المتاع والحاجيات كما فعلوهم وبقية أهل القرية ولكنى رفضت بشدة ومنعتهم، ويسأل أش الله عن سبب المنع والرفض وتنزعج العجوز قائلة هل أخرب بيتى بيدى؟!! كم تكلفت رغم الحاجة لعمار هذا البيت رحم الله زوجى كم تعب وتحمل واستدان لبناء وتعمير هذا البيت؟!! فيقول أش الله: لا بد من ذلك يا خالة..... فهل تمكثين فى القرية مع ذئاب الضوارى بعد رحيل أهل القرية؟!! وترد العجوز قائلة: سأظل مع قبور آبائى وأجدادى.

فأرسل أش الله إلى واحد من أخواله ولعله الأكبر سنًا ليستضيف خالته لأيام حتى ينتهى من تحزيم الأمتعة واستخلاص تلك العروق واخلعوا الأبواب والشبابيك فقد قربت ساعة الرحيل وأوشكت الهجرة. فأرسل الخال إلى العجوز زليخة يطلبها إليه لسبب أو لآخر وأخلى البيت ليقوم أش الله بالمهمة التى جاء من أجلها ويساعده زملاؤه فى ذلك لينتهى فى أقرب وقت وانضم إليهم نفر من شباب الحى وأقبلوا على العمل بهمة ونشاط.

ولما انتهى الزملاء من مهمتهم بمساعدة شباب الحى استأذنوا أش الله ليعودوا إلى الشمندورة ويلحقوا بذويهم ويقوموا بمهمة التحزيم وخلع الأبواب والشبابيك هناك فودعهم أش الله إلى لقاء على خير وشكرهم جزيل الشكر متمنيًا لهم كل توفيق.



الحصر والتعداد

أعلن فى جميع الهيئات النوبية بالقاهرة والإسكندرية ومدن القناه أن لجان الحصر والتعداد للأفراد والأسر والممتلكات ستصل قريبًا إلى قرى النوبة لتباشر عملها وتوجه جموع النوبيين من تلك المدن إلى قرى النوبة لتسجل مقيم بدلاً من مغترب.

حضر إلى النوبة دون سابق إنذار أو خبر كامل جلق (لقب بهذا اللقب وتعنى بالنوبية الذئب لأن الحى الذى يسكنه كان يقلقه ذئب فى كل مساء ترصد له كامل وتعقب خطواته وطارده بكل شجاعة وإقدام مع مجموعة من زملائه ولحق به وانهال عليه ضربًا بعصا غليظة فأرداه قتيلاً وخلص الحى كله من ويلاته وتهديداته) حضر كامل جلق وصابر شندى وفاروق كديس وسر الختم أبو كمام كما وصل أمثالهم إلى بقية القرى النوبية أولئك الذين هجروا النوبة ورحلوا عنها سنوات طويلة وعاشوا فى أحضان الشقراوات ذوات العيون الزرقاء وجذبتهم أضواء تلك المدن بعيدًا عن الشمندورة وغيرها من القرى النوبية.

فهذا كامل جلق أصيب فى حادث انفجار موقد بوتوجاز حيث كان يعمل طباخًا لدى إحدى الأسر الارستقراطية أدى ذلك إلى فقده قوة البصر وتحول إلى شبه كفيف لا يرى إلا على بعد خطوات قليلة ولم يجد معه العلاج واستقرت حالته فتركته زوجته الشقراء واحتضنت أولادها الصغار نرمين ونيفين ونادر فى بيت والدها واستطاع كامل جلق أن يصل إلى الشمندورة مع القادمين بمساعدة أهل المروءة فعاد نادمًا ومتحسرًا على سنوات عمره التى قضاها مع تلك الشقراء التى

أمسكت بتلابيبه فتيًا وأطاحت به ضعيفًا كفيفًا ليعيش بين أهله وذويه بالشمندورة بعد سنوات وسنوات الغربة.

أما صابر شندى فقد تزوج من شقراء أيضًا كانت تخدم معه فى بيت من بيوت أكابر القوم وسحرته بجمالها وجسمها الغض البض والعيون الزرقاء فتزوج منها ونجحت فى أن تنتزع منه مكافأة نهاية الخدمة، تلك الجنيهات المعدودة ورفضت السفر معه إلى الشمندورة التى تعتبر عندها من بلاد الواق واق أو السندباد وعندما دب النزاع بينهما وكان من سوء حظه أنه لم ينجب منها ذرِّية فحبسته بجمالها ودلالها وذكاء المرأة فعندما دب الشيب فى رأسه وأصبح {خالى شغل} وانهكت قواه، فلما كان النزاع بينهما طردته من منزل الزوجية ليعود إلى أهله بالشمندورة لا مال ولا صحة ولا ولد له.

أما فاروق كديس {تعنى بالنوبية القط فقد كان توءمًا ومن اعتقاد النوبيين أن التوءم تحوم روحه بعد أن ينام فى شكل قطة ويتحول إلى قطة ذات أفعال وأحداث يحكى عنه عندما يستيقظ وكان هذا من بقايا الاعتقاد بتناسخ الأرواح} أما فاروق كديس فقد كان شابًا لاهيًا عابثًا لا يعبأ بالحياة يعيش ليومه يكسب دهب كما يقال من عمله منذ صباه فى ورشة ميكانيكا كهرباء السيارات لدى أحد الأثرياء وكل ما يكسبه يفنيه فى اللذة المحرمة من شرب خمر وتعاطى مسكرات، وقضى حياته كلها بين اللهو والعبث ولم يفكر فى الحياة الزوجية والاستقرار إلا فى أيامه الأخيرة، وعندما فكر فى الزواج تزوج من إحدى نساء الليل بالقاهرة تعرف عليها فى إحدى الحانات والليالى الماجنة وأدى به هذا السلوك السئ إلى أن يصاب بقرحة شديدة ومزمنة فى المعدة، وقد أذهبت هذه المسكرات وغيبت عقله فلم يعد يتقن تلك المهنة التى مارسها سنوات وسنوات، مما اضطر صاحب الورشة أن يستغنى

عنه، فلم يعد له مورد رزق وانفصلت عنه زوجته فلم تعد فى حاجة إليه بلا مال أو ولد فأشفق عليه من رآه من أهل الشمندورة وساعدوه فى العودة إلى أهله وذويه بالشمندورة ليعود مع جموع الحاضرين للحصر والتعداد.

أما سر الختم أبو كمام (كناية عن حياته حياة الترف والنعيم) فقد أغلق نادى (استرا الانجليزى) أبوابه بعد سنوات طويلة من الخدمة فيه، فعاد سر الختم خالى الوفاض صفر اليدين فلم يبق معه قرش أبيض من أيام العز والترف والنعيم لينفعه فى يوم أسود كهذا عندما أغلق النادى أبوابه حيث لم يجد مصدرًا للدخل؛ ففكر فى العودة أخيرًا إلى الشمندورة متحسرًا على أيامه الخالية ولا ينفع الندم على اللبن المسكوب.

امتلأت الشمندورة وغيرها من القرى بالعائدين للحصر والتسجيل واستيفاء استمارات البحث وشكلت لجان الحصر والبحث للأفراد والأسر والممتلكات طبقًا للقرار الوزارى ١٦ فى ١٩٦٢/٩/٢٤ والقانون رقم ٦٧ فى سنة ١٩٦٢.

وصدرت التعليمات بالأوامر إلى العمد والمشايخ بتسهيل مأمورية لجان الحصر فوفروا لهم جميع سبل الراحة وتهيئة الظروف والمناخ لتباشر اللجان أعمالها وفتحت السجلات للتسجيل وتحدد برنامج زمنى للحصر والتعداد كالتالى: يوم السبت سنتيه لنجع البوسطة وكرجيه لنجع البريا، وأوندى لنجع الموردة وتوسكندى لفركى نركى أى نجع الوادى وكمسوندى لنجع باشرى ودجوندى لنجع فقير وجميه لنجع العمدة[1].

من النوبيين الكثير لم يعرف أو يتقن التحدث باللغة العربية فيقوم العمدة أو شيخ الناحية أو أحد المعلمين بمدرسة الشمندورة

---

(1) أيام الأسبوع: السبت الاحد............. إلخ الخميس الجمعة

بالوساطة بينهم وبين أعضاء اللجنة والترجمة والتبسيط للبيانات المطلوبة لاستيفاء الاستمارة المعدة للحصر والتعداد وتعرض اللجنة على العمدة مشكلة آل باشرى فقد اختلفوا فيما بينهم ولم تتمكن اللجنة من استيعاب مضمون ما تدلى به محروسة باشرى من بيانات أو اعتراض فقد احتدم النقاش بينها وبين نبرة أم جمال باشرى، فقد قام سيف الدين باشرى بتكاليف إنشاء الساقية عله أن يكون نصيبه فيها الثلث وللأخوين شقيقيه الثلثين بالتساوى بينهما، ولكن محروسة باشرى تطالب بنصيبها فى الساقية والتعويض عنها لأن الأرض التى أنشأت عليها الساقية لجدهم باشرى وهى وريثة فى أرض جدها.

أما عثمان باشرى ومحى الدين يصران على كتابة أشجار الليمون والحنة والنخيل بأسماء أولادهما دون سيف الدين وأولاده، وحجتهما فى تبرير ذلك أنهما اللذين قاما بغرس تلك الأشجار ورعايتها دون سيف الدين وأولاده الذين يعيشون بالقاهرة، ويتدخل الشيخ عبد الله وينجح فى فض النزاع وحل مشاكل آل باشرى بحكمته وحنكته وخبرته فى هذه الأمور، ومن مشكلة آل باشرى تنتقل اللجنة إلى مشكلة أخرى وقضية أخرى فإن والد مصطفى أبا يزيد قد وافته المنية وترفض والدته رفضًا باتًا الامتثال أمام اللجنة لتدلى بالبيانات المطلوبة وذلك حياءً وخجلاً ويقنعها الشيخ عبد الله بضرورة ذلك حتى تحتفظ بحقها فى منزل للأسرة فى الموطن الجديد.

ويصل من بين القادمين إلى الشمندورة خليل أفندى فتستقبله الشمندورة بعد شوق إليه واشتياق لرؤيته دام سنوات استقبلته الشمندورة استقبال الفاتح المنتصر، فيعود إلى الشمندورة كما تنبأت تلك العرافة منذ سنوات طويلة: تنبأت أن خليل أفندى سيعود يتأبط زوجة شقراء ذات عيون زرقاء "وقد عاد خليل أفندى اليوم فى صحبة زوجته كاميليا الشقراء ذات العيون الزرقاء بشعر أصفر

طويل مسترسل يكاد يصل إلى خصرها أسود كظلمة الليل فى ليلة غاب فيها القمر ويصطحب أبناءه فقد اكتسب شقرة فى البشرة وزرقة فى العيون من أمهما كاميليا خليفة البنهاوى كما اكتسبا بساطة فى الجسم وملامح نوبية من أنف دقيق يتناسب مع الابتسامة المرسومة على شفاههم وشعر مجعد يسترسل على الجباة ولعلها مكتسبة من والدهما خليل أفندى ويتكلمون بلسان عربى، ويتيه والد خليل أفندى ووالدته فخرًا بهذه الذرية التى تختلف عن أبناء الشمندورة ولا تسعهما الدنيا من الفرحة الغامرة والبهجة والسرور بعودة خليل أفندى بعد غياب طويل فى رفقة زوجته وأبنائه.

ينكب خليل أفندى يقبل أيدى والديه ويعتذر لهما عن بعده ورحيله عن الشمندورة سنوات وسنوات وتمتلئ العيون بدموع الفرحة للقاء وتشهد كاميليا هذا المشهد الرائع للقاء الابن بوالديه ومن أجل خليل يكون الترحيب بكاميليا ويبادلها والد خليل بكلمات رقيقة تكريمًا وترحيبًا بها بالشمندورة فى عبارات عربية ملوية، بينما والدة خليل وفردوس يطبعان قبلات على جبينها ووجنتيها وتحاول كاميليا أن ترد معبرة على تلك المشاعر الفياضة الطيبة بكلمات نوبية تعلمتها من خليل أفندى ربما لهذه المناسبة فتقول بلسان ملوى:

(ووايويو إك مشكريه) ومعناها بالعربية أنا مشتاقة إليك يا أمى (وتقصد بها والدة خليل أفندى) وتخاطب كل من يسلم عليها من أهل الشمندورة قائلة: (مسكاجروا) ومعناها بالعربية دمتم طيبين ويبتسم والد خليل فهو فى غاية الفرحة والسعادة وهو يقدم أحفاده لأهل الشمندورة قائلاً: شيرين وشريف أحفادى أولاد خليل أفندى، وكان من بين المستقبلين لخليل أفندى فى الشمندورة الشيخ عبد الله الذى التفت إلى والد خليل وفى عينيه إشارة لم يفهمها إلا والد خليل ولكنه عبر قائلاً: ألم أقل لك أن خليل لن يعدم زوجة

جميلة وألف من يتمناه زوجًا لابنته، بسم الله ما شاء الله ويرد خليل أفندى: كل شئ بأمر الله وسبحان من قدر الأقدار وسير الأمور.

وقد استطاع والد خليل أن يسجله فى استمارات البحث والحصر يسجل خليل أفندى وزوجته وأولاده فى حجرتين منفصلتين عن المنزل الكبير ليكون لخليل بيت مستقل ومنفصل فى النوبة الجديدة بكوم أمبو.

ويسأل خليل أفندى عن زملائه وأقرانه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من هو على قيد الحياة ويسأل عن الدفعة الأولى التى تخرجت فى مدرسة عنيبة الأميرية سنة ١٩٣٧ وعرف أن النتيجة بلغت ٨٠ ٪ ناجحين من بين ١٥ متقدم نجح ١٢وترتيب المدرسة ال٣٥ من بين (١٣٦ مدرسة)، ويسأل عن تلك المجموعة التى تخرجت فى مدرسة عنيبة الاميرية فى ١٩٣٧ ومنهم من استكمل تعليمه بالقاهرة أو الإسكندرية، ومنهم من اكتفى بتلك المرحلة المتوسطة كما عرف من أهل الشمندورة أنه افتتحت مدارس أخرى غير مدرسة الشمندورة تستوعب خريجى المعلمين من النوبيين مثل مدرسة قورتة والدكة وعنيبة وأرمنا، كما افتتحت المعلمين بقورته والثانوية بعنيبة، كما سأل عن حسن جريتى الذى ضعفت قواه من مرور تلك السنوات الطويلة ولم يعد يقوى على أعمال الحقل والزراعة واكتفى بصيد السمك ويعيش فى منزل صغير وهبه له الشيخ عبد الله وعند الحصر تم حصره مقيمًا فى هذا المنزل عن طيب خاطر من الشيخ عبد الله؛ فالبيوت كلها ستكون قريبًا فى أعماق وقاع البحيرة.

أما الحاج صالحين صاحب متجر ألف صنف وصنف؛ فقد سجل فى استمارات الحجز كل أخوانه وأخواته فى بيت واحد فهو أكبرهم وبمثابة والدهم ولم يرد أن يتخلى عنهم؛ لذا فقد سجل المقيم منهم والمغترب فى منزل واحد يضم الجميع ولم يفطن إلى أن

اكبر بيت فى الموطن الجديد يشتمل على أربع حجرات فقط مهما كان عدد المحصورين كبيرًا وكان فى إمكانه أن يسجل كل منهم فى حجرات منفصلة عن البيت، ولكن غطت العاطفة على العقل وسيطرت عليه مشاعر الأخوة.

بيت بحجرة واحدة ومنافعها للفرد الواحد وبيت بحجرتين ومنافعهما لفردين ومن ثلاثة أفراد إلى خمسة بيت بثلاث حجرات ومنافعهما وأكثر من خمسة مهما كان العدد بيت بأربع حجرات ومنافعها وهذا هو ما اتبع فى النوبة الجديدة بكوم أمبو والتسكين فى البيوت الجديدة.

وأما سيف الدين فقد أستطاع أن يفصل أش الله فى منزل منفصل ويكون حصره فى حجرتين منفصلتين عن البيت مع جدته لأبيه ليكون لهما فى الموطن الجديد بكوم أمبو بيتًا منفصلاً ومستقلاً وضم إليه زوجته وبقية أولاده فى منزل.

بينما على كلتومة تزوج من ابنة عمه ولم ينجب منها إلا ثلاث بنات وتزوج من أخرى رغبة فى إنجاب الذكر فأنجبت له توءم من البنات فتزوج من الثالثة وأنجبت له المولود الأول ذكر وبعد ذلك اتبعته بذرية من البنات، بينما أنجبت الزوجة الأولى والثانية أولاد ذكور وعند الحصر خشى أن يكون له فى الموطن الجديد بكوم أمبو بيت واحد بأربع حجرات يضم الزوجات الثلاث ولما فطن إلى ذلك فكر فى فكرة أذهلت أهل الشمندورة فقد أعلن طلاقه لزوجتين فى أيام قليلة واحتفظ بزوجة واحدة فقط وتم حصر الزوجة التى فى عصمته مقيمة معه فى البيت وأما المطلقتين حصرتا كأرملتين كل منهما فى حجرات منفصلة، وبذلك ضمن فى الموطن الجديد بكوم أمبو ثلاث منازل كل زوجة فى منزل منفصل ومستقل، وبعد رحيل اللجنة وانتهاء الحصر وطوى السجلات أعاد الزوجتين إلى عصمته مرة أخرى وبذلك فقد كان الطلاق مع سبق

الإصرار بإعادتهما إلى عصمته مرة أخرى.

وقد منعت الظروف فى المدن مثل القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن منعتهم الظروف من الحضور إلى الشمندورة لسبب أو لآخر فتم تسجيلهم مغتربين ومنهم من استطاع العمد والمشايخ أو أهل الشمندورة أن يسجلهم مقيمين وحضور؛ بأن يمتثل أمام اللجنة واحد من المقيمين ويتقدم ويقدم نفسه باسم المغترب الذى لم يتمكن من الحضور وبخاصة شاع ذلك فى النساء لأن النساء كانت تمتثل أمام اللجنة وهى تغطى وجهها بالطرحة حياءً وخجلاً؛ ولذا يمكن لها أن تمتثل أمام اللجنة مرات ومرات على أنها فلانة ثم فلانة ثم فلانة، وهكذا ولم تكن هناك مستندات لإثبات الشخصية فإذا أقر العمدة أو الشيخ أو المعاونين للجنة من النوبيين إذا كان الاقرار بأن هذه فلانة فيثبت لدى اللجنة أنها فلانة دون تحرى أو بحث أو تدقيق. وبذلك سجل كثير من المغتربين من الرجال والنساء على أنهم مقيمين ومتواجدين وهم غير متواجدين ومغتربين فى مختلف مدن الأقاليم كالقاهرة والإسكندرية.

وتستقبل الشمندورة مرجان دهب بعد غيبة دامت سنوات وسنوات فقد جاء ترافقه زوجته شربات الشقراء ذات العيون الزرقاء ويصطحب أولاده بشير وبشاير ويحمل فى جيبه حفنة من بقية الجنيهات المعدودة من مكافأة نهاية الخدمة، فقد توفيت والدته حسرة عليه وأما والده فقد بلغ من الكبر عتيًا فيرتمى مرجان دهب فى أحضان والده ويلتف حوله أخوانه وأخواته فرحين بعودته وقد استقرت عيونهم فى رءوسهم لا يكادون يصدقون رؤية مرجان أمامهم فينكبون عليه يعانقونه بحرارة وشوق ويسألونه لم هذه الغيبة عن الشمندورة؟!! هل نسيتنا يا مرجان؟!!. لن تغادر الشمندورة مرة ثانية.

ثم يلتفتون إلى شربات يرحبون بها مع توجيه اللوم إليها يعاتبونها

لماذا لم تطلبى من مرجان أن يأتى بك إلى الشمندورة فنسعد بك وببشير وبشاير؟!!! أهلاً بكم كم نحن فى شوق واشتياق إلى مرجان وزوجته وأولاده؟!!! انظرى إلى أهل الشمندورة كم هم سعداء وفى غاية السعادة بمرجان وبك والأولاد !! وتبادلهم شربات بلسان ملوى ينطق بعبارات نوبية قد تعلمتها من مرجان ونساء النوبة والشمندورة بالإسكندرية فتنطق بصعوبة {ويآ جرو...... مسكاجروا.. ووانوبة نتوا..... ووا أنسجوا...... يويو جوا...... ووا أشريجوا} وتعنى بالعربية كيف حالكم....... ودمتم طيبين.........: يا أهل النوبة....... أخواتى... أمهاتى................ يا حلوين.

وتميل الأخوات أشقاء مرجان على بشير وبشاير يحتضنوهما وفى عناق شديد يطبعون قبلات عى الجباة والوجنات وتسرع إحداهن وتعود بخرز أزرق حرز وتميمة وتعلقه فى عنق كل من بشاير وبشير ليمنع عنهما حسد الحاسدين وهى تردد: بسم الله مشاء الله سمار وجمال وصحة وحلاوة مع أن لونهما يميل إلى لون شربات وقد أخذت العيون تحدق فى شربات وينظرون إليها بدهشة ممزوجة بإعجاب إلى جسمها الغض البض من بين طيات الجرجار من الجورجيت الخالص والطرحة التى شكلت حول وجهها المشرق المبتسم طوقًا بينما تنظر شربات وتلتفت هنا وهناك إلى أهل الشمندورة بعيون يصدر منها بريق يخطف الأبصار من بين حواجب أحطت بالمقلتين هلالاً ساحرًا.

ويفوز مرجان دهب وزوجته وأولاده ببيت فى النوبة الجديدة بكوم أمبو حيث سجل مقيمًا فى استمارات الحصر والتعداد. تنتهى لجان الحصر والتعداد من أعمالها فى الشمندورة من تسجيل وحصر وتعداد الأفراد والأسر والممتلكات من عقار وأطيان.

باخرة النحيب والرحيل

وحانت ساعة الرحيل وأهل الشمندورة مثل بقية قرى النوبة التى سبقتهم بالهجرة إلى وادى كوم أمبو يخربون بيوتهم بأيديهم مجبرين مكرهين فهذا الشيخ عبد الله وزوجته يتحسرون على الديوان والحاصل الذى أقاموه عشًا للزوجية لسعدية الشيخ منذ أيام قليلة لا تتعدى شهور وها هى والدة مصطفى أبا يزيد تمنع مصطفى أبا يزيد من أن يخلع الأبواب والشبابيك معلنة رفضها الهجرة عن الشمندورة.

يعود بكرى إلى الشمندورة ليكون مع والديه وشقيقته فى يوم الرحيل ويساعدهم فى تحزيم الأمتعة ونقلها ويكفيهم الحاجة إلى معين، وهذا هو على كلتومة يتحسر على مركبه فلا حاجة له بها بعد اليوم فمال على مركبه ينهال عليه بالقادوم والمنشار ويحيلها أكواما من قطع الأخشاب أمامه ويشد بعضها إلى بعض ويحولها إلى صندوق يضع فيها أمتعته أو إلى سرير[1] ويقطع نياط قلبه ألمًا وحسرة مريرة على ذلك المركب الذى كان يجرى له الصيانة بصفة دورية ويطليه بأجمل الألوان المزخرفة، وبشراعه الأبيض الكبير والسارى الطويل الذى يصل إلى عنان السماء فها هو المركب يقطع ويقسم إلى أجزاء فلا حاجة فى الموطن الجديد للمركب الذى يتهادى به عبر النيل شرقًا وغربًا.

وكون شباب الشندورة فرقًا للمروءة والنجدة يتزعمهم بكرى

---

(1) المقصود بالسرير فرش من الخشب بقوائم من العروق الخشبية وليس سرير موبليا كما هو معروف.

ويضم إليه شباب الحى فلا يتركون نجعًا أو حيًّا أو ناحية من نواحى الشمندورة إلا تفقدوا أهله؛ يقفون بجانب الأرامل وكبار السن والعجزة ذوى الاحتياج والحاجة يساعدونهم أو يتولون عنهم جمع المتاع والتحزيم والرباط والنقل، وتشكل فريق منهم يقومون بذبح الذبائح من الماشية والأغنام التى مصيرها أن تذبح وتحمل زادًا قديدًا فى الهجرة والرحيل الذى سيستغرق أيامًا.

فما تبقى إلا القليل والغالبية ذبحت لتكون طعامًا حتى تستقر الأوضاع فى الموطن الجديد فتقوم مجموعة من الشباب بمهمة الذبح والسلخ وتقوم النساء بإعداده قديدًا إلى جانب لحوم الطيور والدواجن.

أما نجار القرية فيساعده الشباب فى تحويل الأبواب والشبابيك وخشب الأسقف إلى صناديق لحمل وتخزين الأمتعة أو إلى أسرة {العنجريب} وأخرى تقوم بهدم الأسقف ففى بعضها عروق الخشب التى يمكن الاستفادة بها فى الموطن الجديد وتفرغت سعدية الشيخ وزهرية سعيد وتطوعتا بالعمل مع خليل أفندى وأش الله فى إقناع الأمهات والجدات وكبار السن بالهجرة والرحيل عن الشمندورة أولئك الذين يتمسكون بتراب الشمندورة ويكون الإقناع أحيانًا بالترهيب من شبح الطوفان والغرق وأحيانًا بالترغيب فى الموطن الجديد فى وادى كوم أمبو بعيدًا عن الطوفان فى أمن وأمان من الغرق وأحيانًا يمنونهم بأحلى الأمنيات والأمانى والحياة السعيدة المنتظرة فى وادى كوم أمبو.

فهذا هو الشيخ عبد الشكور يصر إصرارًا شديدًا ولا يتصور أبدًا أن يرحل أو يتخلى عن الشمندورة فيصرخ فى وجه كل من يحاول إقناعه بالهجرة والرحيل ويقول مستنكرًا: إلى أين يا أبناء الشمندورة؟!!...... هل إلى مكان أحسن وأفضل من مسقط رأسكم؟!!.......... هل تتركون قبور الأولين السابقين تغرق وأنتم تبحثون عن الأمان من الغرق؟!!...... هل تتركون الآثار وشواهد

التاريخ تضيع هباءً وسدى.

رحماك يا الله...... العقل أيها المجانين؟!!... أين الشجاعة.... الاعتصام بقمم الجبال والمرتفعات ولا الرحيل إلى الشمندورة. ويتمسك بالشمندورة فلا مفر من أن يحمل من على الأرض حملاً وهو يتشبث بالأرض وجدران المنزل وبصعوبة بالغة يخلعونه خلعًا بينما يرتفع صوته ممزوجًا بالبكاء وتغالبه الدموع فيغمى عليه ويحمل إلى الباخرة رغمًا عنه.

وهذه صندلية جدة شكرى حسنين لأبيه ترفض الهجرة والرحيل عن الشمندورة وتتوسل بالشيخ شندى بمقامه وكرامته وتنادى أيها السد العالى إذا كنت سببًا فى فراقنا للشمندورة كتب الله عليك الهدد والخراب كما خربت بيوتنا؟!! إلى متى ستطاردنا أيها النيل ماذا جنينا لتتعقب آثارنا بالطوفان والغرق؟!! أشهد يا شيخ شاندى اشهدا يا قبور الآباء والأجداد ويتقطع صوتها بين مغالبة الدموع والبكاء والشجون وترتمى على الأرض منهوكة القوى فيحملونها إلى الباخرة عنوة

أما أحمد سيف الدين وأترابه من الفتيان فقد وجدوا المتعة فى ممارسة هواياتهم يتفقدون الأحياء والنجوع بالقرى التى رحلت وهاجرت إلى وادى كوم أمبو وتركوا آثار الديار أطلالا فيمرون على الأطلال ويجدون أفراخ الحمام فى أعشاشها التى لم يتمكن أصحابها من الإمساك بها لسبب أو لآخر فى الدهليز (صالة فى مدخل البيت) يجدون الأزيار قد ملئت بماء عذب من ماء النيل ويتقاطر الماء منها وكأن فى البيت سكان ولا عجب من كلب يلهث من الجوع وقد توحشت القطط الأليفة وتكاد تلتهم افتراسًا كل من يحاول الاقتراب منها. والحجرات بلا أبواب ولا شبابيك مثلها مثل الباب الرئيسى مفتوح على مصراعيه بل بلا مصراعين نهائيًا ، وينعق البوم فى جوانب البيت والغربان فى الدار وقع،

وتتجاوب صداها مع عواء الذئاب والضباع حيث تصول وتجول فى وضح النهار فى أنحاء القرية بلا احتراس أو حذر فلا إنسان ولا خطر فأمنت بسلام دون تهديد أو خوف أو فزع.

مرتع الصبا والطفولة عاد قفرًا موحشًا، ويقول بكرى: القرية كلها أصبحت مثل (كرن - نوج) أو حجرات قصر إبريم خالية موحشة (كرن - النوج من الآثار القديمة فى الدولة العثمانية فكلمة كرة أصلها قرة وتعنى كبير القوم أو الرئيس ونوج تعنى بالنوبية البيت بمعنى العائلة أو الأسرة والكلمة تتكون من هذين المقطعين وهى من الآثار العثمانية أو التركية وتقع فى ضواحى وأطراف قرية قتة بالنوبة عبارة عن بيت كبير ذو حجرات ولا يوجد بها سكان ومفتوحة على مصراعيها غير مأهولة). فكل البيوت التى هاجر عنها أهلها إلى كوم أمبو أصبحت شبيهة بكرن - نوج.

ويمر أحمد سيف الدين وبكرى وزملائه على السواقى التى كانت مزدهرة تنتشر فيها الخضرة يانعة فأمست خرابًا يبابًا، وأما النخيل الباسقات والأشجار تطل برأسها كرءوس الشياطين جرداء قاحلة فلا تمر ولا رطب ولا ثمر تقف غرقى فى حشرجة تلفظ بأنفاسها الأخيرة فلا ملقن ولا مودع يوريها التراب وآثار المواقد يعلوها الرماد.

وتسربت مياه النيل طوفانًا وطغيانًا إلى تلك البيوت التى هجرها أهلها إلى الأبد تسربت إلى الحجرات خلسة وغطت أرجاء الفناء وأفزعت تلك المياه المتسللة الزواحف والحشرات فخرجت فزعة مذعورة من مكانها ومن سوء الحظ أن صادفت إحداها أحمد سيف الدين باشرى فلدغته فى قدمه مما اضطر رفاقه إلى أن يحملوه ويعودوا به سريعًا إلى الشمندورة ولا يعلم أحد ماذا أصاب أحمد سيف الدين فى قدمه هل هى لدغة عقرب أم عضة ثعبان أم غير ذلك؟!! إلا أنه شعر بقرصة أعقبها ألم شديد حينما كان

يخوض فى مياه ضحلة تسربت فى حجرة من حجرات تلك البيوت المهجورة فى القرية المجاورة للشمندورة.

ولما وصل أحمد وزملاؤه إلى الشمندورة فليس أمام أهل الشمندورة إلا العلاج المتعارف عليه فى مثل هذه الحالات من لدغ عقرب أو عضة ثعبان فكان الجرح والتشريط لمكان الألم بالموسى أو بمبضع مع ربط أعلى الإصابة حتى لا يتسرب السم إلى بقية أجزاء الجسم وبخاصة القلب مع إعطاء المصاب جرعة كبيرة من السمن البلدى والبيض النئ بالإضافه إلى البصل والليمون وقاية، وفى حالة عضة الثعبان تشطر حمامة حية من بطنها ويضعونها موضع الإصابة لتمتص السموم مع كل شهيق وزفير هذا هو العلاج المتوفر والمعروف فى الشمندورة وقرى النوبة.

وقضى أحمد سيف الدين باشرى فترة ملازم للفراش ثم تحسنت حالته بالتدريج وتم تحذيره من إعادة الكرة مرة أخرى ولكن هيهات..... هيهات أن يتخلى عن تلك الهواية المفضلة من التجول والتفقد وحب الاستطلاع.

أما نعمة باشرى وأترابها من الفتيات كانوا فى غمرة من السعادة والسرور للهجرة إلى الموطن الجديد ويتمنون الأمانى؛ ولذا جمعوا جلود الأغنام من الذبائح التى تحول لحمها إلى قديد يحمل زادًا جمعوا الجلود وشدوها مزاهرًا ودفوفًا يدقون عليها ويتغنون بأغانى عذبة بما وعدوا به فى الموطن الجديد فى وادى كوم أمبو من طيبات وملذات وجمال ونعيم مترف.

أهل الشمندورة كلما اقتربت ساعة الرحيل والهجرة والنزول إلى الباخرة تنقبض قلوبهم وترتجف حسرةً وألمًا لما يصيب الشمندورة كغيرها من القرى والنجوع من خراب ودمار وتسكنها الوحوش وتغمرها مياه الطوفان وتغوص إلى أعماق النيل تلفظ أنفاسها وتضيع إلى الأبد وتروح أدراج الرياح بما حوت من بيوت وقبور الأولين والآثار

والممتلكات التى تركت اضطرارًا فلا منقذ ولا مغيث.

وفى ضحى يوم كئيب ارتفعت فيه الشمس إلى كبد السماء ترسل باللهيب وكأنها تودع من قريب ناحت على الشط باخرة النحيب تأذن بالهجرة والرحيل وأطلقت صفارتها تزأر يسمعها القريب والبعيد فاستجاب الجميع من أهل الشمندورة طوعًا وكرهًا للهجرة والرحيل، ونقلت الأمتعة وصفت، وحشدت الحيوانات (المناشية والأغنام) داخل الباخرة وصعدت الجموع زاحفة بخطى وئيدة كهولة وشبابًا رجالاً ونساءً وفتيانًا وفتيات والصبية من بنين وبنات وتنطلق الزغاريد أملاً فى غدٍ مشرق ومستقبل جميل طبقًا للوعود والمواثيق فى النوبة الجديدة، بينما ينظر الكثير منهم بعين الأسى والحزن وألم الفراق فتتقطع قلوبهم حسرة على الشمندورة وتذرف عيونهم الدموع غزيزة على النوبة والشمندورة التى عادت ماضيًا وفى ذمة التاريخ المجيد عبر السنين والقرون.

ولما كان الاطمئنان والتأكيد من خلو الشمندورة تمامًا وصعود الجميع إلى الباخرة أطلقت الباخرة مرة أخرى صفارات عالية متتالية تنذر بالتحرك والإقلاع والطوفان الذى سيحل بالشمندورة كغيرها من القرى ويحكم عليها بالفناء غريقة فى أعماق النيل.

وتدق الفتيات على المزاهر والدفوف ويتغنون بالأحلام الوردية لعلها تتحقق بالوادى الجديد.

أما الكبار شبابًا ورجالاً فقد اصطفوا على مقصورة باخرة النحيب يلقون بالنظرة الأخيرة على تلك القرية المسجاة وقد اغرورقت عيونهم بالدموع، وتذرف الدموع دمًا يتقاطر من القلوب فيرون وكأن سحابة سوداء تغطى الشمندورة وتحيط بها فلا يرون إلا ضبابًا يتغشاها ويحاول البعض وقد أفقده الموقف والمشهد وشدة الحنين صوابه ويود أن ينزل من الباخرة ويعود إلى الشمندورة ولكن هيهات........ هيهات........ هيهات......!!!! فالوداع

وتزاحم على الشط من كل صوب وحدب تلك الحيوانات الأليفة التى تعودت واعتادت وألفت أهل الشمندورة تجمعوا فى حشد كبير فقد جاءت كل منها تتبع آثار أصحابها وتتعقب خطواتهم لتودعهم ولولا حظر ومنع أصحاب تلك الحيوانات لقفزت إلى الباخرة فلما منعت وتركت على الشاطئ، فمنها ما ينبح ويصيح لعله ينادى على أهل الشمندورة متسائلاً: إلى أين الرحيل؟!!... لمن نترك للوحوش فريسة سهلة؟!!.... أم لفيضان النيل والطوفان يهلكنا غرقاً؟!!.. أم لألم الفراق والوحدة؟!!.... وقد يتساءل عن مصيره المجهول فى الفضاء الفسيح بلا طعام أو شراب أو أنيس!!........... ولما لم يجد إجابة من أهل الشمندورة فيودعهم فى أمان الله ويدعون لهم بسلامة الوصول إلى الموطن الجديد ويفوضون أمرهم إلى الله. ومنها ما يقف صامتًا فى اندهاش من أمره لما يرى من أن الكل رحل عن المكان وهاجر عن الشمندورة وغادر بلا عودة أو إياب وكان الوداع!!!!!!............

الكلب الصغير المدلل لحجوجة الصبية قد كتبت له النجاة من الهلاك عندما بكت حجوجة بكاءً مرًّا على كلبها المدلل {سدّل سفرو} وأبت أن تفارقه أو تتركه وتصرّ على أن يكون من بين الأمتعة دلّها بكرى على حيلة وفكرة من بنات أفكاره فما زالت تراوده أفكاره الصبيانية فهداها إلى أن تمنع عنه الطعام والشراب حتى يجوع ويعطش ثم تقدم إليه الخمريد مبللاً بالكحول والماء ومخلوطًا بكمية منه فيأكل ويشرب حتى الثمالة فيعود ساكنًا لا حراك ولا صوت ويكون من السهل حمله ودسه دون أن يشعر به أحد، وفى مثل بكرى تقول النوبة {موجن جلو تا موجن جلولن} أى ديل الكلب هو ديل الكلب ومثله فى العربية {يموت الزمّار وصوابعه بتلعب}.

ورفعت السقالة وتحركت الباخرة وأقلعت وشقت طريقها شمالاً تمخر العباب وشكلت الأمواج دوائر تعلو وتهبط وتتسع حتى تصل

إلى الشاطئ فتنحدر وتتكسر ثم تتبعها أمواج وأمواج.

وها هى أشجار النخيل تنوح بسعفها وكأنها تودع من بعيد وتدعو لهم بسلامة الوصول وإقامة سعيدة فى موطنهم الجديد أما هى فمصيرها الغرق والضياع وتتساءل فى صمت لمن يكون ثمارها ومن يعتنى بها ليقلمها ويلقحها ويجنى التمر والرطب؟!!.....

ويقطع الصمت الرهيب صوت الشيخ داود كونتى يولو: (ابيو. بيو.. ابيوبيو). فيسرع إليه كل من بالباخرة وسمع الاستغاثة يسأل: ما الخبر؟!! فيقول الشيخ داود كونتى وقد سبقته دموعه تنهمر أنهارًا على خديه بقية فلوسى فلوس التعويضات وتحويشة العمر قد نسيتها مدفونة فى ركن فى فناء البيت!! خسارة ضاعت فلوسى.

الشيخ كونتى من بين من سمعوا وصدق الإشاعة بأن الحيوانات ستنفق فى محجر الشلال وباع ما يملك من أغنام وماشية بسعر بخس زهيد قد بيعت البقرة بأقل من عشرة جنيهات والماعز والخروف بقروش معدودة لتجار تكالبوا على الشراء منتهزين الفرصة. وتحسر كل من سمع بضياع فلوس الشيخ داود كونتى وأسرع يواسيه ليؤمن بالنصيب فكم من الماشية والأغنام كسرت رجلها أو نفقت نتيجة أخطاء التحميل والشحن فما أفضل الصبر والإيمان بقدر الله فليست هذه التحويشة بأغلى من بلاد حبيبة إلى القلب تركناها للطوفان والغرق؟!!!...

وبينما الكل يواسى الشيخ داود كنتى فإذا بصوت آخر من جوانب الباخرة يعلو بالصراخ والعويل فهى هجيجة (خديجة إذ ينطق النوبيون حرف الخاء هاء والدال جيمًا) فيسألها القوم ما بها؟!!.. فتجيب أنها تذكرت مصاغها فى سرة مدفونة فى حظيرة الدواجن وقد نسيتها عند الهجرة والرحيل فأخذت تولول وتبكى بحرقة شديدة أن من بينها ما كان صداقًا لها ومهرًا فى يوم زواجها منذ سنوات طويلة وقد احتفظت به مكنونًا!! فيطلبون منها الصبر وأن تدعو الله

أن يعوضها بأفضل منها فى النوبة الجديدة، فالموطن الجديد أقرب إلى القاهرة والصاغة بالحسين وأولادها سيأتون لها بأفضل منها.

ومن آن لآخر يتذكر الكل ما نسيه عند الهجرة والرحيل فهذه قد نسيت أفراخ الحمام فى أعشاشها، وأخرى قد نسيت سلة البيض الذى جمع ليكون زادا فى الطريق، وثالثة قد دست بعض المقتنيات الغالية ذات القيمة العالية فى مكان أمين مدفونة تحت الرمال لحين الهجرة والرحيل وقد نسيت.

نسيت هذه الأشياء وضاعت فى خضم ألم الفراق والمصير المجهول ونقل المتاع ومرسى باخرة النحيب على الشاطئ. وكلما هدئت النفوس واستقرت وأمنت القلوب واستسلمت لما كان النصيب وخضعت للفراق والهجرة والرحيل كلما تذكرت واسترجعت وراجعت ذاكرتها فتألمت حسرة على ما فقد وما ترك سهوًا أو خطأً وهكذا صارت الشمندورة والنوبة بآثارها بما حوت واحتوت ذكريات غطى عليها الصمت وانقض جاثمًا.

فلا حول فيما قد أصاب ولا طولا

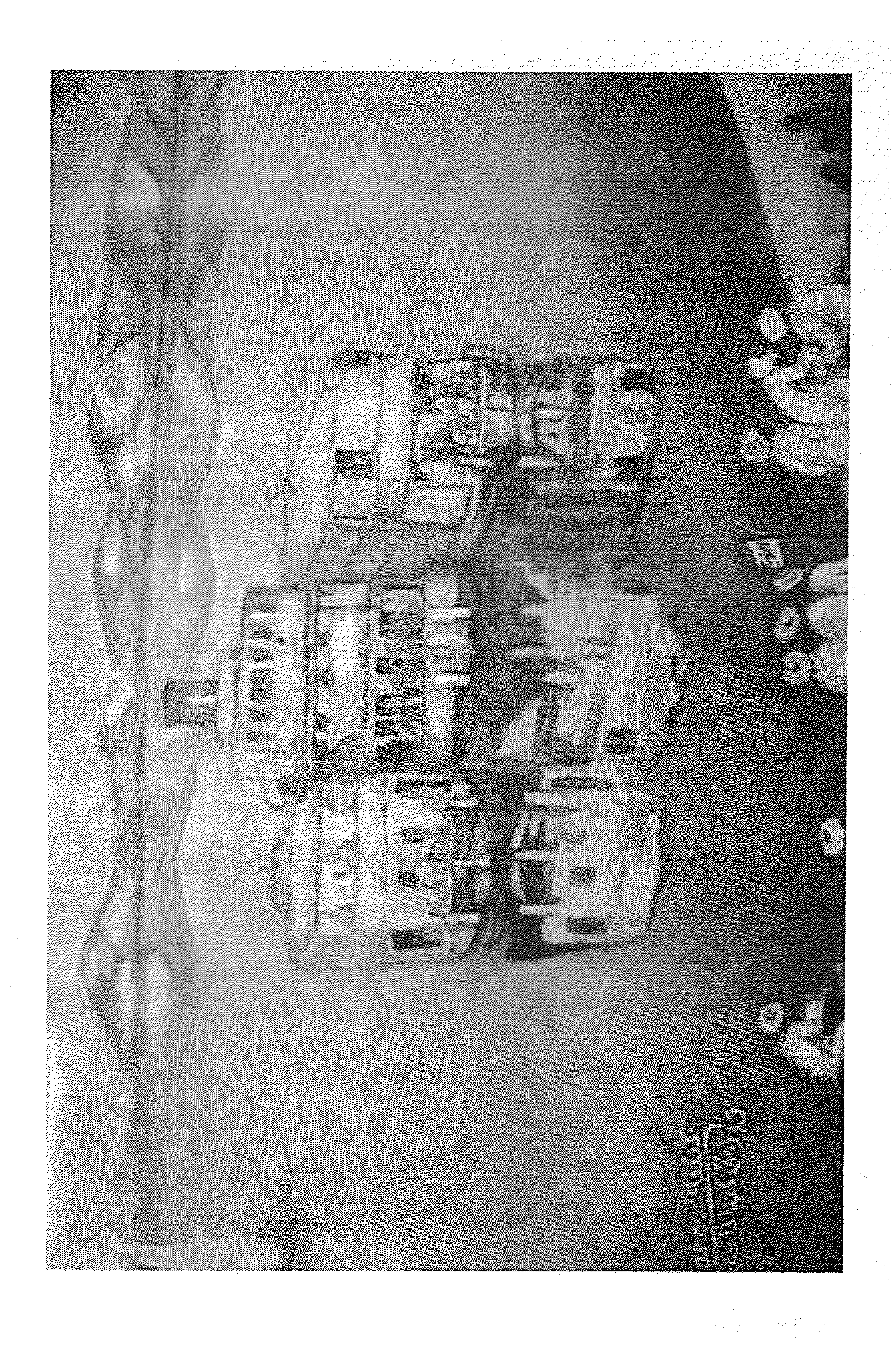
ورفت عليها سكرة الموت وانطوت

سلام عليها أى أيامها يسلى

وإذا جاد للأوطان بالنذر غيرهم

فقد بذلوا والنفس راضية كلا

ترقبوا الجزء الثانى



قالوا عن الرواية (١)

نعود بالقارئ إلى الرواية الأولى للمؤلف وهى رواية (فى مقهى المدبولى) حيث كان العنوان يدعو القارئ يدفعه ليقلب الصفحات ليعلم من فى مقهى المدبولى من شخصيات الرواية؟ وما الأحداث التى دارت فى المقهى؟.

وفى هذه الرواية شدّ انتباهى ولفت نظرى عنوان الرواية الشمندورة وصفحات مستورة وبسرعة استعادت الذاكرة رواية الشمندورة للأستاذ محمد خليل قاسم رائد الرواية النوبية؛ إذ تعد الشمندورة أول رواية نوبية وتتناول النوبة فى الفترة ما بين ١٩٢٩/١٩٣٥م تقريبًا وعقدت علاقة بين الشمندورة وتلك الصفحات المستورة المشار إليها فى العنوان وتساءلت عن تلك الصفحات المستورة فى رواية الشمندورة؟؟؟!!!!!!!

واطلعت على الرواية بهذه الرغبة وذلك الهدف وفى الفصل الأول من هذه الرواية إذا بالمؤلف يبين معنى الشمندورة لغةً وإيحاءً ورمزًا فهى علامة مميزة فى النيل كروية الشكل ذات لون أحمر تنذر بالمخاطر والأهوال لكل من يقترب من حرمها ثابتة صامدة مشدودة إلى الأعماق بسلاسل مثقلات فكانت العودة والتفكير فى تلك الصفحات المستورة وعلاقتها بتلك العلامة المميزة!!!

ومن خلال الرواية نتعرف على الشمندورة القرية الخيالية التى نسجتها يد الكاتب واجتمعت فيها سمات وخصائص كل القرى النوبية ، وتعد بيانًا شافيًا كافيًا لكل من لم يعرف النوبة أو لم

يعاصرها جنوب السد العالى، النوبة بعاداتها وتقاليدها وموروثاتها وتراثها المرئى الملموس والمنطوق والمسموع ومعتقداتها وما مرت بها من أحداث، النوبة بآلامها وآمالها وطموحاتها، النوبة بأهلها النوبيين مؤثرين ومتأثرين بالوطن الأم مصر المحروسة فالنوبة جزء لا يتجزأ عن مصر الحبيبة.

فرجعت أفكر فى الشمندورة وتلك الصفحات المستورة التى تاهت عنى أو تهت عنها فقد اختلطت الأوراق وتعددت الشمندورة فى البر والبحر{النيل} ... وبين الأشارة والتلميح رمزًا والتصريح بها صراحة... وبين الواقع حقيقة والخيال تصورًا... فلأى منها تلك الصفحات المستورة؟؟!!!!

فسألت الكاتب المؤلف: عن حقيقة الشمندورة وتلك الصفحات المستورة فكانت الإجابة منه:

أنام ملء جفونى عن شواردها ويذهب الخلق جرّاها ويختصم

لعلك أيها القارئ بعد قراءتك للرواية تابعت وعلمت ما هى الشمندورة؟! وما هى تلك الصفحات المستورة؟! دون أن نختصم أو يتفرق الرأى أو يحيد.

الحاج/ يوسف نادر حجازى

الناقد الأدبى

وادى العرب/ نصر النوبة

قالوا عن الرواية (٢)

إن هذه الرواية امتصت من رحيق النوبة وشربت أصولها من نهر التاريخ ونبعت من ينبوع السنين الطويلة ولقد جسدت الرواية النوبة الغارقة والمجهولة لكل من لم ير النوبة رأى العين أو لم يعاصر تلك الفترة بأسلوب سهل يحتوى على السرد والحوار والرجوع إلى الماضى بخلفية لاقطة تسقط بأضوائها وتلتقط، كما اشتملت على شعر ونثر وتتابع صفحاتها صفحة تلو الصفحة تشد القارئ دون ملل لينتقل من فصل إلى الآخر فى سهولة ويسر وتسرى وحدة الموضوع والعقدة سريان الروح فى الجسد كله ويشعر القارئ بمعاناة المؤلف كثيرًا فى البحث والتدقيق لندرة المراجع المدونة ولذا يعتمد على المراجع الشفوية المروية على الألسنة للتعرف على الأحداث التى مرت بالنوبة، وقد يقف القارئ عند جملة أو عبارة تثير فيه شجون أو تحرك المشاعر أو تحيى ذكريات نائمة حالمة أو مؤلمة.

ولا شك أن الكاتب يعرض رؤية سياسية وتحليلاً للأحداث وربطًا بذكاء ملموس بين النوبة والوطن الأم مصر الغالية كجزء لا يتجزأ عنها متأثرة بماضيها وحاضرها ومستقبلها بآمالها وآلامها كما كانت مؤثرة فى الأحداث والتاريخ.

وأناشد القارئ للرواية توخى حسن النية فالمؤلف صادق فى نقل الحقيقة والتعريف بالنوبة وكشف الصفحات المستورة عن أعين الكثيرين وبخاصة لمن لم يعاصر النوبة والنوبيين عبر تاريخهم الطويل بعيدًا عن الذاتية والغرور وتزييف الحقيقة وبعيدًا عن

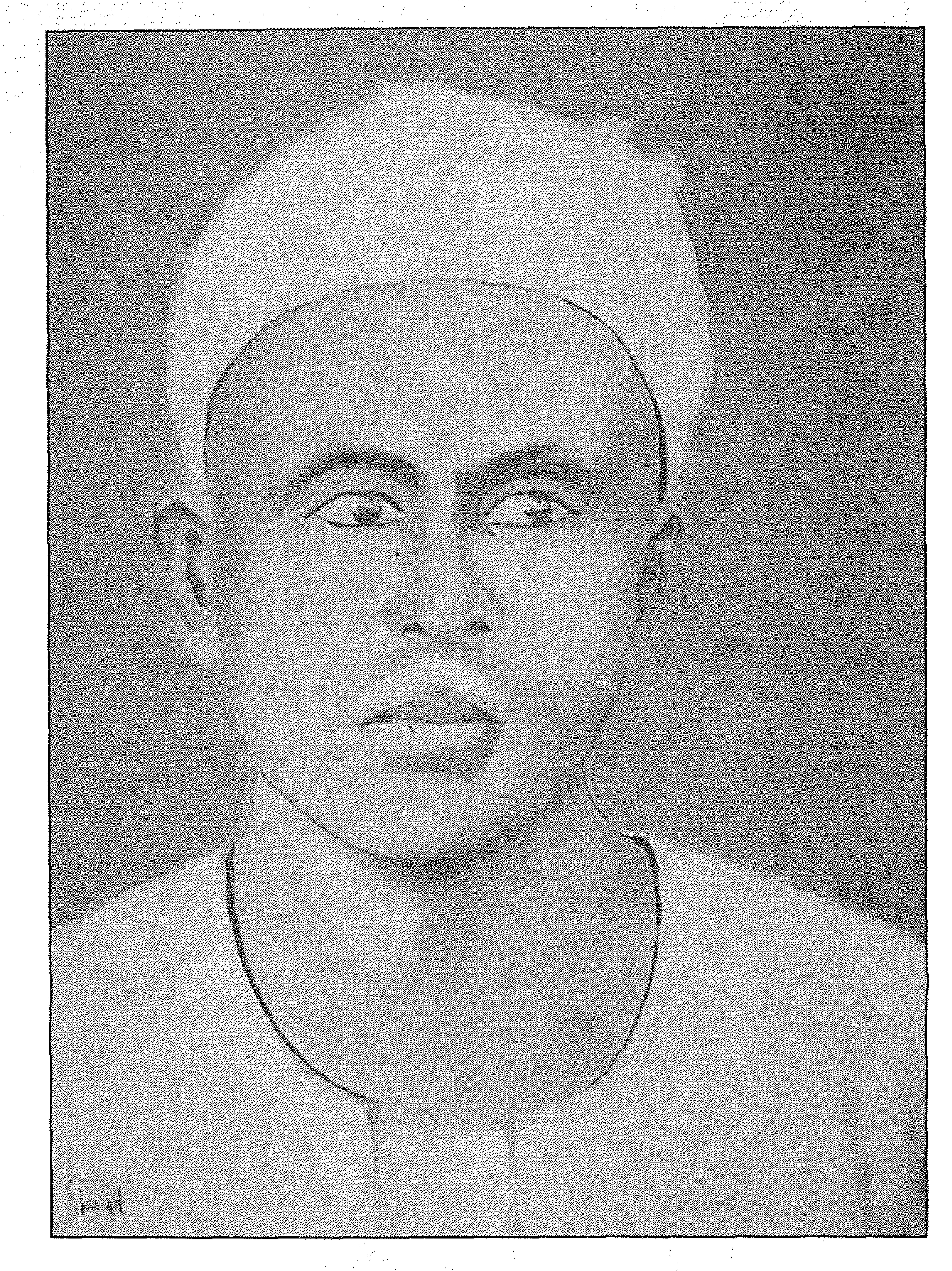
العصبية وحمية الجاهلية الأولى ورغبة فى إحياء التراث النوبى التليد تأصيلاً للعادات والتقاليد والمعتقدات التى بدأت تتساقط كأوراق الشجر اليابسة فى الخريف أو مع رياح الخماسين.

وأسجل تقديرى لقدرة الكاتب فى الانتقال بالقراء من مجتمع المدينة فى الإسكندرية ودمنهور أقصى الشمال (رواية فى مقهى المدبولى) إلى مجتمع النوبة فى أقصى الجنوب محللاً ومعللاً ومنقبًا فى أعماق المجتمع ودواليب الحياة فى لغة سهلة بسيطة بليغة ممتعة.

محمود محمد عبد الرحيم

شاعر الأغنية النوبية

توشكى/ نصر النوبة



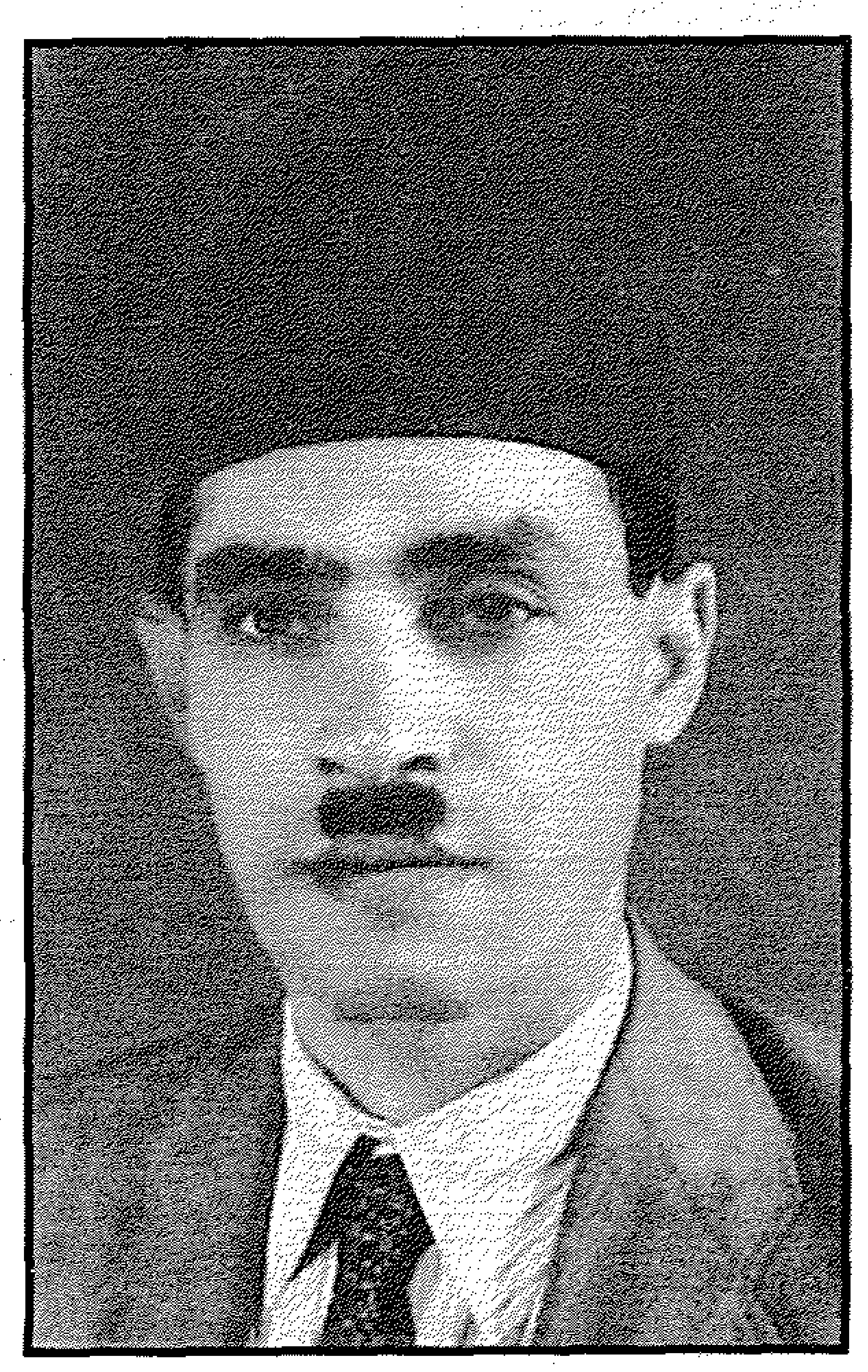
الشيخ محمد علي مرسي



محمد طه أبو زيد بك
عضو مجلس النواب عن النوبة



النائب/ عبدالصادق عبدالحميد



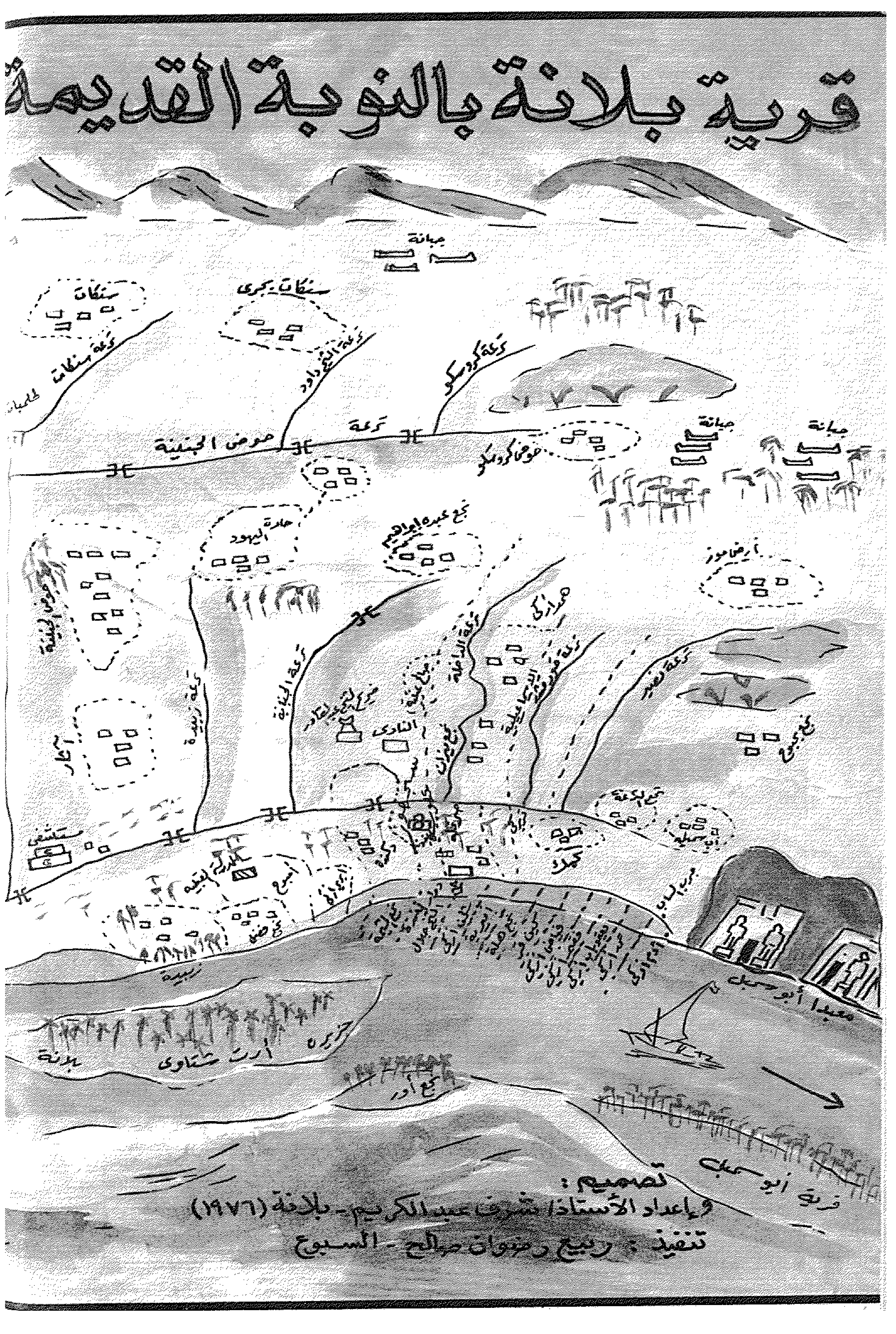
النائب/ شاهين جمزة



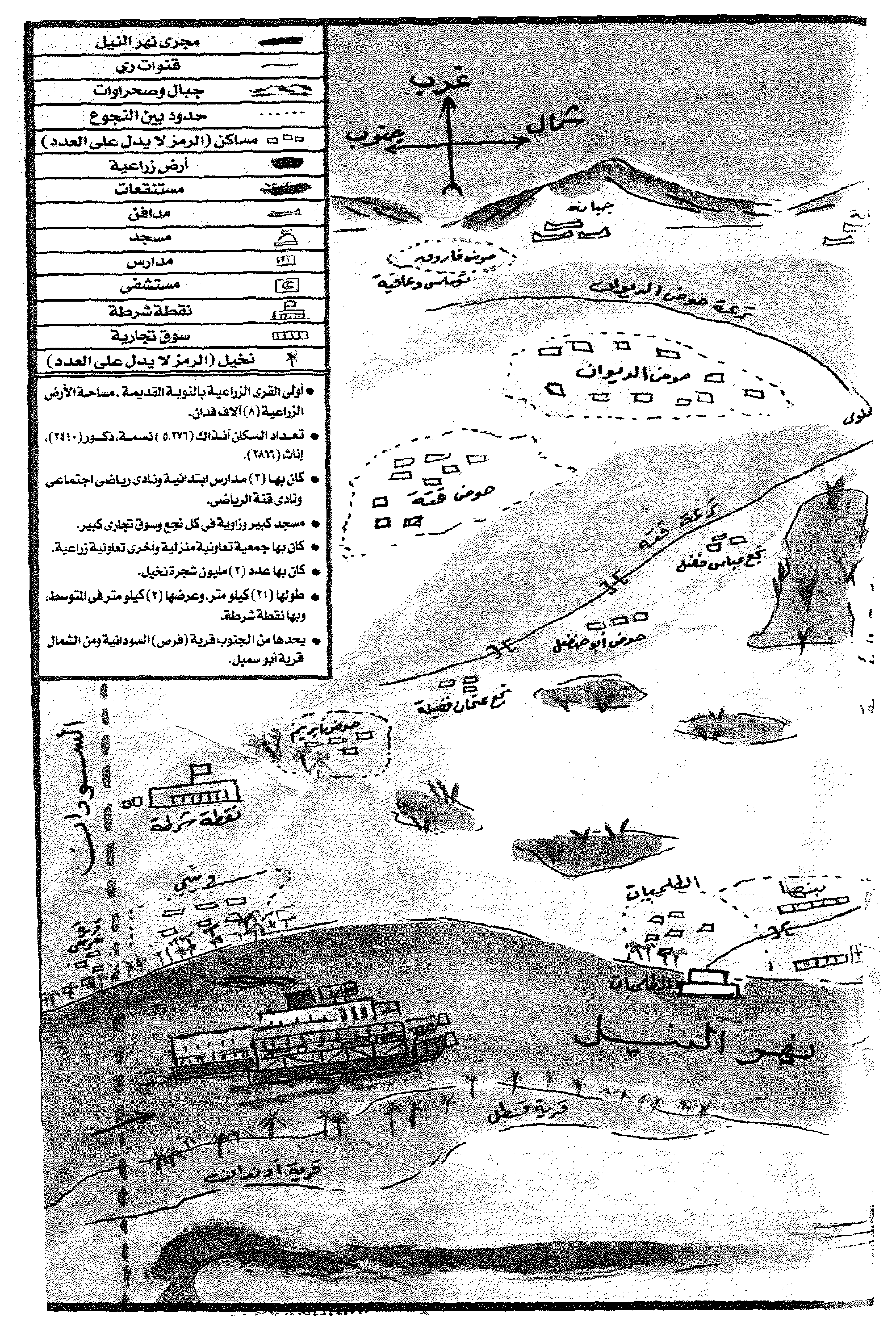
سليمان عجيب (١٩٦٤)



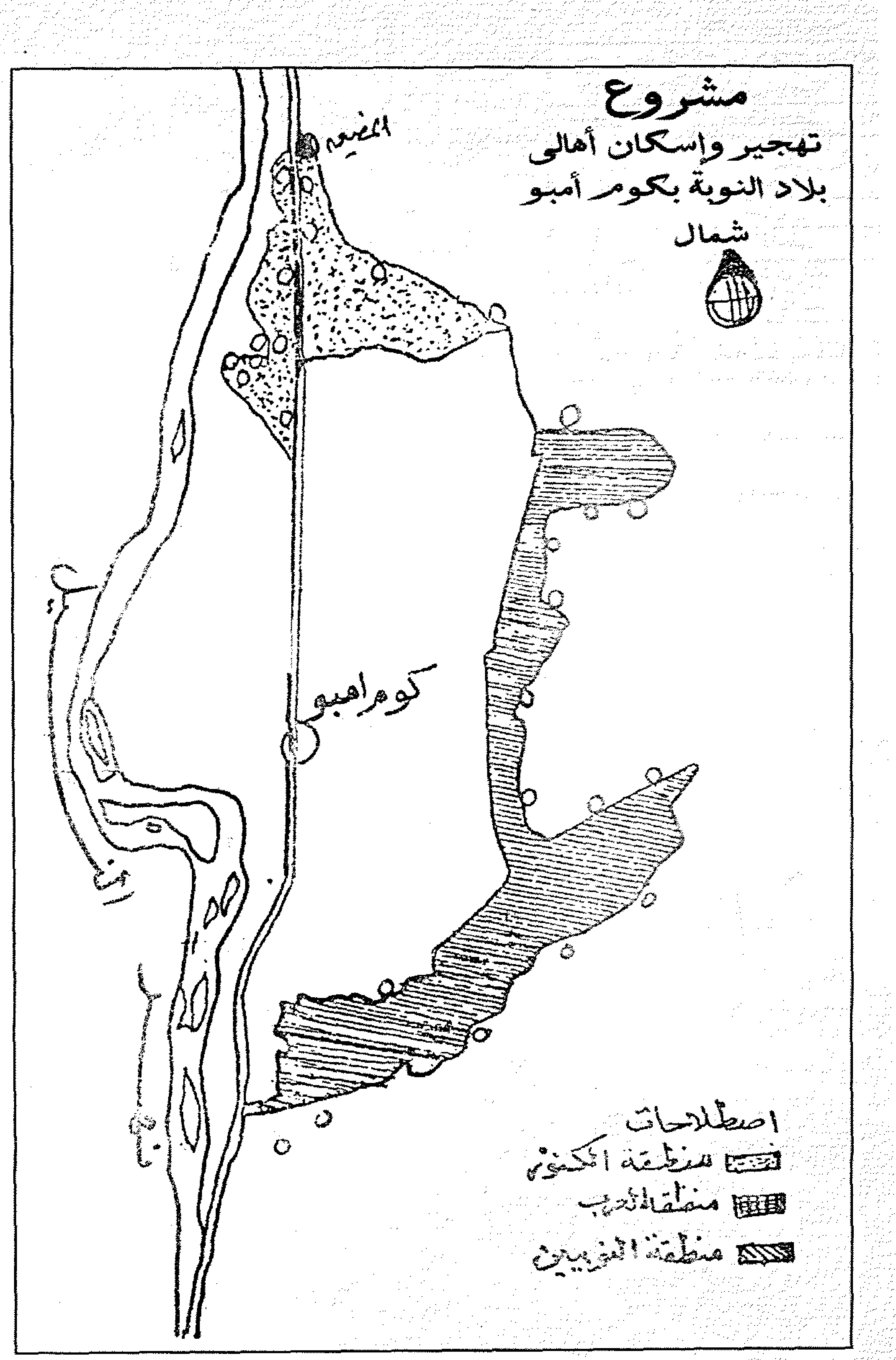
بلاد النوبة القديمة قبل ١٩٣٣ م



قرية بلانة بالنوبة القديمة
جبانة
سنكات
سنكات بحري
حوض الجنينة
حارة اليهود
نجع عبده إبراهيم
النادي
معبد أبو سمبل
جزيرة ارت عشاوي
بلانة
قرية أبو سمبل
تصميم :
وإعداد الأستاذ/ شرف عبد الكريم - بلانة (١٩٧٦)
تنفيذ : ربيع رضوان صالح - السبوع



مجرى نهر النيل
قنوات ري
جبال وصحراوات
حدود بين النجوع
مساكن (الرمز لا يدل على العدد)
أرض زراعية
مستنقعات
مدافن
مسجد
مدارس
مستشفى
نقطة شرطة
سوق تجارية
نخيل (الرمز لا يدل على العدد)
• أولى القرى الزراعية بالنوبة القديمة. مساحة الأرض الزراعية (٨) آلاف فدان.
• تعداد السكان آنذاك (٥٫٢٧٦) نسمة، ذكور (٢٤١٠)، إناث (٢٨٦٦).
• كان بها (٣) مدارس ابتدائية ونادى رياضى اجتماعى ونادى قتة الرياضى.
• مسجد كبير وزاوية فى كل نجع وسوق تجارى كبير.
• كان بها جمعية تعاونية منزلية وأخرى تعاونية زراعية.
• كان بها عدد (٢) مليون شجرة نخيل.
• طولها (٢١) كيلو متر، وعرضها (٢) كيلو متر فى المتوسط، وبها نقطة شرطة.
• يحدها من الجنوب قرية (فرص) السودانية ومن الشمال قرية أبو سمبل.
غرب
شمال
جنوب
جبانة
ترعة حوض الديوان
حوض الديوان
حوض قتة
ترعة قتة
نقطة شرطة
السودان
الطلمبات
نهر النيل
قرية أدندان



بلاد النوبة الجديدة بعد ١٩٦٤

الفهرس

المؤلف

سليمان جمال سليمان

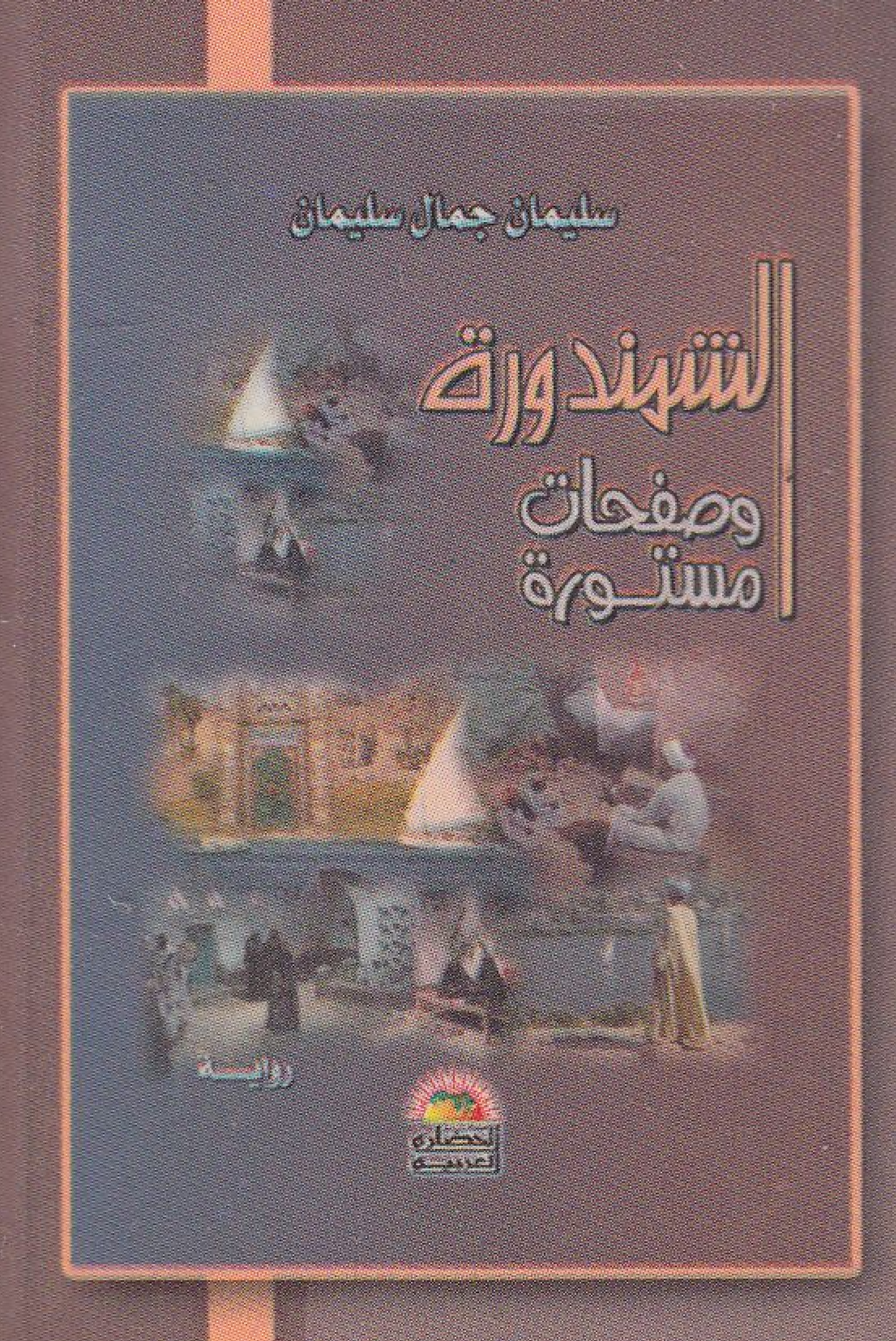
- من أبناء قرية عنيبة/ نصر النوبة/ أسوان.
- مواليد محرم بك – الإسكندرية ١٩٥٤/٣/٤.
- انتقل إلى النوبة جنوب السد عام ١٩٦٣.
- انتقل إلى النوبة الجديدة مع هجرة النوبيين فى ١٩٦٤ واستقر بها.
- تخرج فى كلية الآداب (جامعة الإسكندرية)، قسم اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية وآدابها، فى ١٩٧٦ بمجموع ٧٣٪ وتقدير عام جيد.
- عين مدرسًا بمدرسة (بنبان الإعدادية بدراو غرب النيل) فى ١٩٧٧.
- مشرف شعبة الموهوبين (مسرح بمركز شباب عنيبة المطور فى ١٩٨٥).
- رئيسًا لمجلس إدارة مركز شباب عنيبة المطور حتى ١٩٨٧.
- مدير مرحلة التعليم الإعدادى والثانوى ومنسقًا للإدارة الوسيطة بإدارة نصر النوبة التعليمية.
- مدير المتابعة بإدارة كوم أمبو التعليمية.

❖ صدر له:

- **فى مقهى المدبولى**، رواية، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٧.
- **الشمندورة وصفحات مستورة**، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٩.

❖ تحت الطبع:

- مسرحيات من مسرح الطلائع والشباب.
- قطوف زجلية.





نتعرف من خلال الرواية على الشمندورة القرية الخيالية التى نسجتها يد الكاتب واجتمعت فيها سمات وخصائص كل القرى النوبية، وتعد بيانًا شافيًا كافيًا لكل من لم يعرف النوبة أو لم يعاصرها جنوب السد العالى، النوبة بعاداتها وتقاليدها وموروثاتها وتراثها المرئى الملموس والمنطوق والمسموع ومعتقداتها وما مرت بها من أحداث، النوبة بآلامها وآمالها وطموحاتها، النوبة بأهلها النوبيين مؤثرين ومتأثرين بالوطن الأم مصر المحروسة فالنوبة جزء لا يتجزأ من مصر الحبيبة.

فرجعت أفكر فى الشمندورة وتلك الصفحات المستورة التى تاهت عنى أو تهت عنها فقد اختلطت الأوراق وتعددت الشمندورة فى البر والبحر (النيل) وبين الأشارة والتلميح رمزًا والتصريح بها صراحة وبين الواقع حقيقة والخيال تصورًا ... فلأى منها الصفحات المستورة؟؟!!!!

فسألت الكاتب المؤلف: عن حقيقة الشمندورة وتلك الصفحات المستورة فكانت الإجابة منه:

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويذهب الخلق جرّاها ويختصم



يوسف نادر حجازى

وادى العرب/ نصر النوبة

